مكتبة التاريخ الوسيط

تاريخ الدولة البيزنطية

(٢٨٤ - ١٤٥٣)

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٤



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢٠ إسكندرية

مكتبة التاريخ الوسيط

تاريخ الدولة البيزنطية

(٢٨٤ - ١٤٥٣)

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢٠ إسكندرية

تصديـــر

يسعدني أن أضع بين يدى القارىء العربى الكريم ، مرجعا فى تاريخ الدولة البيزنطية هو خلاصة عمل ... العشرين عاما ، يضم الى غيره من المراجع القيمة التى صدرت لزملاء متخصصين فى هذا الميدان . وخلال تلك السنوات الطوال كنت أتناول هذا المرجع بالحذف والاضافة والصقل والتعديل الى أن اتخذ الشكل الذى هو عليه الآن .

والكتاب يحتوى على خمسة عشر موضوعا ، كل موضوع منها يتناول اما قضية هامة من قضايا التاريخ البيزنطى ، أو تحليلا لعهد امبراطور طغت أعماله وشخصيته على باقى افراد اسرته ، أو عرضا مفصلا لتاريخ أسرة حكمت فترة غير قصيرة من الزمن وترك كل حاكم فيها بصماته على التاريخ البيزنطى . فمن النوع الأول ، الموضوع الأول الخاص بالحدود الزمنية للدولة البيزنطية ،والموضوع الثانى الذى يتناول أسباب بقاء هذه الدولة عشـــرة قرون من الزمان أو يزيد بعد زوال الدولة الرومانية القديمة فى الغــــرب ، ... ـوعان الثامن والتاسع اللذان يعالجان مشكلة الحركة اللاايقونية فى عهدى الأسرتين الايسورية والعامورية . ومن النوع الثانى ، الموضوع الثالث الذى يعالج عصر الامبراطور دقلديانوس ، والرابع الذى اختص بعصـــــر الامبراطور قسطنطين الكبير ، والسادس الذى ركز على الامبراطور جستنيان الأول ، والسابع الذى سلط الضوء على الامبراطور هرقل.ومن النوع الثالث، الموضوع العاشر الذى استعرض تاريخ الأسرة المقدونية وأباطرتهـــا ، والموضوع الثانى عشر الذى تناول بالدراسة تاريخ أسرة كومنين وأباطرتها، والموضوع الخامس عشر الذى عالج أحوال الدولة البيزنطية فى عهد آخـــر أسرة تولت الحكم فيها ، وهى أسرة باليولوجس ، التى شاهد آخر أباطرتها، وهو قسطنطين الحادى عشر ، استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية

سنة ١٤٥٣ ، هذا الحدث الذى يعتبر بمثابة نهاية عصر بمثله وأوضاعه ومفاهيمه،وبداية عصر جديد فى تاريخ البشرية بفلسفة وأفكار جديدة مغايرة .

وقد ذيلت الكتاب بقائمة مرتبة ترتيبا زمنيا بالأسرات التى حكمت ببزنطة ، وأباطرة كل أسرة وتاريخ حكم كل منهم ، وذلك ابتداء بقسطنطين الكبير وانتهاء بقسطنطين الحادى عشر . وأعقبت ذلك بقائمة ببعض المراجع فى التاريخ البيزنطى .

والله أسأله السداد ،

الاسكندرية فى يناير ١٩٨٤ — **جوزيف نسيم يوسف**

مقــــدمة

فى

تــاريخ الدولة البيزنطيــة

تعرف الدولة البيزنطية باسم الدولة الرومانية الشرقية ، تمييزا لهـا من الامبراطورية الرومانية القديمة التى سقطت فى اواخر القرن الخامس الميلادى على ايدى الجرمان البرابرة ، وايضا تمييزا لها من الامبراطورية الرومانية الغربية التى تم احياؤها فى بداية القرن التاسع الميلادى فى عصر شارلمان ، وتجديدها فى القرن العاشر زمن اوتو السكسونى . كذلك تعرف فى المصادر العربية باسم دولة الروم نسبة الى سكانها الأول الذين كانوا من الرومان ، والى البحر المتوسط الذى كان يعرف وقتها باسم « بحر الروم » . اما تسميتها بالدولة البيزنطية ، فيرجع الى الموقع الذى أقيمت فوقه عاصمتها ، وكان يسمى بيزنطة **Byzantium** وتقع عاصمتها القسطنطينية عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، وسميت كذلك نسبة الى مؤسسها قسطنطين الكبير . فكانت بمثابة روما جديدة او روما ثانية بعد أن فقدت روما الغربية قيمتها واهميتها .

وقد اقتطعت هذه الدولة من تاريخ الانسانية أكثر من عشرة قرون من الزمان . فهى تبدأ فى رأى البعض بعصر دقلديانوس فى أخريات القـرن الثالث ، او بعصر قسطنطين فى اوائل القرن الرابع ، وتنتهى بسقـوط القسطنطينية فى قبضة الاتراك العثمانيين فى اواسط القرن الخامس عشر الميلادى . وهذا يعنى انها شغلت فترة العصور الوسطى بأكملها . ولم يكن ذلك مصادفة او أمرا عارضا ، بل كانت له دوافعه التى ادت اليه ، من داخلية وخارجية ، مباشرة وغير مباشرة ، مثلما كان لتاسيس القسطنطينية أسبابه الداعية اليه .

وقد حكمت الدولة طوال هذه الفترة ثلاثه عشر اسرة ، تبدأ بأسـرة قسطنطين (٣٠٥ — ٣٧٨) وانتهاء باسرة باليولوجس (١٢٥٨ — ١٤٥٣) وذلك فيما عدا الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٤ و ١٢٦١ التى تحولت فيهـا الى امارة لاتينية كنتيجة للحملة الصليبية الرابعة التى استولت عليها . وقد

وجد آنذاك ثلاث حكومات بيزنطية فى المنفى ،احداها فى نيقية بآسيا الصغرى، والثانية فى طرابيزون على البحر الأسود ، والثالثة فى ابيروس فى شبه جزيرة المورة . وقد تأرجحت الأسرات التى تعاقبت على العرش البيزنطى بين القوة والضعف ، وبين العظمة والخمول . كما عمر بعضها طويلا ، بينما لم يعمر البعض الآخر سوى بضع سنوات او بضعة عقود . فمن البيوت المعمرة بيت جستنيان (٥١٨ـ٦١٠) ، وبيت هرقل (٦١٠ـ٧١٧)، والبيت الأيسورى (٧١٨ ـ ٨٢٠) ، والبيت المقدونى (٨٦٧ ـ ١٠٥٩) ، وبيت كومنين (١٠٨١ ـ ١١٨٥) ، وبيت باليولوجس (١٢٥٨ ـ ١٤٥٣) . ومن الأسر الضعيفة القصيرة العمر الأسرة الليونية (٤٥٧ ـ ٥١٨)، والأسرة الفريجية أو العامورية (٨٢٠ ـ ٨٦٧) ، واسرة دوكاس (١٠٥٩ـ ١٠٨١) . وكان لهذا ـ بطبيعة الحال ـ أسبابه ودوافعه .

هذا ، وقد نسبت بعض الأسرات الى مؤسسيها ، مثل أسرة قسطنطين التى نسبت الى قسطنطين الأول أو الكبير ، واسرة ثيودسيوس نسبة الى ثيودسيوس الأول أو الكبير ، والأسرة الليونية نسبة الى ليو الاول ، واسرة جستنيان نسبة الى جستنيان الاول ، واسرة هرقل نسبة الى هرقل الأول ،واسرة كومنين نسبة الى الكسيس الأول كومنين ، واسرة باليولوجس نسبة الى ميخائيل الثامن باليولوجس . كما نسبت بعض الأسرات الى المواقع التى قدمت منها ، مثل الأسرة الأيسورية نسبة الى ايسوريا ، والاسرة الفريجية نسبة الى فريجية ، والأسرة المقدونية نسبة الى مقدونية ..

وثمة سمات أساسية ميزت أباطرة الدولة البيزنطية ، بحكم الظروف التى احاطت بنشأة هذه الدولة والأحداث التى مرت بها عبر تاريخها الطويل . فهم اما أباطرة أقوياء محاربون ، أو اباطرة أدباء مؤلفون ، أو أباطرة اهتموا بالمسائل الدينية . فمن الأباطرة المحاربون نذكر جستنيان الأول ، وهرقل الأول ، ونقفور فوكاس ، ويوحنا تزمسكيس ، وبازيل الثانى . وأن دل هذا على شىء ، فانما يدل على أنه كان على رأس الدولة أباطرة اقوياء يجيدون

فن الحرب والقتال ، ويسعون للمحافظة عليها ضد جيران يتاخمونها الحدود، ويناصبوها العداء فى معظم الأحيان . ومن الاباطرة الادباء المؤلفين نذكر ليو السادس المعروف بليو العاقل ، وابنه قسطنطين السابع ، و نقفور فوكاس ،وقد وضعوا كتبا فى امور الحكم والادارة والبروتوكول ، وفى الـ ـى الاقتصادية والشئون العسكرية ، وغيرها.وهذا ، أيضا ، يدل على ن الدوله البيزنطية كانت بيروقراطية الصبغة والطابع ، مركزية الحكم والادارة . ولا غرو فى ذلك ، فهى وريثة الدولة الرومانية القديمة فى بيروقراطيتها ومركزيتها. وهناك كذلك أباطرة اهتموا بالمسائل الدينية وانغمسوا فيها ، مثل قسطنطين الكبير ، وجستنيان الأول ، وهرقل الاول،وأباطرة البيت الايسورى ومن بعده البيت الفريجى . كما أن المجامع المسكونية التى عقدت للنظر فى البدع والهرطقات التى ظهرت فى المسيحية ، كالأريوسية والنسطورية ، وكذلك للنظر فى كل ما كان يشغل بال المسحيين ،عقدت فى أراضى الدوله البيزنطية ما بين القسطنطينية العاصمة ونيقيه وخلقيدونية وافسس فى آسيا الصغرى. وقد تراسها أباطرة بيزنطيون . ولا غرابة فى ذلك ، فقد كانت الدولة مسيحية الصبغة والطابع منذ اليوم الأول ، أى منذ اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية باعتبارها ديانة الدولة ، وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة ، وبالامبراطور باعتباره الرئيس الدينى الأعلى لها . ومن هنا أولى أباطرة الدولة البيزنطية، بصفة عامة ، بدلوهم فى المسائل اللاهوتية والمشاكل الدينية ، وفى البدع والهرطقات التى كانت تظهر بين وقت وآخر .

وخلاصة القول انه لم يتربع على العرش البيزنطى سوى الاباطرة الأقوياء غير الخاملين ، وان الامبراطور الخامل ، أو سيىء التدبير والتصرف ، أو المخبول ، ليس له مكان فى التاريخ البيزنطى . وآية ذلك الامبراطور جستين الثانى (٥٦٥—٥٧٨) الذى خلف جستنيان . فقد أساء التصرف ، وانتهى به الأمر أن اصيب بخبل فى عقله ، فعين عليه مجلس وصاية ونحى عن الحكم . ولاشك أن هذا كان من بين الأسباب التى أدت الى أن تعمر

الدولة أكثر من عشرة قرون من الزمان . وساعد على ذلك أن دستورهـا وقانونها ، اللذين صاغتهما الأحداث التى مرت بها عبر القرون الطويلة ، لم يسمحا بأن يجلس على عرشها امبراطور خامل أو ضعيف أو معتوه.

وثمة ملاحظة أخيرة ، وهى أن حدود بيزنطة كانت تتسع وتنكمش فى العاصمة وما حواليها ، وفى بعض الأحايين تتسع رقعتها لتمتد الى حـدود دولة الفرس والدول العربية فى القطاع الشرقى ، والعناصر المتبربـرة فى الشمال فيما وراء نهر الدانوب ، والدول الغربية فى الغرب . وهذا يعنى،انه كانت تتاخمها عبر القرون الطويلة التى عاشتها عناصر وأجناس عديدة كان عليها أن تتعامل معها ، وفى نفس الوقت أن تعمل على المحافظة على حدودها امام اطماعها ، أو على الاقل ،اطماع معظمها فيها . فقد تاخمها فى القطـاع الشرقى ، فى فترة من تاريخها ، الفرس الساسان ، والدول العربية المتعاقبة وبخاصة الدولة الأموية فى دمشق ، والدولة العباسية فى بغداد ، والدولة الفاطمية فى مصر ، والسلاجقة فى آسيا الصغرى . وفى الشمال عبر الدانوب كان عليها مواجهة العديد من العناصر المتبربرة ابتداء بالقوط الغربيين ، ومن بعدهم الآفار والسلاف والبلغار والهنغار والروس . وفى القطاع الغربى كان عليها التصدى لأطماع بابوية روما ومحاولاتها مد سلطانها الدينى على الكنيسة البيزنطية ، ثم المشاكل التى نجمت عن احياء الامبراطورية الرومانية أيـام شارلمان فى بداية القرن التاسع ، وتجديدها أيام اوتو الكبير فى القرن العاشر الميلادى .وكان عليها ،قبل هذا وذاك ، الاحتكاك بعدد من الممالك الجرمانية التى قامت على انقاض الدولة الرومانية القديمة ، مثل القوط الشرقيين فى ايطاليا ، والقوط الغربيين فى اسبانيا ، والوندال فى الشمال الافريقى وذلك فى عهد الامبراطور جستنيان الذى حاول احياء الامبراطورية الرومانية القديمة واعادتها الى سابق مجدها . وكان عليها ، أيضا ، التصدى لأطماع البنادقة فيها والتى انتهت باستيلائهم عليها فى الحملة الصليبية الرابعة تحقيقا لمصالحهم

وخلاصة ماسبق ،أنه لكى تعيش الدولة كان من الضرورى أن تتوفر فى حكامها صفات معينة تؤهلهم لمواجهة التحديات والأزمات المتتالية التى كانت تتعرض لها . لكل هذا تميز اولئك الحكام — بصفة عامة — بالدبلوماسية، والسياسية ، والمرونة ، والدهاء ، والذكاء ، والحكمة — وبعد النظر ، وحسن التصرف فى الأمور ، وسرعة البت فيها ، مع اتخاذ القرارات اللازمة فى الوقت المناسب. هذا،مع استخدام مختلف الوسائل فى التعامل مع جيرانها ، والتى تتراوح بين الشدة واللين ، وبين استخدام القوة والتساهل، وبين الترهيب والترغيب ، وكذلك استخدام وسائل الاغراء بالمال والهدايا ؛ الى جانب بث العيون والجواسيس فى كل مكان . هذا ، فضلا عن الاهتمام المتزايد المستمر بتحصين الدولة ، وتعزيز عاصمتها بالاستحكامات ، مع وجود جيش قوى قائم مدرب أحسن تدريب ومزود بالأسلحة ، واسطول بحرى مزود باطقم من البحارة المدربين لحماية شواطئها الطويلة التى امتدت آلاف الأميال وساعدها على ذلك اقتصادها النقدى الذى ورثته عن روما القديمة ؛ الأمر الذى ترتب عليه اشاعة الاستقرار وازدياد الرخاء فى البلاد ، فى معظم فتراتها، اللهم الا اذا داهمها زلزال أو وباء أو انكهتها الحروب . وفيما عدا ذلك ، فقد كانت خزينة الدولة عامرة بالمال الذى أعانها على الانفاق على مختلف أوجه النشاط فيها ، وعلى وجود حكومة مركزية قوية ، وجهاز ادارى ضخم قادر على ادارة دولاب العمل فى البلاد .

ونتيجة لذلك ، تمكنت الدولة من التصدى للأزمات التى حلت بها عبر تاريخها الطويل . من ذلك موقف أباطرتها من القوط الغربيين الذين هددوا حدودها الشمالية فيما وراء الدانوب خلال القرنين الرابع والخامس ، وموقفها من الأمويين الذين حاولوا اكثر من مرة فى أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن الاستيلاء على القسطنطينية ليأمنوا شر الدولة البيزنطية بصفة نهائية . ونجد مثالا واضحا فى موقف اباطرة بيزنطة من النورمان الذين هددوا عاصمتها من ناحية الغرب خلال القرن الحادى عشر ، والسلاجقة الذين اكتسحوا معظم أملاكها فى آسيا الصغرى فى أواخر ذلك القرن وهددوا عاصمتها من

الجانب الشرقى . وكذلك موقف الدولة البيزنطية من الصليبيين الغربيين الذين سببوا لها الكثير من المتاعب ، وبخاصة اثناء مرور الحملة الصليبية الأولى عبر أراضيها وهى فى طريقها الى الأرض المقدسة ، ثم المشاكل التى نجمت عن استيلاء بوهيمند النورماندى على انطاكية فى الحملة الاولى وتاسيس امارة له بها ، ورفضه اعادة المدينة الى بيزنطة ناكثا تعهداته لها ، الأمر الذى نتجت عنه المسالة الشرقية فى العصور الوسطى .ولا خلاف انه لولا السياسة المرنة المتشددة التى اتبعها امبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك ، وهو الكسيس الأول كومنين حيال الصليبيين بصفة عامة وبوهيموند على وجه الخصوص ، لربما كانت القسطنطينية قد سقطت فى قبضتهم مبكرا فى اواخر القرن الحادى عشر ، بدلا من وقوعها فى أيديهم اثناء الحملة الصليبية الرابعة فى اوائل القرن الثالث عشر ، ثم سقوطها نهائيا فى قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ .

ان نظرة طائر ، موضوعية وشاملة ، على تاريخ تلك الدولة ، سوف تبرز انه تاريخ حى متحرك ، يملك من الحياة حيويتها ومرونتها ، تاريخ ملىء بالعديد من الصور والمشاهد المثيرة النابضة . فثمة فترات تبلغ فيها الدولة اقصى اتساعها وأوج عظمتها ومجدها ، وبخاصة أيام جستنيان الاول ، وفى عهد كل من نقفور فوكاس ويوحنا تزمسكيس وبازيل الثانى من الاسرة المقدونية . وهناك فترات أخرى تنكمش فيها الدولة وتتضاءل فى أضيق الحدود ، وبخاصة فى عهود خلفاء جستنيان وخلفاء هرقل واسرة دوكاس . وهناك ، ايضا ، فترات عاشتها الدولة فى هدوء وسلام ورخاء لا يعكر صفوها شىء ، وفترات مليئة بالفوضى والاضطرابات والمؤامرات والثورات الدامية وحوادث القتل والاغتيال ، مع ما امتازت به من قسوة وعنف . وهناك فترات حكم فيها اباطرة خلد التاريخ اسماءهم ، وفترات اخرى تولى فيها العرش رجال لم يتركوا شيئا ينسب اليهم ، او عهود حكمت فيها نساء ضعيفات مثل حكم النساء فى أواخر عهد الأسرة المقدونية . ولكن الدولة ، على أى حال ، ورغم كل ذلك ، عرفت كيف تحافظ على قوتها وشبابها طيلة أحد عشر قرنا او يزيد .

لقد عبرت الدولة البيزنطية عن روح العصور الوسطى فى اوروبا أصدق تعبير ، وتمثلت فيها مثل ومفاهيم وفلسفة وافكار تلك العصور أصدق تمثيل . ولذلك ، بسقوطها فى أواسط القرن الخامس عشر ، ينهار آخر صرح من مؤسسات العصور الوسطى . ويكون هذا ايذانا بنهاية عصر فى تاريـــخ البشرية وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغايرة .

الموضوع الاول

التحديد الزمنى للامبراطورية البيزنطية

بدايتهـــا ونهايتهـــا

التحديد الزمنى للامبراطورية البيزنطية : النظريات التى قامت حول بدايتها :

ان المتصدى لدراسة تاريخ الدولة البيزنطية التى اقتطعت من عمر البشرية قرابة أحد عشر قرنا ، يجب عليه أن يعرف أولا كيف ومتى بدأت وكيف ومتى انتهت . ويجب عليه ان يضع الخط الواضح الفاصل بين هذه الحقبة من التاريخ وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها . لقد تعددت النظريات واختلفت آراء المؤرخين المتخصصين فى التاريخ البيزنطى حول هذه المسألة اختلافا عجيبا بينا ، وعلى رأس هؤلاء شارل ديل Ch. Diehl ، ونورمان بينز Norman Baynes ، وشارل اومان Ch. Oman ، وفازيلييف Vasiliev ، وشلومبرجيه Schlumberger ، وستيفن رانسيمان Steven Runciman فضلا عن الكثيرين غيرهم .

والواقع انه توجد فاصلة عديدة فى تاريخ الدولة البيزنطية يصلح كل منها أن يكون بداية لدراسة هذه الدولة . ولكل فترة من تلك الفترات ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ او ذلك يأخذ بها كبداية للتاريخ البيزنطى . وتتناول مجموعة كامبريدج Cambridge للتاريخ الوسيط هذه المسألة بالدراسة والتحليل . ونعرض فيما يلى لأهم النظريات والافكار التى قامت حول بداية الدولة البيزنطية .

النظرية الأولى : يجعل بعض المؤرخين سنة ٢٨٤ م نهاية لحكم الرومان فى الغرب وبداية للامبراطورية الرومانية الشرقية ، وذلك باعتبارها حدا فاصلا بين زمنين منفصلين تقريبا فى تاريخ الدولة الرومانية . ففى هذه السنة تولى الامبراطور دقلديانوس عرش الامبراطورية الرومانية ، وكان هو أول من فكر فى تقسيم تلك الامبراطورية الى قسمين : شرقى وغربى . وقد دعت الى هذا التقسيم الظروف التى ألمت بالامبراطورية الرومانية وقتذاك . ولكن يجب أن نفهم أن وجود حاكم فى الشرق مقره القسطنطينية وآخر فى الغرب مقره ميلان Milan أو رافنا Ravenna فى عهد خلفاء دقلديانوس ، لم يضعف من

وحدة الامبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك . بل كان هذا فى واقع الأمر ، وعلى حسب قول احد مؤرخى القرن الرابع ، عبارة عن انفصال ظاهرى فقط . فقد كانت نفس القوانين والأنظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آنئذ من كلا الحاكمين وفى كلا العاصمتين .

النظرية الثانية : ويعتبر البعض سنة ٣٢٣ كبداية للتاريخ البيزنطى ، وهى السنة التى اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير عرش الامبراطورية . ومن اهم الأسباب التى يعتمدون عليها فى الاخذ بهذه النظرية تلك التغييرات الدينية والاجتماعية الهائلة التى حدثت فى عهده ، والتى تنحصر فى انتصار المسيحية على الديانة الوثنية بعد صراع عنيف معها،واعتبارها الدين الرسمى للدولة بأمر الامبراطور بموجب مرسوم ميلان الشهير ٣١٣ . كما أصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الدولة ، وأصبح الامبراطور هو الرئيس الأعلى لها . ثم ان قسطنطين أسس مدينة جديدة فى الشرق عند التقاء البسفور ببحر مرمرة هى القسطنطينية . ولذلك آثار هائلة فى تغيير مجرى التاريخ البشرى ، لأن نقل الكرسى الامبراطورى من الغرب الى الشرق كان يعنى بكلمة مختصرة تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية حوالى الف سنة ، ونعنى بذلك الامبراطورية البيزنطية التى كان مقرها القسطنطينية ، أو دولة الروم كما كان يسميها العرب نسبة الى روما الجديدة واهلها الرومان . يضاف الى ذلك أن قسطنطين أخذ فى تدعيم امبراطوريته الشرقية الجديدة ،بينما أخذت الامبراطورية الغربية تسير سريعا نحو الانهيار أمام جحافل العناصر المتبربرة المتدفقة من الشمال .

النظرية الثالثة : ولهذا السبب يحدد بعض المؤرخين وعلى رأسهم ستيفن رانسيمان سنة ٣٣٠ بالذات كبداية للتاريخ البيزنطى ، اذ أن قسطنطين بدأ فى تشييد مدينته فى نوفمبر سنة ٣٢٤ ،وتم تأسيسها بعد خمس سنوات ونصف عندما دشنها تحت اسم روما الجديدة أو روما الثانية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ .

ومع ذلك فضل المؤرخون القدامى والمحدثون ان يسموها القسطنطينية نسبة الى مؤسسها الامبراطور قسطنطين .

النظرية الرابعة : البعض يضع سنة ٣٩٥ كمدخل لتاريخ الدولة الرومانية الشرقية ، على اساس ثيودسيوس الأول Theodosius I قسم الامبراطورية الرومانية فى ذلك التاريخ الى قسمين منفصلين الواحد عن الآخر . القسم الغربى وأعطاه لابنه هونوريوس Honorius ، والقسم الشرقى واعطاه لابنه أركاديوس Arcadius . وهكذا يصبح كل منهما مستقلا عن الآخر ، ويؤسس لنفسه دولة مستقلة وأسرة قائمة بذاتها . ويعنى بعبارة مختصرة بداية دولة جديدة فى الشرق ، فى الوقت الذى كانت فيه دولة الغرب فى طريقها الى التدهور والانهيار تحت ضربات الجرمان البرابرة . ويعنى ايضا ان الانفصال الظاهرى الذى بدا فى عهد دقلديانوس ودعمه قسطنطين الكبير قد اصبح أمرا واقعا فى عهد ثيودوسيوس .

النظرية الخامسة : يحدد بعض المؤرخين سنة ٤٧٦ كبداية للدولة البيزنطية، لان هذه السنة تعتبر آخر العهد بالامبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب . فهى السنة التى تنازل فيها رومولوس اوجستولولوس Romulus Augustulus آخر اباطرة الغرب الضعاف عن العرش . فانتهى بذلك الانفصال الظاهرى الذى حدد خطوطه دقلديانوس واكده ثيودوسيوس ، واصبح حقيقة واقعة ، وانتقلت حقوق الحاكم الغربى الى الجالس على عرش القسطنطينية . وفى هذه السنة ايضا أرسل ادواكر Odoacer الجرمانى شارات الامبراطورية الرومانية الغربية من روما الى الجالس على عرش القسطنطينية فى الشرق وهو فى ذلك الحين الامبراطور زينو Zeno من الاسرة الليونية . فاعتبر هذا نهاية للامبراطورية الرومانية الغربية من ناحية ، وبداية للامبراطورية الرومانية الشرقية من ناحية اخرى وهى السنة التى يبدأ بها فريق كبير من المؤرخين تاريخ العصور الوسطى .

النظرية السادسة : ومجموعة اخرى من المؤرخين ترى أنه حتى ايـــام الامبراطور جستنيان Justinian الذى امتد حكمه من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ ، لم تكن هناك دولة بيزنطية بالمعنى المفهوم من هذه التسمية . فقد تميز حكمه بصفة عامة اضفت عليه طابع الوحدة ، وهى محاولات لاسترداد أملاكه الضائعة ، واعادة الامبراطورية الى ماكانت عليه أيام اسلافه القياصرة القدماء . وبمعنى آخر تعتبر هذه الفئة من المؤرخين أن جستنيان هو آخــر اباطرة الرومان ، وانه لم يصبح بعد بيزنطيا بكل ماتحمله هذه الكلمة من معان .

النظرية السابعة : وهناك فئة من المورخين تجعل مدخل التاريخ البيزنطى ما بعد عهد جستنيان ، اى مابعد ٥٦٥م . ولعل هذه الفترة فى نتائجهـــا وآثارها كانت أحسن فترة للبلاد . اذ وضح للعيان منذ اواخر ذلك العهد انه لم يعد هناك امل اطلاقا فى احياء الدولة الرومانية القديمة التى قضى البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها ، وأنشاوا دولا وممالك جديدة على انقاضها . كما اثبت الأحداث أن الامل تلاشى فى استرجاع ممتلكات تلك الدولة فى الغرب ، وأصبح من واجب الدولة الرومانية فى الشرق التحول من الطريق القديم الى طريق جديد يرتبط بالوضع الجغرافى للجزء المتبقى من الدولة الرومانية . ولم يكن أمامها الا أن تسلك هذا السبيل . بمعنى انه كان يجب على تلك الدولة أن تتجه اتجاها شرقيا بيزنطيا هلينيا ، طبقا لمقتضيات الظروف والأحـــوال الجديدة . ويكفى للتدليل على وجاهة هذا الراى أن الاباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب الأوروبى وممالكه الجرمانية تتكون تكوينا جديدا ، وتنمو على أسس تخالف تلك التى قامت عليها دولة الرومان القدماء . ولكن هذا لايعنى أن الدولة البيزنطية قد تنازلت عن تقاليدها واصولها باعتبارها الفرع الثانى من دولة روما القديمة ولكنه يعنى صريحة انه لم يعد باستطاعتها الجرى وراء هذه السياسة ، باستثناء امثلة فردية مبعثرة فى طيلة القرون التى عاشتها تلك الدولة حتى أواسط القرن الخامس عشر ، وهى لاتصلح بطبيعة الحال ان

تكون مقياسا لاتجاه معين . مثال ذلك الامبراطور جستين الثانى الذى جاء بعد جستنيان وحكم من ٥٦٥ الى ٥٧٨ ، وأراد ان يواصل سياسة سلفه فى هذا الاتجاه ، فكان نصيبه فقدان عقله . واذا كانت الدولة البيزنطية قد انتهجت هذه الناحية ، ونمت نموا مخالفا لنمو دول غربى اوروبا ، فانها كانت بمثابة الحصن المنيع للغرب الأوربى ومدنيته على الاقل حتى قيام الحركة الصليبية فى آخريات القرن الحادى عشر ، فهى التى تلقت هجمات العرب ، وجعلت غربى اوروبا ينمو نموا مستقلا باستثناء الجهات التي استطاع العرب الوصول اليها حتى شواطىء غربى البحر المتوسط .

النظرية الثامنة : وجعل بعض المؤرخين سنة ٧١٧ التى تولى فيها ليو الثالث الأيسورى Leo III, the Isaurian عرش الامبراطورية هى بداية التاريخ البيزنطى ، وحجتهم فى ذلك أن الدولة بدت فى ذلك الحين بيزنطية تماما ، اذ ثبت على حدودها فى اغلب الأحيان ، بل يمكن القول انها استقرت على تلك الحدود بوجه عام طيلة العصور . ثم أنه من الميزات التى تجعل ذلك التاريخ صالحا كفترة بداية ، تلك المسائل الدينية الكبرى التى شغلت المسيحية ردحا من الزمن ، مثل الحركة اللاأيقونية والحركة المونوفيسية الخطيرة التى انتهت بانفصال مصر والشام واعالى العراق بصفة نهائية عن الدولة البيزنطية من ناحية ، وانفصال بيزنطة نفسها عن الغرب الأوروبى من ناحيه أخرى .

النظرية التاسعة : ويذهب عدد آخر من الكتاب أن الامبراطورية البيزنطية تبدأ فى ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠ ، عندما تم تتويج شارلمان امبراطورا على الغرب . فمنذ ذلك الحين قامت حقا امبراطوريتان الأولى فى الغرب وهى الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، والثانية فى الشرق وهى الامبراطورية البيزنطية . واصبحت الدولة الرومانية فى الشرق دولة لها كيانها ومقوماتها وموقعها الجغرافى وحدودها الزمنية ، والى جانبها الدولة الرومانية الناشئة فى الغرب وهى دولة شارلمان أو شارل العظيم . وسند الفئة التى تأخذ بهذا الراى أن شارلمان كان فى الواقع آخر اباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم .

وان نشل مشروعه لاحياء دولة القياصرة القدماء أو استحالة احيائها لهــو برهان واضح على ان ظروف العالم الأوروبى قد تغيرت تغييرا تاما،وأن تلك الدولة التى اتخذت من القسطنطينية عاصمة لها اصبحت حقيقة واقعة .

ويقول المؤرخ نورمان بينز ان هذه النظرية الأخيرة وان اشبعت رغبة مؤرخ النظريات السياسية أو الباحث فى تاريخ اوروبا الغربية ، فليس لها قيمة كبيرة للباحث المدقق فى تاريخ روما الشرقية،والذى يرى أن النصف الأول من القرن السابع هو بداية التاريخ الحقيقى لتلك الامبراطورية . والأخذ بهذا الراى مبنى فى الواقع على الاتجاهات التاريخية التى نشأت وتتذاك ، وعلى الميزات التى اكتسبتها بلاد شرقى البحر المتوسط التى رسمت للحكام البيزنطيين حدود سياستهم ، والتى بينت بصفة حاسمة تغييرا جوهريا فى طبيعة اوروبا وشرقى البحر المتوسط ، مما يدعو الى القول بان دولة جديدة قد ظهرت لتحتل مكانها فى التاريخ،منذ انهيار الدولة الرومانية فى الغرب أمام جحافل المتبربرين الذين تدفقوا داخل حدوها واسسوا لهم امماً جديدة لها مديناتها وحضارتها الخاصة بها . واخذت الديانة المسيحية فى الظهور والانتشار فى وقت تم فيه تأسيس مدينة القسطنطينية وانتقال الأباطرة الرومان اليها،واعترافهم بالديانة الجديدة ، كل هذا يؤيد ظهور دولة جديدة فى الشرق لها حضارتها وأنظمتها فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد ، ولها تفكيرها وتقاليدها ومشاكلها الخاصة بهـا .

وجدير بالذكر أن هذه التغييرات الهائلة لم تحدث بين يوم وليلة ، انما كانت عبارة عن عملية تطور بطىء مستمر استغرق فترة غير قصيرة من الزمن، وهى التى تعرف عادة عند المؤرخين باسم فترة التغير والانتقال ، عندما احتكت الآراء والتقاليد القديمة بالمبادىء والأفكار الجديدة ، الى أن فرضت الأوضاع الأخيرة نفسها معلنة بداية عصر جديد فى تاريخ الانسانية . وعلى ذلك ، فان مسألة تحديد السنين والتواريخ هى مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الأذهان ، وليس أن عصرا أو دولة ابتدأت فى يوم

معين أو سنة بذاتها . فعندما قسم دقلديانوس الامبراطورية نظريا الى قسمين، اعتبر هذ الأمر فى نظر المؤرخين عنصرا جديدا طرا على الأوضاع السائدة من قبل . وعندما قسم ثيودوسيوس الامبراطورية الى قسمين منفصلين عن بعضهما ، اكد هذا الاجراء الذى اتخذه سلفه دقلديانوس . وعندما اختط قسطنطين روما الجديدة فى بلاد اليونان ، اعتبر هذا نقطه بداية لدولة رومانية شرقية . وعندما سقطت روما فى قبضة الجرمان سنة ٤٧٦، عزز سقوطها وضع الدولة الجديدة . وهكذا ، أخذت تطرا عناصر مختلفة على الموقف لتؤكد تداعى نظام سابق وظهور قوة جديدة لتؤدى دورها على مسرح الأحداث .

نهاية الدولة البيزنطية ، والآراء التى ثارت حولها :

تحدد نهاية الدولة البيزنطية ظروف أخرى تختلف تماما عن تلك التى حددت بدايتها . فقد شاهد العالم فى نهاية العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، انقلابات وأحداثا خطيرة انتفض لها كيانه . فقامت النهضات العلمية والفنية والأدبية ، وظهرت شخصية الفرد ، وقامت الممالك ، ونمت المدن والقوميات ، وبدأت حركة الاستكشافات الجغرافية . وشاهد القرون الخامس عشر الكثير من الحوادث السياسية والاقتصادية البالغة الاهمية التى كان لها اثرها فى تغيير مجرى التاريخ .

وتتركز الآراء التى دارت حول نهاية الدولة البيزنطية وفقا لما تقدم فى نظريتين هما :

النظريه الأولى : جعل بعض المؤرخين سنة ١٢٠٤ نهاية الدولة الرومانية الشرقية ، وذلك عندما احتل الصليبيون القسطنطينية واسسوا بها امارة لاتينية استمرت حتى سنة ١٢٦١ .

حقيقة انه كان اثناء الاحتلال الصليبى للبلاد امبراطوريتان فى المنفى ، احداهما فى نيقية فى آسيا الصغرى والأخرى فى طرابيزون على البحر الاسود

وحقيقة أن الامبراطورية البيزنطية أعيدت بعد ذلك ، واستمرت حتى أواسط القرن الخامس عشر . ولكن احداثا ومؤثرات جديدة من الغرب جدت على العالم البيزنطى ، ولم يعد للقسطنطينية نفسها من مجدها القديم الا ظلا باهتا وشبحا متهالكا . ويكفى أن المؤرخ نورمان بينز ينهى عرضه لتاريخ الدولة البيزنطية عند سنه ١٢٠٤ .فهو رى ان الدولة البيزنطية بمعناها المعـروف تنتهى فى هذه السنة ، ولذلك نراه لايعترف بها بعد ذلك التاريخ .

ويزيد نورمان بينز الأمر وضوحا ، فيقول فى كتابه « الامبراطوريـة البيزنطية » انه فى سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على القسطنطينية ، وحل الحكام اللاتين محل الأباطرة البيزنطيين . ويستمر فى حديثه قائـلا ان الامبراطورية الرومانية الشرقية قد اعيدت ثانية خلال القرن الثالث عشر : ولكن التاج الذى وضعه آل باليولوجس فوق رءوسهم كان يختلف عن ذلك الذى لبسه أسلافهم ، مبينا أن مؤثرات جديدة من الغرب كانت قد تسربت الى العالم البيزنطى ، بحيث لم يبق لروما الجديدة نفسها من عظمتها الغابرة سوى ظلا باهتا .

ويستطرد قائلا ، « وفيما يتعلق بهذه الفترة ، لايزال هناك الكثير من العمل الذى يجب القيام به قبل ان يدرك الباحث أنه يقف فوق صلبة . فهو ، الآن ، يعالج العموميات على مسئوليته . ولهذه الأسباب وغيرها يتوقف مؤلف هذا الكتاب الصغير ،بصفة أساسية، عند الفترة السابقة لسقوط القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة . وبكلمة واضحة تمتد الدراسة التى نقدمها من تأسيس روما الجديدة فى القرن الرابع الميلادى وحتى استيلاء الصليبيين عليها سنه ١٢٠٤ م .

النظرية الثانية : تدور حول سنة ١٤٥٣ ، فهى السنة التى استولى فيهـا الاتراك العثمانيون على مدينة القسطنطينية . وبسقوطها ينهار فى الواقع آخر صرح من مؤسسات العصور الوسطى ، ويبدأ العصر الحديث ويأخذ معظم

المؤرخين المشتغلين بالتاريخ البيزنطى بهذا الرأى .

وماقيل عن بداية الدولة البيزنطية يقال أيضا عن نهايتها . فالتاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لايمكن فصلها عن بعضها،وأن كل حلقة منها هى عبارة عن فترة انتقال من السابقة الى اللاحقة . فعندما أغار اللاتين على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة واسسوا بها امارة لاتينية ، اعتبر هذا عنصر خطير يجد على مسرح الأحداث . وعندما سقطت القسطنطينية فى قبضة العثمانيون فى أواسط القرن الخامس عشر اكد هذا الوضع بصفة رسمية نهاية عصر وبداية عصر جديد .

الموضـــوع الثانـــى

اسباب بقاء الدولة البيزنطية عشرة قرون او يـــزيد
بعد زوال الدولة الرومانية القديمة فى الغرب

نلخص مما سبق ان الامبراطورية الرومانية الشرقية بقيت فى عالـم الوجود مدة طويلة بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية فى ايطاليا . فاذا كانت روما قد سقطت فى أيدى القبائل الجرمانية المتبربرة فى اواخر القرن الخامس، وعلى وجه التحديد سنة ٤٧٦ ، فقد ظلت الدولة البيزنطية على الحياة الى أواسط القرن الخامس عشر عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣ ، أى أنها عاشت لمدة تقرب من عشرة قرون بعد زوال الامبراطورية الرومانية الغربية ،أو أحد عشر قرنا منذ اسس قسطنطين الكبير العاصمة الجديدة فى سنة ٣٣٠.ولم يكن بقاؤها على هذا الوجه أمرا عارضا،انما كانت له اسبابه المنطقية التى أدت اليه . وهذه الآسباب بعضها رئيسى والبعض ثانوى ، وبعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ويمكن تلخيصها فيما يلى :

اولا : حصانة الدولة البيزنطية وعاصمتهـا القسطنطينية :

لقد تميزت دولة الروم الشرقية بمناعتها . فقد كان نهر الدانوب ، وهو من الانهار الجبارة يمتد على حدودها الشمالية ، ويفصل بينها وبين القبائل المتبربرة الشمالية التى تقطن فيما وراء ذلك النهر ، بل يعوق زحف هـذه القبائل وانتقالها جنوبا ، أى فى صلب الدولة الرومانية نفسها . ومع ذلك ، فان حصانة بيزنطة فى مجملها لاتقاس بحصانة مدينة القسطنطينية نفسها التى بنيتعلى شبه جزيرة ممتدة فى شكل مثلث ترتفع أرضه كلما اتجهنا غربا من البحر ، وتحيط به مياه البسفور من ناحية ،والقرن الذهبى من ناحية أخرى ، ومياه بحر مرمرة من ناحية ثالثة . فسهل هذا أمر بناء الأسوار العالية المانية التى لازالت آثارها شاخصة الىيومنا هذا . فكان هذا بطبيعة الحال مما أدى الى صمود تلك الامبراطورية امام الأزمات التىتعرضت لها من الخـارج . ولو لم تكن محمية بهذه العوامل الطبيعية لما أمكنها الصمود هذه الأجيـال الطويلة ، ولربما كان قد انتهى الأمر بسقوطها أمام الهزات العنيفة التى كانت تتعرض لها من حين لآخر . فضلا عن أن اباطرة بيزنطة كانوا يوجهون عناية

خاصة نحو تحصين بلادهم وتعزيزها بالاستحكامات والأسوار والقلاع التى اسهمت فى حمايتها من غائلة المعتدين .

ثانيا : سياسة اباطرة بيزنطة ودهاؤهم :

امتاز أباطرة بيزنطة بصفة عامة بعامل السياسة والدهاء والحكمة وبعد النظر . ونلمس هذا بوضوح فى موقفهم من القبائل والأجناس المتبربرة التى شقت طريقها فى جوف الدولة الرومانية الشرقية عبر الدانوب . وتتلخص هذه السياسة فى توجيه تلك العناصر من بيزنطة غربا الى ايطاليا ، (مثلما حدث عندما حاول القوط الغربيون **Visigoths** تحت قيادة ملكهم الاريك **Alaric** اكتساح مقدونية فى سنة ٤٠٠ م ، الا أن بيزنطة تمكنت من الحاق الهزيمةبهم سنة ٤١٠ . فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن مكان آخر يلتمسون فيه سبل العيش والرزق والاقامة ، فأتجهوا غربا الى ايطاليا . ومثل آخر نراه فى سياسة اسرة كومنين البيزنطية حيال الصليبيين الغربيين ، اذ أن موقف الكسيس كومنين ومن أتى بعده من الأباطرة البيزنطيين ازاء أهل الغرب اللاتينى كان له اكبر الأثر فى الابقاء على الدولة البيزنطية وعدم سقوطها فى قبضة الغرب عند بداية الحركة الصليبية ، أو على الأقل تأجيل وقوع هذا الحدث قرابة قرون من الزمان عندما استولى عليها اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ ، وأسسوا بها امارة لاتينية استمرت من ذلك التاريخ حتى سنة ١٢٦١ . وهذا مايمكن أن يقال ايضا بالنسبة لموقف بيزنطة من جيرانها العرب من فاطميين أو أيوبيين أوعباسيين او سلاجقة،وسياستها كذلك ازاء جيرانها البلغار والآفار والروس والسلاف . وسنعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد .

ثالثا : استخدام بيزنطة عناصر مختلفة فى جيشها :

لقد تعلم أباطرة بيزنطة من مصير اخوانهم فى الغرب درسا قاسيا فيما يتعلق بتكوين جيوشهم . فقد ترك أباطرة الرومان الغربيين أبناء جلدتهم فى

الكتائب الرومانية ينغمسون فى حياة اللهو والترف ، بينما استخدموا الجرمان لحماية دولتهم والعمل على حفظ الأمن والنظام والسلام الرومانى فى الامبراطورية . ولكن تلك الكتائب التيوتونية التى استخدموها للمحافظة على ملكهم كانت هى المعول الذى هدم تلك الامبراطورية . ذلك لأن الجند المرتزقة كانوا من جيش واحد وكان من السهل تجميع كلمتهم تحت امرة قائد واحد يوجههم الى قلب الامبراطورية . وهذا هو ماحدث بالفعل فى أخريات أيامها . أما الاباطرة الشرقيون فقد لجأوا الى طريقة أخرى يمكن بها علاج المساوىء التى نجمت عن وحدة الجنس فى صفوف الجيش . فلم يقتصروا على استخدام المرتزقة على الجند الجرمان الذين جعلوا منهم عدة كتائب فقط . ولكن استخدموا ايضا الجند المرتزقة من اجناس أخرى مختلفة وميول مختلفة وفى بعض الأحيان من أديان مختلفة وبذلك يضمنون عدم توحيد كلمة الجيش المتشعب فى الأصل والاتجاه واللغة والجنس والدين والعادات والتقاليد تحت امرة رجل واحد . فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية . ولذلك نجد الى جانب كتائب الجرمان كتائب من الفرنجة والنورمان والهنغار ،وعناصر من الأتراك كالبجانكية والكومان والتركوبول وغيرهم .

رابعا : عدم انغماس حكام بيزنطة فى الملذات والترف :

ومما ساعد الامبراطوريةالبيزنطية على الاحتفاظ بقوتها وشبابها ، هو تجنب حكامها وحكوماتها للمساوىء التى تعرضت لها دولة الرومان فى الغرب فى اخريات عهدها . فلم يفرقوا فى الانغماس فى الملذات الدنيوية ، ولم يهملوا الروح المعنوية مما كان له أكبر الأثر فى الابقاء على دولتهم طيلة هذه الفترة . فقد تربع على عرشها عدد من الأباطرة الأقوياء الذين كرسوا أنفسهم لخدمتها والرفع من شأنها فى الداخل والخارج ، بما أدخلوه من اصلاحات،ومما أحرزوه من انتصارات على أعدائهم . نذكر منهم على سبيل المثال الأباطرة جستنيان وهرقل وبازيل الأول ونقفور فوقاس والكسيس كومنين .

ولم يكن للأباطرة الضعاف أو مختلى العقل أو سيىء التصرف والتدبير .

مكان فى التاريخ البيزنطى . اذ حرص دستورها وقانونها على أن يشغل الوظيفة الامبراطورية اباطرة اقوياء يتمتعون بسمعة حسنة ونشاط واضح للعمل لما فيه صالح الدولة . ونجد مثالا واضحا لذلك فى جستين الثانى خلف الامبراطور جستنيان،وحاول مواصلة سياسته الرامية الى اعادة الامبراطورية الى ماكانت عليه أيام الرومان القدماء فكان نصيبه أن أصيب بخلل فى عقله وفقد وظيفته الامبراطورية .

خامسا : النظام الدستورى والادارى للدولة البيزنطية :

ويرى بعض المؤرخين أن الدستور البيزنطى ونظامها الادارى المحكم يعتبران من اسباب بقاء تلك الامبراطورية قرابة الف عام . فقليل من الدول مانظمت نظاما يتفق وعصرها مثلها نظمت الامبراطورية البيزنطية خاصة فى تلك الفترة السحيقة من الزمن ، وقليل منها أيضا ما وجهت بحذر وحرص وعناية للحيلولة دون بقاء السلطة فى قبضة حكام ضعفاء مثلما وجهت الامبراطورية البيزنطية اذ حرص دستورها على أن تظل السلطة فى أيدى حكام اقوياء اكفاء مما عاد بالخير عليها . والأمثلة على ذلك عديدة فى التاريخ البيزنطى .

سادسا : نظام الوراثة والوصاية :

ثم ان وجود نظام ثابت للوراثة والوصاية فى الكرسى الامبراطورى استمد أصوله من الأحداث التى مرت بها الدولة ، ساعد الى حد كبير على استقرار الأحوال فيها ، بعكس الحال فى قريبتها الامبراطورية الغربية ،وثمة امثلة لبعض الأسر التى حكمت فترات طويلة مثل الأسرة المقدونية واسرة كومنين وأسرة باليولوجس .

سابعا : تركيز السلطة فى شخص الامبراطور :

ان تركيز السلطتين الدينية والدنيوية فى شخص الامبراطور البيزنطى

جنب البلاد الكثير من المشاكل والصعاب والخلافات ، بعكس الحال فى الغرب اللاتينى الذى وجد على رأسه عاهلان احدهما البابا ويحكم من الناحية الدينية والآخر الامبراطور ويحكم من الناحية الزمنية . وقد أدى ذلك الى قيـــام الصراع المرير بين هاتين القوتين فى سبيل السيادة العلمانية ، والذى شغل زهاء ثلاثة قرون من الزمان .

ثامنا : وجود اباطرة اقويـاء طموحـين :

ثم أنه كان من حسن حظ الدولة البيزنطية أن يتربع على عرشها خلال تاريخها الطويل الذى امتد أكثر من الف سنة كثير من الاباطرة البازريـــن الطموحين النشطين الذين تمتعوا بشخصيات قوية كان لها أكبر الأثـر فى النهوض بالدولة فى شتى المرافق والمجالات . فمنهم من نبغ فى ناحية الحرب والقتال امثال هرقل وجستنيان وأباطرة البيت المقدونى ، وأحرزوا للدولـة انتصارات عسكرية عظيمة . ومنهم من برع فى نواحى الأدب والفن والتأليف مثل اباطرة البيت المقدونى أيام ليو السادس وقسطنطين السابع . ومنهم من انغمس فى المسائل الدينية واللاهوتية مثل اباطرة البيت الأيسورى . وقد وضع الجميع نصب أعينهم مصلحة بيزنطة أولا وقبل كل شىء .

تاسعا : سياسة الاقتصاد النقدى التى سادت الدولة البيزنطية ، واثرها :

كانت القسطنطينية هى روما الجديدة ، وكانت الدوة البيزنطية هـى وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة . وكانت الامبراطورية الرومانيـــة بيروقراطية الصبغة والطابع مركزية الحكم والادارة . وورثت بيزنطة عنها بيروقراطيتها ومركزيتها . وكانت حضارتها حضارة مدنية ، قوامها المدينـة بسكانها الأحراء الذين يمارسون نشاطا تجاريا وصناعيا . وقد سادها ، تبعا لذلك ، الاقتصاد النقدى أو المالى الذى كانت الضرائب من مباشرة وغـير مباشرة تعتبر فى ظله المصدر الأساسى للدخل العام فى البلاد . وقد ضمنت هذه الضرائب من التجارة الصادرة والواردة ، ومن العشور والمكوس

والرسوم الجمركية وغيرها ، معينا لاينضب من المال الذى امتلأت به خزينة الامبراطور التى هى خزينة الدولة . وكان هذا المال ينفق على مختلف أجهزة الدولة ، مما هيأ لها دوام الاستقرار والبقاء ، واداء وظيفتها على أكمل وجه. فضمن الانفاق على الجهاز الادارى الذى يتولى ادارة دولاب العمـــــل فى الحكومة ، والانفاق على جهاز ضخم من الموظفين المدنيين ، وكذلك الانفاق على الجيش والاسطول ، وتسليحهما مما ساعد الدولة على الصمود أمام الهزات والأزمات العنيفة التى كانت تواجهها بين وقت وآخر . ويعتبر كتاب العالم الألمانى لودو موريتز هارتمان L.M. Hartman عن الدولة فى أوروبـــا فى فى العصـور الوسطى من أحسن ماكتب فى هذه الناحية .

الموضوع الثالث

الامبراطور دقلديانوس واصلاحاتـــه

(٢٨٤ — ٣٠٥)

فى عام ٢٨٤ م تربع على عرش الامبراطورية اعظم سياسى اخرجه العالم الرومانى منذ أيام اغسطس ، وهو دقلديانوس الذى كان على علم تام بحالة الامبراطورية الرومانية المنهارة . وقد حاول ارجاع عقارب الساعة الى الوراء بما وضعه من برنامج اصلاحى شامل فى شتى النواحى ، وما فرضه من قيود صارمة لمنع هذا التفكك البادى . وتنحصر اصلاحاته فيما يلى :

(١) لم يسمح للمواطن الرومانى بالتحلل من التزاماته نحو الدولة ، وأجبره بالتزام وظيفته مهما كانت الظروف . وامر بأن يتبع الابن وظيفة ابيه أيا كانت وظيفته . وكان يستهدف من هذا النظام الصارم للمهن والنقابات حفظ النظام وجمع دخل ثابت للامبراطورية يعينها على مواجهة التزاماتها .

(٢) ادخل كذلك عدة اصلاحات فى الحكم والشئون العسكرية . فوضع الجيش تحت امرة الحكومة . وعمل على فصل السلطتين المدنية والعسكرية عن بعضهما ، محاولة منه لكبح جماح القواد المتردين الذين زاد عددهم فى أخريات عهد الدولة وجعل الكفاءة العسكرية هى الشرط الأول للتعيين فى المناصب العسكرية . ونظم الدفاع عن الحدود ،ووضع الأسس التى تحولت دون اغتصاب اى قائد طموح للعرش ، بأن زاد من عدد الولايات ، وقلل بالتالى من عدد القوات الخاضعة لأى قائد بمفرده . وكان دقلديانوس صاحب الفضل الاول فى تكوين جيش امبراطورى خفيف متنقل يمكنه مواجهة الاضطرابات فى اى مكان من الامبراطورية .

(٣) كما اهتم بالناحية المالية ، فعمل على تثبيت العملة ، ولكن محاولاته فى هذا الصدد كانت أقل نجاحا ، فلم يستطع ارجاع قيمة العملة الى ماكانت عليه أيام الامبراطور اغسطس ، وترك لخلفه قسطنطين الكبير القيام بهذا الدور .

ويتحدث المؤرخ ستيفن رانسيمان S. Runciman فى كتابه «الحضارة

البيزنطية » عن التدهور الذى أصاب العملة ، فيقول « وتمثل مالية البلاد هذا الخلل . اذ كانت الضرائب باهظة متباينة غير منظمة . ويقى جانب كبير منها فى ايدى جباة يوجد الكثير من أصحاب الملايين ، بينما هناك مقاطعات بأكملها

فى ان لايزال يوجد الكثير من أصحاب الملايين ، بينما هناك مقاطعات بأكملها
غارقة فى الفقر . فضلا عن أن الامبراطورية كانت تعانى لفترة طويلة من ميزان تجاري ليس فى مصلحتها . ففى ايام بلينى Pliny جاوزت الواردات الآتية من الهند الصادرات بمقدار ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سنويا ، وجاوزت واردات الصين الصادرات بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ جنيه أخرى ، وبات من المتعذر اصلاح هذا الوضع . وفى العصر المبكر من تاريخ الامبراطورية كانت قيمة العملة الامبراطورية آخذة فى التدهور التدريجي المطرد ، وكان الانهيار سريعا منذ عهد كاراكالا Caracalla ، الى أن أصبحت العملة النحاسية آخر الأمر لا تحتوى على معدن نفيس ، بينما غدت العملة الفضية لا تحتوى سوى على ٢٪ من الفضة » وهذا يبين الى أى مدى كانت محاولة دقلديانوس اصلاح العملة مستحيلة .

(٤) وتوج أعماله باعلاء مكانة الامبراطور ، بأن جعله فى مرتبة أقرب الى الآلهة منه الى البشر ، بعد أن استمد لهذا الغرض أفكار شرقية فارسية عن الحكم المطلق ، واضحى نفوذه مستمدا من الحق الالهى وسلطاته هبة من السماء هذا اعترافا ضمنيا من روما بما للشرق عليها من أفضال ، فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية فى طور الاحتضار ، واخذ الفكر والثقافة الفارسية يتقدمان بخطى حثيثه لغزو شرقى البحر المتوسط ، بينما زحفت المذاهب الدينية الشرقية على الولايات الغربية من الامبراطورية .وكانت تلك الولايات أحوج ماتكون الى مثل الأفكار التى وجدت فيها نوعا من العزاء والسلوى يعوضها عما تعانيه من تدهور واضطراب فى شتى المجالات.وكانت الوثنية اللاتينية تحارب فى معركة خاسرة أمام هذه الديانات الجديدة الزاحفة.وهكذا أخذ مركز العالم

الفلسفات واللاهوتيات،ومركز العلم والمعرفة.وبلغ الأمر الامبراطور نفسه اقتبس الكثير من عادات الساسانيين،فأحاط نفسه بهالة من العظمة،ولم يعد بوسعه الانتقال بحرية بين اتباعه،كما كان يفعل أسلافه، بلى عاش منتحيا فى بلاطه يقوم على خدمته الطواشية . واصبح متوج الرأس،وعلى اولئك الذين يريدون مقابلته ان يسجدوا له،وان يقوموا بعبادته.وقد أثارت روما واجتذبتها تلك المظاهر الخارجية الوافدة من الشرق ، والتى كانت لها آثارها فى التغيرات التى طرأت على نظام التقدم فى أخريات أيامه .

(٥) وثمة مسألة جديرة بالذكر عند التعرض لحكم دقلديانوس . ذلك ان الاضطرابات التى سبقت حكم هذا الامبراطور جعلت من الضرورى اقامة نظام جديد من كافة الوجوه . وكان هذا الرجل يرى ببصيرته النافذة أن امبراطور واحدا لا يمكنه القيام بمفرده بأعباء الحكم فى هذه الدولة الشاسعة المترامية الأطراف،وتحت ظل هذه الظروف التى جدت على الموقف . وكانت الحاجة ماسة منذ ايام القياصرة الأول الى وجود وزيرين أحدهما لاتينى للقسم الغربى والآخر يونانى للقسم الشرقى من الامبراطورية . ولكن دقلديانوس خطا خطوة جديدة لها اهميتها حقيقة انه لم ينشىء امبراطوريتين مستقلتين عن بعضها ، ولكنه أمر بأن يكون للامبراطورية حاكمان يقيم كل منهما فى احد شقيها . وعلى ضوء التنظيم الجديد ، أعيد تقسيم الامبراطورية الى اربع ولايات هى : الغال وايطاليا وايلريا والشرق تحت امرة اربعة من الولاة يطلق على كل منهم اسم Practor اى الوالى . وقسمت كل ولاية منها الى عدد من المقاطعات تسمى الواحدة Diacoses يحكم كل منها حاكم محلى يلى الوالى العام واسمه Vicarius وقد احتفظت مقاطعات آسيا وافريقيا بحكامها الذين كان لهم حق الاتصال المباشر بالامبراطور ويسمون الواحد منهم Proconsul

لقد حكم دقلديانوس كنصف اله او كاله على الجـزء الشرقـى مـن الامبراطورية من نيقوميديا فى الشرق ، بينما فضل زميلـه مكسيميـان Maximin الاستقرار فى ميلان . وزاد دقلديانوس احتمالا الى قدسيته بادعائه الانحدار من جوبيتر Jupiter ملك الآلهة . ولكن فئة كبيرة مـن الرومان الذين اعتنقوا المسيحية لم تقبل فكرة عبادة كائن حى ولو كـان الامبراطور نفسه ، على اساس هذا يتنافى والتعاليم التى نادت بهـا تلك الديانة . واعتبر دقلديانوس ذلك اهانة له ، او خيانة عظمى L. Majesta وحاول كبحهم ، ولكنه ووجه بمقاومة عنيفة. فكانت هذه هى بداية الاضطهادات الدينية فى جميع أرجاء الامبراطورية ، وخاصة الجزء الشرقى منها . فعذب المسيحيين وقتلهم ، لدرجة أن الاضطهاد الذى حدث فى مصر وقتئذ جعل الاقباط يقررون استعمال تاريخ حكمه بداية لتاريخ السنيين القبطية فالسنة القبطية تبدا من سنة ٢٨٤ لهذا السبب . وعلى أى حال استمر المسيحيون منشقين على عبادة الامبراطور . وكان على قسطنطين ايجاد الحل المناسب الذى بربط الامبراطور بالاله المسيحى. وكان هذا من الأسباب التى جعلت قسطنطين يفكر فى تأسيس عاصمته الجديدة .

ويلقى المؤرخ رانسيمان الضوء على موقف كل من دقلديانوس والمسيحية حيال الآخر ،يقول : «وثمة فئة واحدة كبيرة من الرعية لم تقدم للأباطرة فروض العبادة التى طالبوا بها . فكان المسيحيون — بتميزهم الواضح بين ما للقيصر وما لله — على استعداد ليكونوا مواطنين صالحين طالما كانوا غير ملزمين بتقديم فروض العبادة للدولة . ولم يرتضوا — بدون شك — قبول عبادة كائن حى حتى ولو كان الامبراطور نفسه . بينما لم يسمح دقلديانوس مطلقا لاقوى هيئة دينية فى الامبراطورية باهانة جلالته . لقد حاول كبحهم ، ولكنه ووجه بمقاومة عنيدة . ومن بدأ الاضطهاد الاعظم . واستمر المسيحيون منشقين عن الديانة الامبراطورية ، وقد ترك للامبراطور قسطنطين البحث عن الحل الذى يربط بين القيصـر والـلـه . »

وخلاصة القول ان المركز العسكرى والدينى والاقتصادى قد انتقـل تدريجيا من روما مركز العالم القديم الى الشرق . ولم يكن مستغربا اذن ان يتجه الحاكم الرومانى الذى أصبح يطلق على نفسه لقب ملك الملوك الى عاصمة شرقية للامبراطورية تفى بحاجاتها الجديدة . وترك للامبراطور قسطنطين القيام بهذا العمل ، وانجاز مابداه دقلديانوس،واختيار موقع للمدينة الجديدة.

الموضـــوع الرابـــع

الامبراطور قسطنطين الكبـــير

(٣٠٥ ـ ٣٣٧)

تنازل دقلديانوس عن العرش عام ٣٠٥ م ، ولم تعمر امبراطوريته التى اعاد تنظيمها بما ادخله عليها من اصلاحات فى شتى النواحى . ولم يأت عام ٣١١ حتى وجد اربعة اباطرة هم فاليريوس ليسنيوس **Valarius Licinius** وماكسيمين دانا **Maximin dana** فى الشرق ، وقسطنطين وماكسنتيوس **Maxentius** فى الغرب . وكانت الأحوال تنذر بقرب وقوع حرب اهلية ، وكان الغرب أول ميدان اندلعت فيه نيرانها ، عندما تمكن قسطنطين من القضاء على شريكه ماكسنتيوس ، ومن أن يصبح سيدا على الغرب سنة ٣١٢ . ثم ساعد ليسنيوس فى الشرق بعد ذلك فى التخلص من منافسه ماكسيمين فى السنة التالية ، وفى ان يصبح هو الآخر سيدا على الشرق . وبذلك اصبح كل من قسطنطين فى الغرب وليسنيوس فى الشرق وجها لوجه ، وكان كل منهما يطمع فى الاستئثار بالقوة والسلطان . ولم تكن اول حرب قامت بينهما سنة ٣١٣ حاسمة . ولكن قسطنطين تمكن اخيرا فى سنة ٣٢٣ من الحاق الهزيمة بغريمه ، وبذلك أصبح الامبراطور الوحيد .

وكان اول مااهتم له قسطنطين هو العمل على اصلاح النظام المالى القديم وتثبيت العمله . فصك معيارا من الذهب الخالص ، وختمه بخاتمه الخاص ، واثبت عليه قيمة العملة . وقد سار هذا النظام سيرا حسنا ، واحتفظت العملة بقيمتها ومكانتها لمدة تقرب من ثمانية قرون .

قسطنطين والمسيحية :

كانت محاولات دقلديانوس ترمى الى اعلاء شأن الامبراطور وتأليهه . وفى هذا الوقت كان عدد المسيحيين قد تكاثر فى العالم الرومانى ، وقويت شوكتهم وتأصلت جذور ديانتهم . ورأى الامبراطور انه لابد من الحد من نفوذهم وارغامهم على الانصياع له حسبما اسلفنا . واصدر طائفة من المراسيم فى عام ٣٠٣ تحتم على جميع الرومانيين تأدية فروض الديانة الوثنية فى المناسبات المقررة ، وتوقيع اقصى العقوبات على كل مسيحى يمتنع عن ذلك .

وبدأ فى ٢٣ فبراير من عام ٣٠٣ العهد الذى أطلق عليه المسيحيون اسم «عهد الاضطهاد الأعظم» ، حيث لقوا شتى أنواع العذاب ، وهدمت كنائسهم ، وحرقت كتبهم المقدسة فى جميع أرجاء الامبراطورية . واستمر الاضطهاد بعد تناول دقلديانوس عن العرش سنة ٣٠٥،وجد الاباطرة بهمة لاستئصال شأفة هذه الديانة الجديدة وأتباعها . واستطاعوا بهذه التدابير أن يقاوموا المسيحية مقاومة فعاله لعدة أعوام تالية .

ولكن الأمور تطورت لصالح المسيحيين بعد أن تزايد خطر البرابرة على الحدود ، وانشغل الأباطرة بمواجهة هذا الخطر الخارجى ، صارفين النظر عن تلك الشئون الداخلية . بل أن امبراطور مثل جاليريوس الذى اشتهر بعدائه الشديد للمسيحيين ، لم ير مانعا ساعة وفاته من المناداة بوجوب المحافظة على سلامة الامبراطورية ، بأى ثمن ، ولو تطلب الأمر الأعتراف بالدين الجديد ، والتضحية بالقيم والمثل التى يؤمن بها المجتمع الرومانى . وتستمر الأمور على هذا الحال الى أن تولى قسطنطين عرش الامبراطورية .

لقد ربطت هذه الأحداث السالفة بين قسطنطين وبين الاله المسيحى ، وزادت من ولائه له . ويجب أن نفهم أنه لم يعتنق المسيحية فورا ، ولم يفرضها بالقوة على رعاياه . انما مرت هذه العملية بعدة مراحل توخى فيها الحيطة والحذر . فلم يكن أبوه كونستانتيوس متحمسا لاضطهاد المسيحيين ، ويقال ان احدى بناته وتسمى انستاسيا كانت من أتباع الدين الجديد . كما كانت أمة هيلينا مسيحية . ثم انه أخذ يتأمل فى الأحداث السابقة ، ووجد أن افضل السبل هو الارتماء فى احضان اله المسيحيين اعترافا منه بفضل الاله المسيحى عليه ، ومحاولة منه لانقاذ مايمكن انقاذه من الكيان المتداعى للامبراطورية . وهناك الكثير من الروايات عن قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية . منها ماذكره صديقة المؤرخ الكنسى ايوسبيوس **Ausebius** ، وما كتبه المؤرخ لكتانتيوس **Lactantius** وخلاصة الروايتين أن المسيح ظهر له فى

الحلم ، وقال له انه اذا آمن به فسوف ينتصر على عدوه ماكسنتيوس .وكانت النتيجة أن أحرز نصرا سريعا عليه . فكان هذا مما اجتذبه الى الدين الجديد. ويعتقد أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهو تشارلزورث Charlesworth ان هاتين الروايتين صحيحتان صادقتان ، وأن استجابة الاله المسيحى لطلباته جعلته يعقد العزم على تأييد عقيدته . ولكن يجب علينا أن نتقبل مثل هـــذه الروايات والأساطير الدينية بشىء كبير من التردد والحيطة والحذر ، اذ ثبت أنها كانت توضع على أى حال تحقيقا لأغراض معينة ، وأنها لاتستند علـــى حقائق تاريخية . ولذلك فان البحث العلمى يقضى بتناولها بمزيد من الدارسة والاستقصاء .

لقد راعى قسطنطين ، حسبما أسلفنا ، الحيطة والحذر فى الإفصاح عن معتقداته حتى لايقضى عى وحدة العالم الرومانى . ولم يكن فى الامكان اعلان الاعتراف التام بالمسيحية الا بعد مضى فترة من الزمن . ولكنه أخذ يتودد الى هذه الديانة التى كان يدين بها وقتذاك عدد كبير من ساكنى الامبراطوريـــة يقدر بخمسها . ويتضح ذلك من عملته وقوانينه . وبعد أن انتصر على خصمه ماكسنتيوس كبطل مسيحى ، اذا اخذنا بصحة الرؤيا التى ظهرت له ، نراه يحارب هو وليسنيوس كأبطال للمسيحية ضد ماكسيمين دانا مضطهـــــد المسيحيين . أى أن المسألة اتخذت الطابع الدينى لتحقيق أهداف سياسية . وأخيرا أصدر قسطنطين مرسم ميلان الشهير عام ٣١٣ الذى أجاز رسميـــا اعتناق الدين المسيحى . وكان قسطنطين فى مهاجمته لغريمه لسينيوســس وانتصاره عليه سنة ٣٢٣ بطلا للمسيحية . والأمر الهام أن كلاً من قسطنطين والمسيحية كان يدين الى الآخر بدين متبادل . فهو يعتقد أن انتصاراته على خصومه واعدائه وتثبيت دعائم الامبراطورية،انما يرجع الى ذلك الاله القوى. كما وأن هذا الاله هو الذى هيأ له الظروف لكى يصبح الحاكم الأوحد الذى لامنازع لسطاته على تلك الامبراطورية الواسعة ، بعد أن تخلص من منافسنيه فى الشرق والغرب . وكذلك يدين المسيحيون بالفضل اليه ، فى وقف الاضطهاد

الذى لحقهم ، والاعتراف بالدين الجديد ومايترتب على ذلك من آثــار .

وفى سنة ٣٢٥ أتاحت الظروف فرصة طيبة لقسطنطين ليبدو كحامى للمسيحية ، ولكن فى صورة جديدة . اذ انه بعد هزيمة الوثنية والاعتــراف بالمسيحية ، قضى العالم المسيحى فترة من الزمان متحدا . الا انه سرعان ماابتدأ الانقسام الدينى فى الكنيسة المسيحية عندما قام النقاش بين الراهب اريوس **Arius** السكندرى وبين اسقفه حول الوهية المسيح . وتتلخص بدعته فى ان المسيح مخلوق بشر منكرا لاهوته . فأخذ الامبراطور على عاتقه دعوة جميع أساقفة المسيحية للاجتماع فى مدينة نيقية فى آسيا الصغرى تحت رئاسته ، فى المجمع المعروف فى تاريخ باسم المجمع المسكونــى الأول . وفى هذا المجمع الذى حضره ٣١٨ اسقفا اعلن آباء الكنيسة خطــأ النظريـــة الأريوسية ، وحرمان صاحبها ، واعتبار حركته هرطقة . وكان لهذا المجمع اهمية فى تدعيم العقيدة المسيحية ، وفى أن قسطنطين اعتزم جعل الكنيسة المسيحية كنيسة الدولة وعلى رأسها الامبراطور باعتباره الرئيس الدينــى الأعلى لها،ولم تعترض المسيحية على هذا الوضع لما كانت تدين به لقسطنطين من أفضال . وهكذا انتهى العداء القديم المزمن بين الكنيسة والدولة ، الذى يرجع الى اخريات التاريخ الرومانى ، بعد أن أصبح قسطنطين هو رأســـ تلك الكنيسة ، وبات فى نظر العالم الرسول الثالث عشر .

ومادمنا نتحدث عن قسطنطين والمسيحية ، فلا بد من الاشارة الى امه هيلينا **Helena** التى أرسلها الى بيت المقدس حيث عثرت على موضـــع الجلجثة . واستخرجت الصليب الحقيقى الذى صلب عليه المسيح ، والحربة التى طعن بها فى جنبه، والاسفنجة ، وكذلك تاج الشوك الذى وضعه اليهود فوق رأسه ، وكل آثار الصلبوت الأخرى . كما قام هو بتشييد كنيسة القيامة فى اورشليم ، التى تعرف ايضا باسم القبر المقدس ،والتى اصبحت كعبـــة الحجاج المسحيين من مختلف بقاع الأرض منذ ذلك التاريخ حتى وقتنا هذا .

وقد كان لهذه الآعمال اثرا كبيرا ، اذ تمتع قسطنطين وهيلينا بعظمة خالدة ، واقترن اسم الابن وأمه بالاحترام فى تاريخ المسيحية .

وحول العلاقة بين كل من قسطنطين الكبير والمسيحية ، يقول رانسيمان « وهكذا يبدو ان العداء القديم بين الكنيسة والدولة قد انتهى . وكان الامبراطور هو راس العالم المسيحى . ولم يعد بحاجة ليدعى انحداره من الاله هرقل أو من ابولو ، بل تمتع بقداسة جديدة تغتفر له كل ذنوبه ومعاصيه . ومع ان يديه كانتا ملطختين بدماء منافسيه وابنه وحتى زوجته ، الا انه كان فى نظر العالم رسولا من الرسل . لقد كان الرسول الثالث عشر . وقد رفع من مكانته الروحية تلك المقدرة الفائقة لوالديه هيلانة زوجة قسطانتيوس السابقة البيثينية الأصل . وقد أرسلها قسطنطين الى بيت المقدس حيث عثرت — بقوة خارقة قلما يلقاها علماء الماديات اليوم — على موضع الجلجثة بعينه . واستخرجت الصليب الحقيقى من بطن الأرض ، ومعه صليبى اللصين ، والحربة ، والاسفنجة ، وتاج الشوك ، وكل آثار الصلبوت الأخرى . واهتز العالم المسيحى لذلك الكشف الذى أسبغ على ام الامبراطور عظمة خالدة . واقترن اسم قسطنطين وهيلانة بالاحترام والاجلال العظيمين فى تاريخ الامبراطورية المسيحية . »

القسطنطينية او روما الجديدة : تاسيسها ونشاتها :

كان الهدف الأول لقسطنطين هو تحقيق السلم والوحدة للدولة الرومانية مهما كان الثمن غاليا . وقد ادرك ان التقسيم الذى وضعه سلفه دقلديانوس قد استنفد أغراضه ، وانه ينبغى الآن أن يكون للدولة امبراطور واحد وعاصمة ثانية ، بدلا من أربعة اباطرة لكل منهم عاصمته . ووجد أن هذه العاصمة يجب أن تكون فى موقع جغرافى واستراتيجى يفى بمقتضيات العصر واحتياجاته . ولم يعد بوسع روما القديمة الوفاء بهذه الحاجة . ووجد قسطنطين ضالته فى تلك المدينة التجارية اليونانية القديمة المسماة ببيزنطة Byzantium ، والتى قال عنها احد مؤلفى القرن العاشر الميلادى ، وهو

قسطنطين الرودسى انها المدينة التى اجتمعت فيها أمنيات الدنيا ورغباتها .

ان تأسيس القسطنطينيه له أسبابه التى أدت اليه ، من جوهرية وثانوية ، مباشرة وغير مباشرة ، داخلية وخارجية . وهى ترتبط ، أساسا، بسقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وبنهاية التاريخ القديم ، أكثر من ارتباطها ببداية العصر الوسيط او التاريخ البيزنطى . ومع ذلك لا يمكن اغفالها عند التحدث عن تأسيس القسطنطينية . وتتلخص أسباب تأسيس العاصمة البيزنطية فى العوامل التى أدت الى انهيار الامبراطورية الرومانية. اذ تعرض العالم الرومانى اعتبارا من القرن الثالث الميلادى لأزمات عنيفة هدت كيانه وقوضت أركانه . اذ هدد الفساد شتى النواحى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية والعسكرية . وعاث الجرمان البرابرة فسادا على حدود الدانوب والراين ، وكثرت اغاراتهم على تلك الحدود . هذا ، بينما أخذ الفرس الساسان يتقدمون فى الشرق . وهكذا بات المجتمع ارومانى مهددا بالتفكك والانهيار من الداخل والخارج ، مما كان له أكبر الأثر فى التفكير فى نقل العاصمة من روما ، وانشاء عاصمة جديدة فى الشرق ، تكون بمثابة روما ثانية أو روما جديدة ، وتفى بمتطلبات العصر واحتياجاته ، ونعنى بها القسطنطينية . وهى العاصمة التى قامت فى أوائل القرن الرابع لتؤدى دورها على مسرح الأحداث أكثر من عشرة قرون من الزمان . هذا ، بينما انهال الجرمان البرابرة داخل الامبراطورية الرومانية فى الغرب وقضوا عليها .

لقد تأسست هذه المدينة منذ القدم على أيدى بحارة اغريق من سكان مدينة ميجارا Megara البحرية فى عام ٦٥٧ ق‌م ، فى طرف أوروبا الأقصى عند اتصال البسفور ببحر مرمرة . ولم تكن هذه السواحل مجهولة للمستعمرين الاغريق القدماء . فقبل قيام بيزنطة بسبعة عشر عاماً ، قام عدد من المحاربين بتأسيس مدينة خلقدونية التى تقع على شاطىء البسفور الاسيوى المقابل . وقد كان لخلقدونية من المزايا مالم يكن لكثير من المدن الواقعة على البسفور . ومع ذلك كانت بيزنطة القديمة تفوقها أهمية وعظمة.

وكان يفصل اوروبا عن الجزء الجنوبى من آسيا حوضان عظيمان للمياه ، هما البحر الأسود والبحر الايجى (بحر الأرخبيل) . وبين هذين البحرين تبرز مدينة تراقية التى لا يفصلها عن آسيا الصغرى سوى بوغازين ضيقين هما البسفور والدردنيل ، الذى كان يعرف قديما باسم الهللسبونت ، ويحصران بينهما بحر مرمرة المغلق . ومن بين هاتين القناتين اللتين يمكن عبورهما بسهولة ، يمتاز البسفور بأهميته الفائقة من حيث سهولة الوصول اليه من ناحية القارتين الآسيوية والأوروبية . فهو يقع عند تقاطع اثنين من اعظم الطرق التجارية فى التاريخ . وكان لابد للمسافرين او البضائع المرسلة من احدى القارتين الى الأخرى أن تمر بمدينة تقع على البسفور . كذلك كان لزاما على السفن المنعطفة بين البحر الاسود وبين البحر المتوسط وبحر الارخبيل أن تجر على مقربة من مرافئه . والى جانب ذلك ، فقد كان لبيزنطة كبيرة من مصايدها المنتشرة على طول شواطئها . وهكذا تمتعت بمركز تجارى تجارة محلية رائجة مع قبائل تراقية المجاورة لها . كما كانت تحصل على فوائد لاينافسها فيه غيرها .

وكان للقرن الذهبى اهمية خاصة بالنسبة لبيزنطة . فقبل مرور مياه البسفور فى بحر مرمرة ، يمتد هناك من الداخل الى الشمال الغربى خليج عظيم مقوس يبلغ طوله سبعة أميال يعرف فى التاريخ بالقرن الذهبى . ويوجد بين القرن الذهبى وبحر مرمرة نتوء جبلى يشبه مثلثا متساوى الساقين له رأس مستوية مواجهة لآسيا . وفى هذا المكان تأسست مدينة بيزنطة . فكان من الطبيعى أن تتمتع بميناء ممتاز يمكن لأى أسطول مهما بلغت ضخامته ان يرسو فيه بأمان . وأصبح البحر يحميها من جميع الجهات الا من جهة واحدة .

وكان عيب بيزنطة الوحيد هو مناخها غير الجذاب ، الذى عاقها عن أن تصبح مدينة عظيمة من الدرجة الأولى لمدة تقرب من الف سنة . فالجو شديد الحرارة صيفا ، بينما تهب خلال فصلى الشتاء والربيع رياح شمالية باردة عبر البحر الأسدو آتية من سهول الاستبس الجليدية . وكانت هذه الرياح

الشمالية هى وتيار البسفور الشديد المتجه جنوبا تمنع السفن فى أغلب الأحيان من الدوران والوصول الى القرن الذهبى .

وقد ظهرت أهمية بيزنطة منذ البداية كقلعة حصينة . فقد كانت تتحكم فى المدخل المؤدى الى البحر الأسود . ثم أنها كانت الطريق الرئيسى المؤدى الى آسيا ، وقد أدرك ذلك من قبل فيليب المقدونى وابنه الاسكندر الأكبر . وكانت ذات مركز استراتيجى ممتاز ، حتى لقد اعتبرها الأباطرة الرومان خطرا يهدد كيانهم ، فأهدر بعضهم حقوقها وهدموا حصونها وقلاعها ، وبخاصة أيام فسبسيان Vepasian وسفيروس Severus وجالينوس Gallienus ولم تكتسب أهميتها الحربية الفائقة الا فى الحرب الليسينية الثانية سنة ٣٢٣ ، عندما جعلها ليسينيوس مركزا لحربه الفاشلة ضد زوج اخته قسطنطين الكبير امبراطور الغرب . وبعد أن انتهت هذه الحرب التى لقى فيها ليسينيوس هزيمة شديدة ، أرسل قسطنطين — وكان قد أصبح الامبراطور الوحيد فى العالم الرومانى — المهندسين والمساحين فى مكان المدينة وحواليها توطئة للبدء فى عملية التخطيط والبناء لتلك المدينة التى قدر لها أن تحمل اسمه وأن تعمر قرونا طويلة .

ومنذ ذلك الحين بدأت روما ، وهى العاصمة الغربية فى فقدان أهميتها التى كانت تتمتع بها ، وأحسن الأباطرة الرومان بالحاجة الى مركز جديد . وقد وجدوا بغيتهم فى تلك المدينة التى تقع بعيدا عن أعين العناصر المتبربرة التى كثرت اغاراتها على حدود الامبراطورية فيما وراء الدانوب والراين . لقد كان دقلديانوس هو أول من اتجه ببصره نحو الشرق عندما جعل مدينة نيقوميديا مقره الرئيسى . أما قسطنطين فقد جعل من مسقط رأسه فى أول الأمر ، وهى مدينة نيش Nish ، مقرا للعاصمة ، ثم اتجه بعد ذلك الى اعادة تعمير مدينة تروادة Troad . ولكنه عندما تبين مزايا بيزنطة من النواحى الحربية والتجارية ، فضلا عن موقعها الجغرافى الممتاز ، بادر على الفور بوضع أساس المدينة الجديدة التى شيدها لتكون مدينة مسيحية

الصبغة ، حيث يمكنه اقامة كنيسة جديدة هى التى عرفت باسم كنيسة ايا صوفيا التى كانت تعتبر آية من آيات الفن البيزنطى الوسيط . هذا ، بينما ظلت روما حصنا للديانة الوثنية القديمة الى وقت غير قصير .

كانت اذن ، الحاجة ماسة فى ذلك الوقت بالذات الى وجود مركز جديد للامبراطورية ، يكون مقرا هادئا للبلاط الامبراطورى ، والى موضع يكون أكثر صلاحية من النواحى الادارية والحربية والدينية ، ويسهل الوصول اليه برا وبحرا ، ويطل على أراضى الدانوب ، ولا يبعد كثيرا من الشرق ، ويكون فى نفس الوقت معقلا حصينا يمكن منه صد هجمات البرابرة من الشمال . ولاشك انه مرت بذهن الامبراطور اسماء عدة مدن ليختار احداها مثل مسقط رأسه نيش ومدينة صوفيا ونيقوميديا . ولكن هذه المدن لم يكن لها من المزايا ماكان لبيزنطة التى عرفها معرفة جيدا ، وادرك ميزاتها الحربية اثناء صراعه مع خصمه ليسينوس . وعلى ذلك فان اختيار لهذه المدينة الميجارية القديمة لتكون قاعدة الحكم كان أمرا طبيعيا ، دل على حصافته ونبوغه وبعد نظره.

وفى الحال اتخذ الاجراءات التى تتفق مع ماستقر عليه عزمه . فحدد حدود المدينة الجديدة . وهناك أساطير عديدة تصور كيفية تخطيط تلك المدينة التى ادخلت فى خط حدودها التلال السبعة التى تضمها شبه الجزيرة الواقعة بين بحر مرمرة والقرن الذهبى . وقد أشار الى ذلك بالتفصيل شارل اومان فى كتابه « الامبراطورية البيزنطية » . واختار قسطنطين الأرض المرتفعة الواقعة خارج أسوار المدينة القديمة ، حيث كان قد اقام معسكره اثناء حصار سنة ٣٢٣ م ، لتكون سوقا للمدينة الجديدة ، حيث شيد معبدا يقوم سقفه على اعمدة بداخله تمثال له وآخر لأمه . ثم اختار الجزء الجنوبى الشرقى من بيزنطة القديمة ليقيم عليه قصره الامبراطورى ، وأحاطه بالملاجىء والحدائق الواسعة . وكان يفصل المنطقة الامبراطورية عن المدينة نفسها سور ، يبدأ عند تلاقى البسفور مع بحر مرمرة ، ويتجه الى الداخل حيث يسير بمحاذاة الساحل مايقرب من ميل . وكانت تمتد الى الشمال الغربى من القصر ،

الساحة المستطيلة المغطاة ارضيتها بالمرمر والتى تعرف بساحة اوغسطس ، وقد احاطت المنشئات العامة من جميع جوانبها وبين القصر والساحة ، كانت توجد ثلاث منشئات مستقلة يربطها رواق ذو أعمدة ، وهى مبنى الحمامات الكبرى . والى جانبه من ناحية الشمال كان يقع مبنى السناتو ، وقد زين المبنيان بالتحف الفنية الهللينية وتماثيل الآلة القديمة . والى الشمال من مجلس الشيوخ ،كان يوجد قصر البطريق وهو اللقب الذى أعطى لأسقف بيزنطة فيما بعد عندما رفع الى مرتبة اخوانه فى انطاكية والاسكندرية . وكان مسكن البطريق جميلا ، الا أن قصر الامبراطور فاقه حسنا وروعة . وفى ذلك اشارة واضحة ان سلطة الامبراطور كانت تسمو على سلطة لبطريق منذ ان اعلن قسطنطين ان الامبراطور هو الرئيس الدينى الاعلى للكنيسة . ولعل قسطنطين قد راى فى بناء هذا المسكن أن يكون البطريق قريبا منه ، بحيث لا يستطيع أن يحصل على نفوذ مستقل ، ولم تتهيأ له اى فرصة لاقامة سلطة روحية مستقلة تواجه الحكومة المدينة كما فعل أسقف روما .

وعلى طول الجانب الغربى من ساحة اغسطس فى مواجهة المبانى الثلاثة ، كان يقوم الملعب الكبير لسباق الخيل الذى لعب دورا هاما فى حياة القسطنطينية ، ويسمى بالهبودروم **Hippodrome** . وهو حلبة سباق الخيل والألعاب والمبارزات وصراع المصارعين . وكان من أكبر منشئات العاصمة ، حيث كان يجتمع أفراد الشعب للهو والتسلية . وقد اعتاد الأباطرة الذهاب الى الهبودروم بعد تتويجهم مباشرة ، فيجلسون فى المقصورة الامبراطورية المخصصة لهم ، وهناك يحييهم الشعب ،وكانت هذه التحية تعتبر بمثابة المبايعة . وكان يقوم فى وسط الملعب الحاجز الذى يرى فى كل ملعب ، وقد ازدان بثلاثة نصب أثرية لازالت حتى يومنا هذا يمكن للزائر مشاهدتها ، بينما تهدمت أسوار الملعب نفسها .

وعلى طول السور الشرقي الخارجي للملعب عند الحافة الغربية لساحة

اوغسطس كان يوجد صف من المعابد الصغيرة والتماثيل .وقد ازداد عدد هذه التماثيل فيما بعد أصبحت تمتد على طول الساحة . والى شمال الملعب كانتتقوم الكنيسة الكبيرة التى شيدها قسطنطين . وقد انتشرت وزالت معالمها . وبنيت على أنقاضها سانت صوفيا Saint Sophia وهو ومن بابها الغربى كان يمتد رواق خشبى يعتبر الساحة وينتهى عند باب القصر الامبراطورى . ومن هذا الطريق كان الامبراطور يصل الى الكنيسة لتأدية الفروض الدينية . ومن هذه المنشآت جميعها يتألف قلب القسطنطينية . وقد وقعت الأحداث الهامة فى تاريخ هذه الامبراطورية بين القصر والملعب وكنيسة سانت صوفيا .

ومع ذلك ، فقد كانت المدينة تمتد الى الشمال والغرب عدة أميال ، وكانت توجد منشآت هامة فى كل مكان ، وان لم تصل فى جمالها وروعتها الى تلك المجموعة من المبانى المقامة حول ساحة اوغسطس . ومن المبانى المتطرفة التى يجدر الاشارة اليها ، يجب أن نذكر مخازن الحبوب والقلال والبوابة الذهبية وقصر الحاكم العسكرى .

وقد تميزت العاصمة نفسها بشوارعها الجانبية الضيقة التى لم يكن عرضها يزيد عن الثلاثة أمتار . كما اشتهرت منازلها بشرفاتها البارزة وسلالمها الخارجية فزادت الشوارع ضيقا . وكذلك السور المحيط بالمدينة الذى وسعه الامبراطور ثيودوسيوس الثانى فى القرن الخامس ، وأعاد هرقل توسيعه فى القرن السابع . وكان الأباطرة البيزنطيون يضيفون الى منشآت المدينة ابنية جديدة خلال القرون المتعاقبة .

كان اختيار قسطنطين لهذا الموقع الممتاز عاصمة له بصفة نهائية سنة ٣٢٤ ، حيث تم العمل على قدم وساق فى اقامة المنشآت . وفى ١١ مايو سنة ٣٣٠ أقام الاحتفال الخاص بتدشينها . فبارك الأساقفة المسيحيون القصر ، وأقاموا الصلاة فى كنيسة سانت صوفيا ، اذ كان قد اتجه منذ البداية

على جعل مدينته الجديدة مسيحية الصبغة والطابع . وبعد اتمام مراسيم الاحتفال ، صدر امر امبراطورى بمنح المدينة لقب روما الجديدة . ومع ذلك فقد اطلق الناس على المدينة اسم مؤسسها ، وأصروا على تسميتها القسطنطينية .

بقى شيء أخير لم يفعله الامبراطور ، وهو العمل على ان تصبح عاصمته مدينة آهلة بالحركة والسكان . فدعا عددا من رجال مجلس السناتو القديم ، وكثيرا من الأثرياء من اهل الولايات من بلاد اليونان وآسيا ليقيموا فيها . واسند اليهم مناصب فى مجلس شيوخه الجديد ،وأمدهم بالمساكن . ثم أن الضباط والجنود وموظفى البلاط واتباعهم — كانوا هم ايضا يؤلفون عنصرا هاما من سكان المدينة الجدد . كذلك وفد اليها الآلاف من التجار والصناع واهل الفن وغيرهم من المهاجرين الذين اغرتهم الامتيازات العديدة التى منحها قسطنطين لمدينته الجديدة .

عناصر تكوين مدينة القسطنطينية :

لقد كان من الطبيعى أن تمتزج فى القسطنطينية عناصر الامبراطورية ، التى اعيد تنظيمها ، وهى : التراث ، والحضارة الرومانية ، والمسيحية . فقد أقيمت المدينة على سواحل تتكلم اليونانية ، واصبحت مركزا للعلم والفن والحضارة اليونانية ، ولم ينس ساكنها عظمة تراثه اليونانى ، واصبح اللسان السائد فيها هو اليونانى بعد تدهور اللاتينية وزوالها . ولكنها كانت ايضا مدينة رومانية . فكانت اللاتينية لمدة تزيد عن القرنين لاتزال هى لغة العلم لدول البلقان ، وكن سكانها هم الجمهور ارومانى ، وقد تمتعوا بكثير من الحقوق والامتيازات التى تمتعت بها روما . ولذلك كانت القسطنطينية هى روما الجديدة أو روما الثانية . وأمدت روما القديمة الامبراطورية الجديدة بالكثير من نظرياتها الادارية وقانونها وتقاليدها العسكرية . وكان العنصر الثالث هو المسيحية . فكانت القسطنطينية مدينة مسيحية ، وأخذ الشرق

يغزو العالم الرومانى بآرائه الصوفية . وكان المواطن فى القسطنطينية على وعى بتراثه اليونانى والرومانى . ولكن نظرته للحياة كانت مغايرة . فكان أقل استمتاعا بالحياة ، واتجه تفكيره نحو الفلسفات والالهيات . وكان أكثر استعدادا لاستقبال الأفكار الوافدة من الشرق . وان تاريخ الامبراطورية البيزنطية هو تاريخ صبغ التقاليد الاغريقية الرومانية بصبغة شرقيــة . وخلاصة القول ان العوامل الجديدة التى نشأت يمكن أن تسمى بيزنطيــه لاأغريقية ولارومانيــة .

وفيما يتعلق بعناصر تكوين مدينة القسطنطينية ، فقد أدلى بدلوه فى هذا الموضوع كثير من المؤرخين الأجانب المعنيين بالتاريخ البيزنطى . يقـــول رانسيمان فى كتابه « الحضارة البيزنطية » : « وحتى فى القرن الخامــس عشر ، ناقش رجال القسطنطينية طبيعة حضارتهم . فهم الرومانيون ، فهل كانوا أيضا هللينيين ؟ وقد أعطاهم الرد على ذلك آخر وأعظم رجـــال الامبراطورية،وهو جورج سكولاريوس جناديوس،حينما قال: ومع انى هللينى بلغتى ، الا أننى لااقول أبدا انى هللينى ، لأنى لااعتقد فيما يعتقد فيـــه الهللينيون . ومع أن ابى عاش فى تساليا ، فانى لاأسمى نفسى تساليا ، انما بيزنطيا لأنى من بيزنطة ، ويمكن ان نأخذ بهذا الرأى ، ونسمى الحضـــارة الرومانية من تلك العناصر بيزنطة . »

اما المؤرخان بنيز وموس فيقولان فى كتاب « بيزنطة » : على الرغم من تحمس البيزنطيين فى أن يسموا أنفسهم الرومانيين ، وفى ان يدعوا لأنفسهم بتقاليد مستمدة من الارث الرومانى ، فقد كانت ثقافتهم يونانية خالصة . ولم يدرس [المشرع] ليبانيوس Libanius فى القرن الرابع لاتينية العناصر المتبربرة ، كما لم يقم بتدريسها . وعلى الرغم من أن ثيودوسيوس الثانى عين فى سنة ٤٢٥ مدرسين لاتين واغريق فى جامعة فى القسطنطينية ، الا أن الاغريق فاقوا اللاتين عددا . ثم أن جستنيان ، ولو انه أصدر باللاتينية مجلة

احكامه والديجست والنظم الخاصة بالقانون الرومانى ، الا أنه كتب تشريعاته المتاخرة باللغة اليونانية حتى يمكن نفهمها بسرعة ويسـر . »

أما باركر فقد أوضح فى كتاب «الفكر الاجتماعى والسياسى فى بيزنطة» ان الامبراطورية كانت فى الأصل رومانية ، وظل رعاياها لقرون طويلة يطلقون على انفسهم اسم الرومانيين Roamioi .وكان العنصر الرومانى فى عهد جستنيان وخلال القرن السادس لايزال واضحا . اذ سعى الامبراطور الى استعادة الغرب اللاتينى ، وشرع القوانين التى ارتكزت عليها الامبراطورية باللغة اللاتينية . ولكن ، مع مرور الزمن أصبح العنصر الرومانى عنصـرا يونانينا رومانيا . وكان القانون فى عهد ليو الثالث يكتب باللغة اليونانية ، كما كان طلاب العلم يتكلمون عن التشريع الرومانى المتاغرق . وقد تحول هذا الخليط اليونانى الرومانى ، آخر الأمر ، الى يونانى خالص ومبسط . » وعلى هذا يمكن ان نستخلص مما سبق أن العوامل الجديدة التى نشأت يصح أن تسمى بيزنطية لاغريقية ولارومانية حسبما أسلفنا ، وان اللغة اللاتينية بدات تزول تدريجيا من الدولة البيزنطية وعاصمتها لتحل محلها اللغة اليونانية .

وهكذا اصبحت القسطنطينية تلقب بحق روما الجديدة ، وأصبحـت رمزا للامبراطورية الناهضة التى كانت فى أمس الحاجة الى مقومات الدول . فكان من الضرورى وجود جيش متأهب للحرب والدفاع عن البلاد ، كما وجب على جميع الطبقات مواصلة نشاطها . ولزم توفير الأيدى العاملة . وفى سبيل ذلك الزم الأبناء باتخاذ حرف آبائهم ، بمعنى أن الحرف والصناعات أصبحت متوارثة . وأدرك قسطنطين أهمية توفير المواد الغذائية باعتبارها من المسائل الحيوية ، ولضمان ذلك أصدر مرسوما يربط المزارعين بالارض التى يفلحونها، واتخذ الوسائل الضرورية التى تحول دون فرارهم من الأرض . وألزمهم على القيام بواجباتهم ، ولو أدى الأمر الى معاملتهم معاملة الرقيق . ويمكن القول بأن هذا المرسوم يعتبر من الأسباب التى مهدت الطريق لنظام العبودية الذى تحول عبر القرون التالية الى ماعرف بنظام الاقطاع .

تشريعات قسطنطين وقوانينه واصلاحاته :

ولكى يجب أن نفهم أنه لم يكن بوسع قسطنطين أن يلغى نظام الرق بجرة قلم . بيد أن تصرفاته تكشف على احترامه للنفس البشرية . فقد وضع فى اعتباره الا تشرد العائلات التى تعمل فى الضياع التابعة للامبراطورية ، فى حالة بيعها ، كما أمر بأن يدان السيد الذى يعامل عبده بقسوة تؤدى الى موته . وبذلك تهيأت للبعض الفرص التى يمكن له فيها اثبات جدارته واستقاقه لحياة افضـــل .

ثم أنه أصدر قوانين أخرى تستهدف مساعدة الفقراء والمنكوبين مــن المزارعين ، ومن يعملون فى أراضيهم . وأصدر مرسوما بحماية الأبناء الذين يفقدون أمهاتهم من جشع الآباء . وفرض عقوبات مشددة على جريمـــة الاغتصاب . وأمر بأن أى شخص يرتكب جريمة ما ، يجب أن يحاكم فى الولاية التى ارتكب بها الجريمة لا موطنه الأصلى . وسن قانونا بتحديد يوم الراحة الأسبوعية . وقلل من المصارعات والمبارزات الدامية التى تنم عن وحشية ، قائلا انها لاتليق فى عصر سلم وهدوء . كما أصدر مرسوما يقضى بحســن معاملة المساجين داخل السجون ، وبمعاقبة السجانين اذا استخدموا القسوة مع المساجين . وسن قانونا بحرمان الآباء من أبوتهم لأبنائهم الذين يهملــون تربيتهم أو يتخلون عنهم .

وان الدارس لتاريخ القانون والتشريع أيام قسطنطين يلمس هــذا التغيير الكبير على الطابع السائد فيه . وكان الامبراطور يهدف من وراء هذه التدابير تنشيط الحالة الاقتصادية فى البلاد ، والاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، والعمل بما اعتقد أنه يشمل ارادة اللـــه .

لقد كان هدف قسطنطين هو توفير أسباب القوة والمنعة للبلاد الخاضعة للحكم الرومانى ، وحمايتها من الأخطار التى كانت تهددها فى الداخل والخارج .

وفى سبيل ذلك لجأ الى عدة اصلاحات فى الميدان العسكرى . فجعل مهمة القوات الاقليمية التى يتم تجنيدها محليا حراسة الحدود ، مع الاحتفاظ نفس الوقت بجيوش صغيرة متنقلة مدربة مسلحة ، حتى يمكن استخدام فى المناطق التى يهددها العدو . وكانت قواته تتألف من رماة السهام والرماح والفرسان ، ومن اهم الأسلحة التى استخدمها المنجنيقات التى توصل اليها المهندسون الرومانيون . وتوج اصلاحاته العسكرية بتعيين قائدين عسكريين يسميان Magistrii ، أحدهما رئيس للمشاة Magister Peditum ، والآخر رئيس الفرسان Magister Equitum ، وكانت لهما السلطة على حكام الولايات وباقى الموظفين العسكريين .

واخيرا لم ينس قسطنطين فضل الاله المسيحى عليه . فهو الذى اعانه على تحقيق انتصاراته المتتالية ، وأنه سوف يحفظ الامبراطورية اذا ماإجتذب الى عبادته جماعات أخرى من المواطنين . ولذلك نراه يصدر مرسوما بتكريس جهود الكهنة ورجال الدين فى الواجبات الكهنوتية ، واعفائهم من كافة الواجباب الأخرى . وفى سنة ٣٣٢ نراه يقرر اعفاء المسيحيين فى دولته من الاشتراك فى مراسيم الدولة الوثنية . وشرع فى بناء عددكبير من الكنائس التى شملها بعطفه ورعايته . كما أمر بنسخ عدد كبير من الكتاب المقدس ليكون فى متناول الجميع ، وأسبغ على رجال الدين طائفة جديدة من الامتيازات ، واحاطهم بمظاهر التكريم . وقد رأينا فيما سبق كيف أنه عمل على عدم وقوع شقاق بين المسيحيين ، فرأس اول مجمع مسكونى كنسى عقد بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ للنظر فى بدعة اريوس واعتبارها هرطقة . لقد كان قنسطنطين يأمل فى أن يعتنق رعاياه فى كافة أرجاء الامبراطورية الدين الجديد، وينبذوا الآلهة الوثنية القديمة . ولكنه لم يفرض رغباته على الشعب بالقوة أو طفرة واحدة ، وانما ترك الأمور تسير تدريجيا . فقد كان هدفه الأول هو توفير أسباب السلامة والأمن للدولة الرومانية . وعلى الرغم من كل ماتقدم ، فانه لم يقبل المعمودية حتى أصبح على فراش الموت ، حينئذ قبلها على يد

ايوسيبوس ثم فاضت روحه فى ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ . ويجب أن نفهم جيدا ان الخلاف قد احتدم طويلا حول الدوافع الحقيقية التى حدت بالامبراطـــور قسطنطين الى احداث الانقلاب الخطير ، ومدى اخلاصه فى ذلك . فقد ثــار الكثير من الجدل والنقاش بين المؤرخين المشتغلين بالتاريخ الرومانى والتاريخ البيزنطى حول هذه المسألة التى لم يبت فيها براى نهائى حاسم ، وعلى راس هؤلاء المؤرخين تشارلزورث ، وشارل اومان ، واستروجورسكى،وفازيلييف

لقد اضطلع هذا الرجل بواجباته على خير وجه . ويلاحظ أنه كـــان يعطف على الدين الجديد وأتباعه منذ انتصاره على خصمه ماكسنتيوس عام ٣١٢ . ومع ذلك فلم يدخل الى احضان الكنيسة رسميا الا وهو على فراش الموت . والدارس لشخصيته يجد أنه كان رجلا عظيم المكانة والقدر ،مخلصا، سليم النية ، واسع الحيلة والدهاء ، رومانيا خالصا فى قدرته على حســم الأمور وتوقيت ساعة التحفز والهجوم . كما كان طيبا فى معاملته لرعاياه ، وان كان هذا لم يمنعه من التشدد والقسوة اذا دعت الضرورة لذلك. اذ تذكر المراجع انه اصدر فى وقت واحد أمرا باعدام ابنه كريسبوس Crispus وزوجته فاوستا Fausta.

الموضـــوع الخامس

الدولة البيزنطية منذ وفــاة قسطنطين الكبــير

وحتى نهايــة الأســرة الليونيــة

(٣٣٧ ــ ٥١٨)

على أيه حال ، توفى قسطنطين الكبير عام ٣٣٧ ، وخلفه فى الحكم ابناءه الثلاثة الذين كانوا فى تنازع مستمر ، بينما كانت الأخطار الخارجية تهدد الدولة تهديدا خطيرا ، واهمها الخطر الفارسى فى القطاع الآسيوى والضغط المتزايد للقبائل الجرمانية على الدانوب والراين . وتمكن احد القادة ويدعى جوليان من أسرة قسطنطين من القضاء على غزو جرمانى فنادى بد الجيش امبراطورا عام ٣٦١ ، واستمر حكمه حتى عام ٣٦٣ ، وهو المعروف فى التاريخ باسم جوليان المرتد **Julian the Apostate** ، نظرا لتحوله الى الوثنية ومحاولاته الفاشلة للقضاء على المسيحية . فقد اثبتت الأحداث أن الوثنية اصبحت قوة هزيلة فى طريقها الى الزوال . وحاول جوليان غزو بلاد الفرس ولكنه لقى هزيمة شديدة . وأحرز الفرس عدة انتصارات على حساب بيزنطة فى عهد خلفه المسمى جوفيان **Jovian** (٣٦٣ — ٣٦٤) . هذا ، بينما اخذ خطر القبائل الجرمانية يتزايد بشكل واضح . فنجد أن القوط الغربيين يتحولون من الوثنية الى المسيحية ، مما جعل الامبراطور فالانس **Valens** (٣٦٤ — ٣٧٨) آخر اباطرة اسرة قسطنطين يسمح لهم بعبور الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الامبراطورية . فكانت هذه بداية غزواتهم فى اوروبا . وعندما اتجهت هذه العناصر نحو القسطنطينية ، خرج فالانس لتأديبهم ، ولكنه هزم ولقى حتفه فى موقعة ادرنة سنة ٣٧٨ التى اصابت الغرب أكثر مما أصابت الشرق .

وبموت فالانس تنتهى أسرة قسطنطين وتبدأ اسرة ثيودوسيوس . وأول اباطرتها هو ثيودسيوس الكبير **The.dosius the Great** (٣٧٩ — ٣٩٥) ، الذى تمكن من مصالحة القوط والافادة منهم . وقد اشتد فى معاملة الهراطقة والوثنيين . وله دور مشهور فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨٧ . كما عقد معاهدة مرضية مع فارس ضمنت له لفترة غير قصيرة الهدوء والسلم . ويعتبر حكمه بداية عهد جديد فى تاريخ

الامبراطورية الرومانية . ففى سنة ٣٩٥ قسم تلك الامبراطورية الى قسمين منفصلين الواحد عن الآخر . القسم الغربى واعطاه لابنه هونوريوس H norius والقسم الشرقى واعطاه لابنه اركاديوس Arcadius الذى حكم من ٣٩٥ الى ٤٠٨ . ومنذ ذلك الحين اصبحت الامبراطورية الرومانية امبراطورية ارثوذكسية . وبموته فى نفس العام ينفصل الجزء الشرقى من الدولة عن الجزء الغربى بصفة نهائية .

وتستمر هجمات البرابرة على غرب اوروبا فى القرن الخامس . ومن اهم احداث هذا القرن استيلاء هذه العناصر على مدينة روما سنة ٤٧٦ ، وتضاؤها بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية الغربية فى شخص آخر اباطرتها الضعاف رومولوس اوجستولوس Romulus Augustulus عندما أرسل ادواكر Odoacer الجرمانى شارات تلك الامبراطورية الى الجالس على عرش الامبراطورية الشرقية وهو الامبراطور زينو Zeno من الأسرة الليونية (٤٧٤ — ٤٩١) . وكانت امبراطورية الشرق فى ذلك الحين احسن حالا من زميلتها الغربية ، ولذلك لم تهدد اغارات البرابرة أمنها وسلامتها . وقامت بالدفاع عنها كتائب من الجند المرتزقة . واستمرت مقاومة الامبراطورية للبرابرة خلال حكم هذه الأسرة . فتمكن ليو الأول (٤٥٧—٤٧٤) من تحرير البلاد من الجند القوطيين وضم الى جيشه كتائب آسيوية .

ولم تكن متاعب الامبراطورية فى القرن الخامس قاصرة على البرابرة ، ولكنها واجهت مشاكل أخرى لاتقل عنها أهمية . فقد كانت هذه فترة هامة حرجة فى تاريخ المسيحية الشرقية ، حيث اشتدت المنافسة بين كراسى الاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية . وحقدت الاسكندرية على بطرياركية أنطاكية التى منحت الأسبقية عليها فى المجمع المسكونى الثانى . وتميز هذا القرن ، أيضا بعقد مجمعين مسكونيين ، هما المجمع المسكونى الثالث فى مدينة افسس سنة ٤٣٢ الذى أدان المذهب النسطورى ، والمجمع المسكونى

الرابع فى خلقيدونية سنة ٤٥١ الذى اعتبر المذهب المونوفيسى وهو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح بدعة وهرطقة . وكان لهذا المجمع نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الامبراطورية ، والمقاطعات التابعة لهـــا .

كذلك نمت القسطنطينية خلال هذا القرن نموا كبيرا ، فاتسعت الى ماوراء الأسوار القديمة ، حتى أنه فى عام ٤١٣ تم اقامة أسوار جديدة امتدت من بحر مرمرة الى القرن الذهبى نحو ميلين غربى السور القديم . وفى عـــام ٤٣٩ شيدت أسوار بحرية تتصل بالاسوار البرية الجديدة ، واعيد اصلاح القلاع والاستحكامات . وقد تم ذلك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) . وبعد ذلك اصبحت العاصمة فى حالة من القوة والمنعـــة مكنتها من الوقوف أمام هجمات قبائل الهون .

الموضوع السادس

اسـرة جستنـيان

(٥١٨ — ٦١٠)

الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥)

اهمية حكمه :

يعتبر عهد جستنيان فى الواقع آخر بعث لاحياء الامبراطورية الرومانية القديمة ، التى انهارت فى أواخر القرن الخامس على أيدى الجرمان البرابرة وذلك عندما حاول أن يستعيد لروما ما انتزعته قبائل البرابرة من أراضيها. حقيقة لقد بقيت الدولة البيزنطية حوالى أحد عشر قرناً على قيد الحيـاة ، ولكنها مع ذلك لم تظفر بشىء مما ظفرت به الامبراطورية الرومانية القديمة من حيث قوتها وعظمتها واتساع حدودها فى رقعة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وذلك باستثناء فترة قصيرة جدا هى حكم الامبراطور جستنيان فى حوالـى منتصف القرن السادس الميلادى. اذ تمكن بفتوحاته من اعادة مجد الامبراطورية القديم . ولكن بعد موته سرعان ماتنكمش الدولة البيزنطيه من جديد،وتنحصر مساحتها فى شبه جزيرة البلقان والحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ممتدة من مصر الى سورية الى آسيا الصغرى فالبلقان . وابتداء من القرن السابع تضيع منها أملاكها الآسيوية بظهور دولة السلاف واستيلاء العرب على سورية ومصر فما وراءهما . ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين بجستنيان وفتوحاته ، والنظم والحضارة فى عهده .

شخصية جستنيان :

مات الامبراطور انستاسيوس Anastasius I (٤٩١ — ٥١٨) آخر اباطرة الأسرة الليونية سنة ٥١٨،وانتقل الحكم الى رئيس حرسه المسمى جستين الأول Justin I الذى رحب به السناتو والجيش فافتتح حكم أسرة جستنيان ، وقد حكم من ٥١٨ الى ٥٢٧ . ولما كان جستين هذا رجلا متقدما فى السن فقد ترك سياسة الأمور وادارة دولاب الحكومة فى يد ابـن اخيه جستنيان يفصل فيها كيفما شاء . فلما خلفه على العرش عام ٥٢٧ وصل الى تحقيق الأغراض التى كان قد بدأ فى تنفيذها وهو وزير للدولة فى عهد عمه

جستين . ويكون بذلك قد تدرب على أمور الحكم التدريب الكافى . فكان هذا مما ساعده على تحقيق أطماعه .

ويرجع نجاح جستنيان ، فى الواقع ، الى شخصيته وما امتاز به من الصفات الخاصة . فقد أصبحت شخصية هذا الامبراطور واضحة فى نظر المؤرخين . فقد امتاز بشخصيته العملية . وكان ، على عكس أبيه وعمه ، شابا مثقفا تلقى كل علوم ذلك العصر ومعارفه . كان حاد الذكاء ، رزينا ، يميل الى البساطة فى حياته الخاصة ، وينهى نفسه عن الاسراف فى ملذات الدنيا ومباهجها من مأكل ومشرب . كان حكيما فى معاملاته مع الشعب ومع من يحيطون به . كما كان محبا للنظام . ومن أهم صفاته جلده فى العمل، وعزيمته التى لم تعرف الكلل فى مباشرة مهام الحكم. وكان شغوفا على الاطلاع وعلى معرفة كل دقائق العمل فى حكومته ، والبت فى أمورها بنفسه . وكان مثل نابليون بونابرت قليل النوم ، يزدرى الكسل ويكره الكسالى . وكان قوى الارادة ليس فى كبح جماح من حوله فحسب ، وانما فى كبح جماح نفسه وعواطفه . وكان الامبراطور يبدو أحيانا قاسيا شديد الريبة والشك ، ولم يكن يتسامح فى المسائل المتعلقة بالدين . وكان يعتبر من أعظم الأباطرة الذين حكموا بيزنطة من ناحية اتساع فتوحاته ، وعظمة مشروعاته التى قام بتنفيذها . ولم يكن يعرف الراحة أو السكون ، بل كان شعلة متقدة من العمل الدائب واليقظة المستمرة ، مما ترك أثره فى نفوس رعاياه . وشاعت الروايات والأساطير العجيبة حتى فى حياته .

وللمؤرخ الفرنسى شارل ديل Ch. Diehl رأى آخر فيما يتعلق بشخصية جستنيان وسياسته وبطانته . يقول فى كتابه « الامبراطورية البيزنطية » . « ليس هناك وجه شبه على الاطلاق بين جستنيان وبين أسلافه أمراء القرن الخامس الميلادى . وكان هذا المحدث الذى تربع على عرش القياصرة يود أن يكون امبراطور رومانيا . وهو فى الحقيقة ، آخر

اباطرة روما العظام . ولكنه ، على الرغم من الصفات التى ليس ثمه خلاف بشأنها والخاصة بمثابرته وحبه للعمل ، فقد قال عنه أحد افراد حاشيته بأنه الامبراطور الذى لا ينام أبدا . ورغما عن حبه الحقيقى للنظام ، واهتمامه الزائد المخلص بأمر الادارة السليمة ، كان جستنيان بتعسفه وشكه وغيرته وغروره الصبيانى ونشاطه المتعدد النواحى وارادته الضعيفة المترددة فى أغلب الأحيان — كان يبدو فى مجموعة عاديا غير متزن ، لو لم يكن قوى العزم والعزيمة . وقد كان هذا الفلاح المقدونى يمثل فكرتين كبيرتين هما : الفكرة الامبراطورية ، والفكرة المسيحية . ونظرا لأنه ارتبط بهاتين الفكرتين ، فقد ظل اسمه خالدا فى سجل التاريخ . »

ومهما كانت الآراء فى جستنيان وشخصيته ، فانه الى جانب حدة ذكائه ونشاطه الفائق ، كان موهوبا بموهبة ساعدته على تدعيم حكمه وتحقيق أهدافه ، الا وهى مقدرته فى انتخاب ذوى الكفايات الممتازة ممن يتصل بهم لكى يوجههم الى العمل على تنفيذ سياسته . ويقترن حكمه من هذه الناحية بعدد من الأسماء الخالدة التى كان لها أثرها فى تاريخ ذلك العصر . ويرتبط كل اسم من هذه الأسماء بناحية معينة من نواحى العمل والانتاج . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر القائدين نارسيس **Narses** وبليزاريوس **Balisarius** فى فن الحرب وقيادة الجيوش وانثيميوس **Anthemius** فى فن البناء والمعمار . وهو الذى أشرف على معظم المؤسسات الهائلة التى لازالت بقاياها ماثلة الى اليوم فى كنيسة سانت صوفيا . وهناك ايضا المشرع تريبونيان **Tribonian** من كبار المشرعين فى ذلك العصر ، وساعد جستنيان الأيمن فى جمع وتنسيق القوانين الرومانية القديمة . وهناك شخص آخر هو يوحنا الكبادوكى **John of Cappadocia** كبير مستشارى جستنيان ووزيره فى شئون المالية . لقد أسهم كل واحد من هؤلاء فى بناء ذلك الصرح الضخم الذى أقامه جستنيان ، والذى ترك أثره فى حياته وبعد مماته لأجيال طويلة .

جستنيان وثيودورا Theod. ra :

والى جانب هذه المجموعة البارزة من الشخصيات ، كانت هناك زوجة جستنيان الامبراطورة ثيودورا التى ذاعت شرتها ، وكان لها تأثير كبير على الامبراطور . وقد اثبتت الحوادث انها كانت امبراطوره عظيمة القدر ، بالرغم من أنها كانت — كما هو معروف فى كتب التاريخ قبل أن يتزوجها جستنيان — راقصة تعمل فى المسرح الهزلى البيزنطى ، وقد احبها جستنيان حبا عنيفا ، ثم تزوج منها فاثبتت كفاءة نادرة ، وأنها تستطيع بالرغم من ذلك أن تكون امبراطورة لها خطرها فى تاريخ العالم الوسيط . لقد كانت شجاعتها وصفاء ذهنها وقوتها على التغلب على المصاعب ذات قيمة لاتنكر بالنسبة لزوجها حتى لقد فاقت قوتها قوته .

وعند الاشارة الى جستنيان وثيودورا يجب القول ان التاريخ أساء الى تلك المراة اكثر مما تستحقه من الاساءة . وتجمعت حول اسمها الكثير من القصص ، حتى لقد اعتبر البعض أن زواجه منها جلب الخزى والعار للامبراطورية . ولعل ذلك يرجع الى يوميات المؤرخ الشهير بركوبيوس Procepius الذى عاش فى البلاط الامبراطورى وقتئذ ، وكان سكرتيرا خاصا للقائد بليزاريوس ، وكتب تاريخه المشهور الذى سماه التاريخ السرى Historia Secreta دون فيه مذكراته وملاحظاته عما كان يراه . ولكن هذا المؤرخ جبل على التهويل والمبالغة اكثر مما جبل على تقرير الحقيقة والواقع . فقد وصف جستنيان بانه رجل نهم ينقاد الى شهواته وملذاته الخاصة ، ويعيش فى حفلات مستمرة يملؤها الفسق والدعارة . ولم تكن ثيودورا فى نظر بركوبيوس أكثر من امرأة عاهرة . وأمدنا فى مؤلفه بكثير من التفاصيل المخزية عن سلوكها . وقد ظل هذا التاريخ مصدرا رئيسيا لعصر جستنيان الى ان وفق المؤرخون أخيرا الى المقارنة بين مايقوله بركوبيوس ، وما ذكره غيره من الكتاب ، وما هو موجود فى الوثائق والنصوص التاريخية .

وبالتحليل التاريخى المانع الجامع امكن اثبات بطلان معظم التهم التى وجهها بركوبيوس الى جستنيان وثيودورا وغيرهما من أولى الأمر فى عصره .

وقد تناول دراسة شخصية ثيودورا وحياتها الخاصة كثير من المؤرخين الغربيين الحديثين المشتغلين بالتاريخ البيزنطى ، وعلى رأسهم المـــؤرخ الفرنسى المعروف شارل ديل Ch. Diehl الذى أفرد لها كتابا مستقلا تحت اسم«ثيودورا الممثلة المتوجة » . ويعتبر مؤلفه أحسن ماكتب عن هذه الامبراطورة ، حيث أثبت الحقائق التاريخية ، وحقق الحوادث المشكوك فيها وخرج لنا بصورة واضحة عن تلك المرأة وعن الأثر الذى تركته فى تاريـــخ الشرق الأدنى . هذا ، ولايكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ البيزنطى عـــن الاشارة الى ثيودورا وحياتها وأعمالها . يقول المؤرخ شارل اومان ان الممثلات الرومانيات كن يتمتعن بسمعة غير حميدة ، وانه كان يوجد قانون يحرم على عضو السناتو أن يتزوج من ممثلة ، وان جستنيان اضطر الى الغــاء هـــذا القانون حتى يجعل زواجه منها شرعيا . وان هذا العمل الذى اقدم عليـــه جستنيان الرزين قد ازعج أهل عصره . ومع ذلك ، فقد عزمه على الرغم من اعتراض امه وعمه جستين .

لقد كانت ثيودورا اجمل امراة فى زمانها ، ونلمس ذلك مـــن قـــول بروكوبيوس نفسه انه ليس من السهل وصف جمالها فى كلمات أو تصويره فى تحفة فنية . وكانت نواحى الضعف التى وجهها الحاقدون عليها ، أنها كانت اقل من الطول المتوسط ، تميل بشرتها قليلا الى الاصفرار . ولم يبق لنا مايمثل ثيودورا سوى صورة من الفسيفساء توجد فى كينسة سانت فيتال San Viatale فى رافنا بايطاليا .

وأيا كانت الأقوال التى اثيرت حولها وحول أخلاقها وحياتها الخاصـــة قبل زواجها ، فقد كانت جديرة بالمركز الكبير الذى احتله حتى ان احدا لم يجرؤ على التفوه عنها بكلمة سوء بعد زواجها . لقد كانت من اكفأ مستشــــارى

جستنيان ، ان لم تكن اكفأهم على الاطلاق وأكثرهم اخلاصا له . وقد صورت تلك المرأة في صورة من تملكتها نزعة الطمع والكبرياء وعدم الغفران لمن يسيئون اليها أو يخالفونها . وكانت تحب الى درجة غير عادية مظاهر العظمة والغرور التي تحيط بالحكومة الامبراطورية . وكان لها أثرها في حل الكثير من المسائل السياسية . وقد اعترف المؤرخون بأنها كانت متدينة نوعا ما ، تعاون المظلومين ، وتحسن على الفقراء والمعوزين . ومما يذكر لها أن الأحداث التي مرت بها في شبابها عندما كانت ممثلة تحترف الرقص ، جعلتها فيما بعد تسعى مخلصة لوضع الأنظمة التي من شأنها اصلاح حال النسوة اللائي وقعن في الخطيئة . وكانت بصفة عامة شديدة الاهتمام بالمرأة والعمل على رفع مستواها ومنحها الكثير من الحقوق . وكان لها أثرها في اصدار قانون نص على اعتبار المرأة التي تحترف التمثيل متساوية مع غيرها من النساء في مختلف انحاء الدولة . وكان لها دورها الكبير في الكثير من القوانين التي يسنها زوجها والتي عرفت باسمه .

وأخيرا بلغ من شجاعة ثيودورا واخلاصها أنها انتذت ذات يوم عرش زوجها الامبراطور من ثورة خطيرة كادت أن تطيح به . ذلك أنه ظهر في عام ٥٣٢ خطر هدد حياة جستنيان وسلطانه ، بسبب تعسف اثنين من كبار رجال الحكم في عهدهما المشرع تريبونيان Trabonian ووزير ماليته يوحنا الكبادوكي . وقد بدأ ذلك عندما قامت جماهير الشعب بثورة في شوارع القسطنطينية ، فأمر الامبراطور باعدام زعمائها أمام الجمهور . وكان ذلك بداية ثورة حامية استمرت ستة أيام ، اكتسح فيها الثوار المدينة ، ونادوا بعزل المسئولين عن حوادث الاعدام،وتطور الأمر الى أن نادوا بعزل جستنيان نفسه . وكاد الزمام ان يفلت من يد جستنيان ، وعجز حرسه الخاص وبوليس العاصمة من السيطرة على الموقف ، خاصة وأن قواته كانت وقتذاك خارج العاصمة تحت قيادة بليزاريوس في حروبها ضد الفرس . وفي تلك الاثناء وصل

بليزاريوس فتوجه لقتال الثوار ، ولم يكن الأمر سهلا ، اذ أشعل الثوار النيران فى مجلس الشيوخ وكاتدرائية صوفيا وغيرهما من المنشئات العامة، واصبحوا يسيطرون على معظم المدينة . وقاموا فى اليوم السادس من الثورة بتتويج هيباتيوس Hypatius ابن اخى انستاسيوس آخر أمراء الأسرة الليونية امبراطورا فى ملعب الهبودروم . وأخذ جستنيان يفكر جديا فى الفرار خشية على حياته.وفى تلك الأثناء ظهرت ثيودورا على مسرح الاحداث لتؤدى دورها ، اذ رفضت باصرار فكرة الفرار ، وأخذت تحث زوجها فى كلمات قوية مؤثرة حفظها لنا بروكوبيوس على محاولة الكرة مرة أخرى . وتقول الرواية ان جستنيان تأثر بكلمات زوجته ، وقام قائده بليزاريوس بالهجوم على الثوار داخل الملعب ، فحاصرهم وقضى عليهم . ويقال ان عدد القتلى بلغ حوالى ٣٥ الف رجل . وهكذا تمكنت ثيودورا من المحافظة على حياة زوجها وعرشه ، وانه لولا ذلك لكانت الثورة قد نجحت ، ولربما ادى ذلك الى تحويل مجرى التاريخ البيزنطى بخاصة وتاريخ العصور الوسطى بصفة عامة .

سياسة جستنيان :

مات جستين المسن سنة ٥٢٧ ، وخلفه ابن اخيه جستنيان ليحكم البلاد ٣٨ سنة طغت فيها شخصيته وأعماله على كل من حكم بعده من بيت جستنيان ، حتى أن أسرته عرفت باسمه وليس باسم عمه . وكانت الامبراطورية فى حالة من الانتعاش عندما تسلمها جستنيان والخزانة عامرة بالمال والجيش فى حالة حسنة ، مما شجعه على العمل على تحقيق سياسته. وقد تشعبت سياسة هذا الامبراطور فى الداخل والخارج الى مختلف النواحى والميادين ، ويمكن تلخيصها فيما يأتى :

اولا : سعى جستنيان الى ان يجعل امبراطوريته الرومانية مطلقة ، بمعنى ان الامبراطور يكون مطلق الحكم والتصرف فيها ، بيده الحل والعقد والأمر والنهى .

ثانيا : العمل بكافة السبل والوسائل على اعادة مجد الامبراطورية القديمة، باسترداد مقاطعاتها الضائعة . فقد كان يحلم فى أن يضم الى سلطانـــه الممالك الجرمانية الواقعة فى غرب البحر المتوسط ، والتى كانت قد تكونت من أنقاض مملكة هونوريوس بن ثيودوسيوس ، وأن يتم تلك المحاولة التى كان من نتيجتها الاعتراف به امبراطورا رومانيا بمعنى الكلمة . وكان من أهدافه أيضا أن يفتح ايطاليا وافريقية واسبانيا ان لم يكن الولايات الأبعد منها التى كانت تدخل فى نطاق الامبراطورية القديمة . وسنرى أنه نجح فى مد حدود امبراطوريته الى شواطىء الأطلنطى غربا والمحيط الهندى شرقا ، مع تحصينها وتزويدها بحاميات قوية لدفع غارات المغيرين عليها .

ثالثا : اهتمام جستنيان بتكوين جيش قوى يمكنه القيام بالفتوحات الخارجية، مثل غزو افريقية ، والدفاع عن الحدود الأرمينية ، ومواجهة خطر الحروب الفارسية ، والعمل على حفظ الأمن والنظام وقمع الثورات فى الداخل . وكان جيشه يتألف من المشاة ومن الفرسان المسلحين بالرماح والقسى ، ومن مختلف الأجناس . ففيه العناصر الجرمانية وكتائب أخرى عربية ومن آسيا الصغرى، فضلا عن عدد كبير من أبناء الامبراطورية نفسها . وأمكنه بفضل هذه الكتائب تحقيق الكثير من الانتصارات الحربيـــة .

رابعا : ومن الناحية التشريعية،نجد أنه عمل على تنفيذ المشروع العظيم الذى كان قد بداه من قبل الامبراطور ثيودوسيوس . وهو جمع وتسجيل مجموعة القوانين الرومانية القديمة المعروفة باسم **Corpus Juris Civilis** وترتيبها وتبويبها خوفا عليها من الضيـــاع .

خامسا : وجه جستنيان عناية خاصة الى البناء والتعمير الذى يعتبر جزءا أساسيا من سياسته . فشيد القصور والحصون والكنائس التى لاتزال بقاياها ماثلة الى اليوم . وهى تعتبر تحفا فنية رائعة ومن الفـــن البيـــــزنطى فى القسطنطينية وبقية أجزاء الامبراطورية الأخرى . نضرب مثلا لذلك بكنيسة

سانت صوفيا وكنيسة الرسل المقدسين ودير سانت كاترين فى طور سينـا الذى توجد بداخله مجموعة من التحف والصور والأيقونات والمخطوطات التى لاتقدر بمـال .

سادسا : أما سياسته الدينية فتتلخص فى محاولة القضاء على النزعـة المذهبية الانفصالية التى بدت واضحة بين الكنائس المسيحية . وتتصل هذه الفكرة بسياسته العربية . أى أنه يريد توحيد المذهب المسيحى فى جميـع البلاد المسيحية توطئة لفرض نفوذه السياسى والحربى وتدعيمة فى هذه البلاد.

مدى نجاح جستنيان فى تحقيق سياسته أو اخفاقه فيها :

لقد أصاب جستنيان قدرا كبيرا من تحقيق سياسته الداخلية والخارجية وقد أفاد من حرية ضد الفرس التى سنتعرض لها بالتفصيل فيما بعد . اذ أنها كانت اول تجربة عملية اختبر فيها قوة جيشه . وادرك ان لديه قائدا من خيرة القواد العسكريين هو بليزاريوس الذى أحرز له النصر فى موقعة دارا ،والذى تمكن من اخماد حركة الثوار التى كادت أن تطيح بجستنيان وعرشه . ونعرف عن هذا القائد أنه من تراقيه ، وأنه اخذ بتدرج فى مناصب الجيش حتى أصبح حاكما على دارا وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره . وكان سكرتيره هو المؤرخ بروكوبيوس المعروف . كما كان يتمتع بنفوذ كبير فى البـلاط الامبراطورى بسبب زواجه من انطونينا Antonina وصيفة الامبراطورة تيودورا وكاتمة اسرارها . ولكن هذا العطف الذى تمتعا به فى حياة ثيودورا وزوجها سرعان مافقداه فى سنى حياتهما الأخيرة بعد وفاة الامبراطورة .

وكيفما كان الأمر ، فبعد أن استراح جستنيان من مشاكله مع الفرس، بدأ مشروعاته الحربية العظيمة التى كان يرمى من ورائها استرداد ولايـات الامبراطورية القديمة ، ففى يوليو سنة ٥٣٣ أرسل قائده بليزاريوس على رأس الكتائب البيزنطية التى كانت تبلغ عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان للنزول على سواحل افريقية الشمالية لاستعادة تلك المقاطعة

الرومانية القديمة الى حظيرة الامبراطورية . وكانت الظروف مواتية لتحقيق نصر كبير . اذ كان على مملكة الوندال Vandals في افريقية حاكم عسكري لايتمتع بأى كفاءة يسمى جليمر Gelimar كما كان الوندال قلة بالنسبة لرعاياهم وكفارا في نظرهم . فمكن هذا بليزاريوس من وضع يده على افريقية الشمالية . فنزل في طرابلس شرقي مملكة الوندال ، وسلمت اليه في الحال . وكان اول احتكاك بينه وبين الوندال على بعد بضعة أميال من قرطاجنة ، حيث هزمهم شر هزيمة ، وسقطت المدينة في يده في اليوم التالي . وقام جليمر بمحاولة لاستعادة المدينة تحطم فيها جيشه . وبذلك انتهت دولة ابرابرة في افريقية التي استمرت ١٠٤ سنة منذ أن دخلها جنسريك الوندالي Genseric وكان سرور الأهالي الرومان شديدا بالقضاء على سادتهم الجرمان وعودة ولايتهم الى حظيرة الامبراطورية . وعاد بليزاريوس الى القسطنطينية عودة القائد المظفر ، وهو يحمل اسراه وأسلابه . ومما يذكر انه كان في صحبة القائد البيزنطي في هذه الحملة الكاتب بروكوبيوس الذى ترك لنا وصفا كاملا لغزوات سيده .

وفي سنة ٥٣٥ كانت مملكة القوط الشرقيين في ايطاليا قد وصلت الى حالة شديدة من التفكك ، اذ مات سنة ٥٢٧ ملك ايطاليا وفاتحها ثيودوريك العظيم Theodoric ومات حفيده اثيلاريك Athelaric سنة ٥٣٣م ، وبعد ذلك انتقل الحكم الى أمه المسماة امالاسنته Amalasuntha فتزوجت من أحد أقاربها ويسمى ثيوداهات Theodahat . ولكنه كان ضعيفا خاملا يؤمن بالسحر والخرافات ، غير محبوب من رعاياه بسبب رذائله وسوء معاملته لهم . ولهذا لم يكن في استطاعته الاعتماد على اخلاصهم له في أى حرب من الحروب . يضاف الى ماتقدم ، أن القوط الشرقيين كانوا يؤلفون قلة لاتذكر بين الرعايا الايطاليين . وكانت العداوة بين الفاتحين والمحكومين ، على الرغم من المحاولات التى بذلها ثيودوريك لايجاد نوع من

التآلف بين القوط والورمان . وبجانب ذلك وجدت عداوة دينية جعلت الأمل فى التقارب بينهما يكاد يكون مستحيلا . فقد كان الايطاليون يدينون بالمذهب الكاثوليكى الذى تدين به كنيسة روما ، بينما اعتنق القوط المسيحية على المذهب الأرثوذكسى الذى اعتبر بدعة وهرطقة فى نظر كنيسة روما . وأخيرا فقد بدأ حماس القوط يخبو تدريجيا،كما قلت شجاعتهم وقوتهم بعد انغماسهم فى حياة اللهو والترف التى تهيأت لهم نتيجة لتحضرهم بالحضارة الرومانية التى أصابها هى الأخرى الانحلال فى أخريات ايام الرومان .

كل هذه الظروف المواتية اغرت جستنيان بالهجوم على ايطاليا . ولعل نجاحه فى القضاء على الوندال فى افريقية قد شجعه لتكون المملكة الجرمانية الثانية الواقعة على حده الغربى هى هدفه الجديد . فأعلن الحرب على الملك ثيوداهات فى صيف ٥٣٥ . ونزل بليزاريوس فى صقلية على رأس ثلاثة آلاف فارس رومانى . ومن العجب انه بالرغم من قلة هذا العدد ، فقد اندحرت امامه جحافل القوط البالغة على ماقيل ١٥٠ الف جندى . وسقطت الجزيرة فى قبضة القائد الرومانى . وبعد ذلك عبر بليزاريوس البحر الى ايطاليا ، وسقطت نابلى فى قبضته . ثم واصل طريقة الى روما . وفى ديسمبر من سنة ٥٣٦ استسلمت عاصمة العالم القديم دون أى مقاومة .وفى تلك الأثناء كان القوط قد ثاروا على زعيمهم ثيوداهات وذبحوه ، واختاروا ملكا عليهم شخصا يدعى وتجز Witiges الذى توجه على راس جيش قوطى يبلغ أكثر من مائة الف جندى ، وحاصروا روما وحاولوا اقتحامها بشتى الوسائل دون جدوى . وضربت القوة المدافعة فى الداخل برئاسة بليزاريوس أروع الأمثلة فى البطولة فى صد المهاجمين ، حتى لقد اضطر القوط الى رفع الحصار عن المدينة الذى دام سنة وسبعة ايام . وكان بليزاريوس قد تلقى مددا جديدا من حوالى سبعة آلاف محارب فاتجه بجيشه نحو رافنا عاصمة القوط وحاصرها فى سنة ٥٤٠ . ولما اوشك اهلها أن يموتوا جوعا ، فتحوا له أبواب المدينة فدخلها دخول المنتصر . وابحر عائدا الى القسطنطينية يحمل معه الكنوز

والاسلاب وأسيره الملك القوطى وتجز ، مثلما فى المرة السابقة تماما .

اعتقد القائد الرومانى انه أتم مهمته فى ايطاليا ، وأنه بات بوسع مندوبيه القضاء على آخر بقايا المقاومة القوطية فيها ، اذ كانت الحاميات القوطية لاتزال تحتل بافيا وفيرونا . وقد اتجهت الأمور فى صالح القوط الذين وجدوا لهم فى شخص يسمى بديله Bodenla الذى انتصر على قواد جستنيان عندما حاولوا الاستيلاء على فيرونا وبافيا . وأخذت مدن ايطاليا الوسطى والجنوبية تسقط تباعا فى قبضتهم . وهكذا أصبحت معظم مدن ايطاليا فى أيدى بديله . بينما احتفظ رجال الامبراطورية ، بالمناطق المحيطة بروما ونابلى واترانتو ورافنا . ثم مالبثت نابلى أن ضاعت منهم فى سنة ٥٤٣ ، وأصبح بديلة على أبوات روما نفسها ومعه ١٥ الف مقاتل . حينئذ اضطر جستنيان الى اعادة بلبزاريوس لوقف تقدم القوط ، وحتى لاتضيع جميع فتوحاته الايطالية . ولكن القائد البيزنطى عجز عن انقاذ روما . وفى احدى الليالى فتح بعض الخونة أحد أبواب المدينة لبديله ، فدخله هو والقوط الذين معه ، وحطم الأسوار والقلاع ، وجرد القصور ودور السلاح من محتوياتها ، وكان ذلك عام ٥٥٠م .

وحكم بديله ايطاليا لمدة ١١ سنة ، بينما كان القائد بليزاريوس يقاوم فى الميدان الى أن استدعاه جستنيان لمواجهة مؤامرة من مؤامرات البلاط . وسرعان ماجمع الامبراطور جيشا كبيرا على رأسة قائده الشهير نارسيس Narses وهو أحد خصيانه الذى تمكن من الاستيلاء على روما ثانية ، وأعاد ايطاليا الى حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية .

واذا كانت جيوش جستنيان قد اتجهت أولا الى افريقية ، وثانيا الى ايطاليا ، فانه لم يلحقه أى تعب ، بل سرعان ماأعد العدة للقيام بغزو جديد فى الغرب . اذ اتجهت جيوشه هذه المرة الى شبه جزيرة ايبيريا فى اسبانيا ، والتى كانت مقاطعة رومانية فيما مضى ، مستغلا فرصة قيام حرب أهلية فى

البلاد . وانتهى الأمر باقتطاع الجزء الجنوبى الشرقى حوالى عام ٥٥٠ من القوط الغربيين ، وضمه الى الامبراطورية البيزنطية أيضا بعد أن اقام فيـــه ولايه رومانية جعل عاصمتها قرطبة . وقد ظل حكم خلفاء جستنيان فى هذه المنطقة حتى عام ٦٢٣م .

ولمتساءل أن يقول : ماهى الأسباب التى تكمن وراء هذه الانتصارات الباهرة التى احرزها جستنيان ؟ يرجعذلك الى حالة الضعف التى آلت اليها تلك المقاطعات قبل الغزو من ناحية ، والى الظروف التى احاطت بجيوشـــس جستنيان البيزنطية من ناحية اخرى . فقد قام بتعديل أنظمتها ، وأدخل الخطط المستحدثة على أساليب الحرب والقتال فيها . فبينما كانت الجيوش المعادية للبيزنطيين تعتمد على الأسلحة الرومانية العتيقة وأهمها السيف القصير ، استعمل جنود بليزاريوس القسى والسهام ليصوبوها الى قلوب أعدائهم عن بعد فيوقعوا الخيل فى صفوفهم قبل أن يصلوا اليهم بسيوفهم الطويلة للقتال يدا بيد . كذلك قسم القائد بليزاريوس جيشه الى فرق صغيرة من الفرسان ليضمن سرعة تحركاتهم فى تنفيذ خططهم . هذا ، بينما كانت جيوش البرابرة تنزع الى ضخامة العدد والى نظام المشاة ، فاصبحت عبارة عن كتل ثقيلة بطيئة الحركة لايمكنها الصمود أمام تلك الكتائب البيزنطية الخفيفة الحركة التى تحارب بالقسى والسهام من على الخيل .

سياسة جستنيان الخارجية فى آسيا :

هذا ، فيما يتعلق بنجاح الجيوش البيزنطية فى اوروبا وافريقية . ولكن هذا النجاح لم يكن مطردا . فجيوش جستنيان لم تفلح فى آسيا بقدر ماافلحت فى كل من اوروبا وافريقية . ويدل على ذلك حروبه مع الفرس .

وقد شغل خلال السنوات الأولى من حكمه فى حرب مريرة مع قباذ ملك فارس . وسببها الجوهرى البعيد هو تنافس دولتى الفرس والروم فى نشر

نفوذهما على الدول الصغيرة الواقعة على حدودهما الشمالية بقرب البحر الأسود . اما سببها المباشر ، فهو اقدام جستنيان على تعزيز حصونـــــه الواقعة على حدود بلاد الجزيرة ، مثل حصن دارا **Dara** المجاور للحدود الفارسية . وأعلن ملك الفرس الحرب على جستنيان سنة ٥٢٨ — أى بعد سنة واحدة من توليه الحكم — ومع أنها كانت حربا دامية ، الا انها لم تكـــن حاسمة ، ولم يتمكن أحد الطرفين من احراز نصر حاسم على خصمه . وقد صد جستنيان هجمات الفرس ، والحق بهم هزيمة كبيرة عند دارا سنة ٥٣٠ . وبعد موت قباذ عقد كسرى الصلح مع جستنيان الذى نص على اعادة الحدود الى ماكانت عليه من قبل .

ولقد أدخلت فتوح جستنيان فى ايطاليا وافريقية الفزع فى قلب كسرى ملك الفرس . وقلنا انه أنهى الحروب الداخلية التى قامت بين والده قباذ وبين جستنيان فى بداية حكمة بمعاهدة نصت على اعادة حدود الدولتين الى ماكانت علية قبل الحرب . ولكنه خشى من هجوم مماثل قد يقوم به الامبراطـــــور البيزنطى لاستعادة الولايات التى كانت تابعة للدولة الرومانية فيما مضى . لذلك رأى كسرى أن يبادر بتوجيه الضربة فى وقت كان فيه الجيش الرومانى لايزال مشغولا فى الغرب ، واعلن الحرب سنة ٥٤٠ ، وانقض على سورية الشمالية ،وهدفه من ذلك توجيه ضربة قوية الى انطاكية تنتهى بسقوطها فى قبضته . وبعد قتال مرير استولى كسرى على المدينة حيث أعمل فيها جنوده السلب والنهب والتخريب .

ولقد أثارت هذه الكارثة جستنيان ، فوجه جميع قواته الى الحـــدود الواقعة على الفرات ، وعين بليزاريوس قائدا لها . ومع ماشتهر به هـــذا القائد من المهارة والحذق فى عظمته الحربية ، فقد فشل فى استرداد تلك المدينة من الفرس . ولكن كسرى لم يتمكن فى ذات الوقت من احراز أى نصر حاسم على خصمه مثل الانتصارات التى امتازت بها حملته الأولى . وظلت الحرب

سجالا بين آل فارس والبيزنطيين فترة من الزمان دون جدوى ودون أن يحرز فيها اى من الفريقين نصرا حاسما على خصمه . وقد اضطر الامبراطور جستنيان فى النهاية الى تخليص تلك المدينة البيزنطية الطابع من نير الفرس بمعاهدة ابرمها مع كسرى تعهد بمقتضاها أن يدفع الجزية للأسرة الساسانية نظير اخلائها مدينة انطاكية التى عادت الى حظيرة بيزنطة . وبالرغم من ذلك، فقد اعتبر كسرى انه حاز شرف الانتصار فى حربه ضد بيزنطة التى خرجت من هذا الصراع فى حالة شديدة من الضعف والسوء . وساعدت عدة ظروف داخلية على زيادة الحالة سوءا .

لقد اجتذبت امبراطورية جستنيان الانظار اليها ، وكان المعاصرون له يعتقدون بأن الامبراطورية الرومانية القديمة قد تم احياؤها من جديد . وكيف لا ، وقد تمكن بحصافة قائده بليزاريوس ومهارة الساسة الذين اشركهم معه، من استرداد الحدود الشرقية وغزو افريقية وأجزاء من اسبانيا ، بينما انهارت مقاومة القوط الشرقيين فى ايطاليا ، واصبح البحر المتوسط مرة ثانية بحيرة رومانية على حد قول أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو ستيفن رانسيمان **S. Runciman**

وبالرغم مما سلف ، فان الباحث المدقق يدرك أن هذه الامبراطورية مع كل عظمتها وازدهارها ، لم تكن الا شبحا ضعيفا للامبراطورية الرومانية القديمة . فان الجهود الجبارة التى بذلها جستنيان فى سبيل تحقيق سياسته فى هذا الميدان الخارجى قد استنفذت موارد الدولة وتركت خزنتها خاوية .بل انه أخذ يتعسف فى فرض الضرائب على الولايات عندما تضطره الظروف للقيام بحرب فى ايطاليا أو ضد الفرس . فقد افقرت تلك السياسة الناس وانهكت قواهم ، حتى اننا نلاحظ انه فى اخريات عهد جستنيان تبدأ الكوارث بالنزول على بعض مناطق الامبراطورية ، فتحدث القحط والمجاعة ، وينتشر الوباء ، ويعم اليأس والضيق . فقد كانت ايطاليا وافريقية قبل غزوهما فى حالة يرثى لها من الفقر نتيجة لغارات البربريين عليها واستيطانهم فيهما ،

مثل القوط والوندال وقبائل البربر ، فقل انتاجهما قلة محسوسة . امـــا سورية وارمينية فقد أصبحتا الى حد كبير تحت رحمة الفرس الذين أخـذوا يغيرون عليهما من وقت لآخر . وينزلون الهلع بالأهلين فيهما . واذا انتقلنا الى مصر فنجد انها كانت تعج بالاضطرابات المذهبية التى أدت فى نهاية الأمر الى اتساع شقة الخلاف بين أهلها وبين الامبراطورية نفسها . أما شبه جزيرة البلقان من الخيرات التى كان الأباطرة يعتمدون عليها فيما مضى . يضاف الى خاوية من الخيرات التى كان الأباطرة يعتمدون عليها فيما مضى . يضاف الى ماتقدم ، ذلك الوباء المريع الذى انتشر فى القسطنطينية سنة ٥٤٢ وماتلاها من السنين ، وامتد اثره حتى اكتسح الامبراطورية كلها . وهـو لا يقـل فى خطره عن الموت الأسود فى انجلترا والغرب الأوروبى . وكان اهم اسباب اضعاف الامبراطورية فى النصف الثانى من القرن السادس ، فكان ضحاياه يسقطون بالآلاف . بينما تعطلت الأعمال والمصالح ، وأصبحت البلاد خرابا لايؤمها أحد . وقد أصيب جستنيان نفسه بهذا المرض ، وان كان قد أبل منه . ولاشك أن النقص المتزايد فى عددالرجال الذين ذهبوا ضحية هذا الطاعون، قد حد من نشاط جستنيان العسكرى الى حد بعيد ، بالاضافة الى العوامل السالفة .

مما سبق نجد أن السنوات الأخيرة من حكم جستنيان اقترنت بالفقـر والضعف والمجاعة ، وناءت الامبراطورية بأعباء المهمة الضخمة التى القاها جستنيان على عاتقها ، حتى أنه بعد موته سرعان ما زالت امبراطوريته من الوجود ، فانكمشت حدودها الشرقية الى آسيا الصغرى والبلقان ، واستولى اللمبارديون على ايطاليا سنة ٥٦٨ م ، وقامت الدولة العربية الفتية فى أوائل القرن السابع الميلادى بفتوحاتها الواسعة أيام الامبراطور هرقل ، ووضعت يدها على سورية ومصر وشمال افريقية فالأندلس بأكملها . وهكذا وضح أن المحاولات اليائسة التى بذلها جستنيان فى سبيل اعادة مجد الامبراطوريـة الرومانية القديمة ، والتى جند لها كل الامكانيات العسكرية والمادية والبشرية

فى دولته ، لم تؤت ثمارها . اذ سرعان ماانهارت الامبراطورية التى كونها بعد موته بفترة وجيزة .

الحضارة فى عهد الامبراطور جستنيان

اهتمام جستنيان بفن البنــاء :

ابقى آثار جستنيان لم تكن امبراطوريته الواسعة المترامية الأطراف ، فهذه زالت من الوجود بنفس السرعة التى ظهرت بها . ولكن كانت هناك ناحية من نواحى حياة جستنيان تستحق الملاحظة والتقدير ، ونعنى بهــا نشاطه الفائق فى ميدان البناء والتعمير الذى يتجلى فى عشرات الكنائــس والأديرة والقلاع والمستشفيات والأروقة ودور القضاء . ولايزال عدد كبير منها باقيا يدل على دقة العمل وعلى ذوق فنى رفيع . ومما يذكر انه أقام مبانيه ليس فقط فى القسطنطينية وانما أيضا فى باقى انحاء الامبراطورية المنعزلة مثل رافنا وكباد وكيا وغيرهما . وجدير بالذكر أن المؤرخ بروكوبيوس وضع مؤلفا ضخما يدور كله حول موضوع مبانى جستنيان . والحق أن هـــذا الامبراطور كان بناء لايعرف الكلل أو التعب طريقا الى نفسه .

وتعتبر كنائس جستنيان هى احسن ماعرف من مبانيه ، ونلمس فيها تطورا ظاهرا فى فن عمارة الكنائس الشرقية . اذ كان النمط المستعمل حتى زمنه منقولا رأسا من النماذج الرومانية القديمة ، وهى اما نمط الكنيســـة المستديرة ذات القبة ، أو نمط الكنيسة المستطيلة ذات الزوايا والسقــف المقبب . أما جستنيان فقد اتخذ طريقة الجمع بين التصميم الشبيه بالصليب وبين قبة كبيرة جدا . وتعتبر كنيسة سانت صوفيا الشهيرة بالقسطنطينية ، والتى تعرف أيضا بكنيسة الحكمة المقدسة ، أحسن نموذج لهذا الطراز . فقد قام بتصميمها وبنائها للامبراطور المهندس انثيميوس **Anthemius of Tralles** فجاءت آية رفيعة من آيات الفن والمعمار البيزطى من حيث عظمتها وجمالها وحسن تنسيقها ، وما احتوته من النوافذ العديدة والقباب والأروقـــة ذات الأعمدة الهائلة من الرخام ، والرسوم الجميلة ، والفسيفساء ذات الألــوان الخلابة الزاهية . وقد أسهب بروكوبيوس فى وصفها ، فقال ان منظرها يبدو

من أروع المناظر ، وانها تطل بارتفاعها الشاهق على المدينة ومبانيها فتكسبها رونقا وبهاء ، ويمتد التناسق والانسجام الى كل جزء فيها ، ويغمرها الضوء من كل جانب . ثم ينتقل الى وصف فخامة السقف المذهب والأعمدة وقطع الرخام وكنوز الأوانى الذهبية والفضة ، والجواهر التى تزدان بها تلك الكنيسة .

وفى هذا الصدد يقول المؤرخ ستيفن رنسيمان فى كتابه « الحضارة البيزنطية » ، انه الى جانب كون الامبراطور فاتحا ومصدر القانون ، فقد كان ايضا عنوان الجلال والعظمة . ولهذا الغاية عمل جستنيان بجد على تجميل عاصمته وجعلها اكثر فخامة . لقد كان بناء لايكل ولايتعب ، ومن اجله أقيم أعظم نصر للفن الهندسى فى العالم ، ونعنى بذلك كنيسة سانت صوفيا ، وهى كنيسة الحكمة المقدسة والمعبد الذى جعل جستنيان يعتز ويفخر بتفوقه على سليمان ذلك الملك المشرع .

كذلك شيدت ثيودورا زوجة جستنيان كنيسة الرسل المقدسين Church of the Holy Apostles وقد اندثرت تماما ، وأقيم فى موضعها مسجد محمد الثانى . وكانت هذه الكنيسة تختلف فى تصميمها عن كنيسة سانت صوفيا . ومن اهم آثار جستنيان والامبراطور ثيودورا فى مصر دير القديسة كاترينة فى شبه جزيرة سيناء . وجدير بالذكر أن مجموعة الأيقونات التى توجد بهذا الدير لايوجد مثيل لها فى العالم ، خاصة اذا عرفنا أن حركة محطمى الأصنام فى القرن الثامن ، والتى لم تسلم منها كنيسة أو دير فى العالم المسيحى ، لم تمتد الى دير سانت كاترين لانعزاله ، فحفظت لنا تراثا له قيمته الأثرية والتاريخية والفنية التى يصعب تقديرها .

وتتجلى عظمة جستنيان أيضا فى بناء الحصون والقلاع والأبراج والأسوار ، وفى تحصين الحدود التى كانت توجد بها الكتائب المكلفة بحمايتها ويقال انه أقام على حدود الدانوب فقط ما يزيد عن ٦٠٠ قلعة لحماية دولها من البرابرة . ولكن هذه المنشآت زال معظمها ، وان كان قد اشار اليها بروكوبيوس فى كتاباته .

هذا عن المبانى العامة التى أرهقت ميزانية الدولة . ويشير الكاتب برايس Pryce فى مؤلفه « القسطنطينية فى عهد جستنيان » Constantinople In the Age of Justinian الى المبانى الخاصة ، فيقول ان قصور الأغنياء فى القسطنطينية كانت تتألف من طابقين . وكان المنزل يبنى عادة فوق قطعة مستديرة من الأرض ، وتحيط به الينابيع والأشجار . أما منازل الطبقة الوسطى والمعدمة ، فكانت عادة عبارة عن كتل من الدور المرتفعة التافهة . وكانت القصور الضخمة تمتد على طول شواطىء البسفور .

أما سكان العاصمة فقد كانوا أيام جستنيان اكثر من سكانها اليوم . وكانوا من أجناس شتى متباينة تضم عناصر من اللاتين والاغريق والآسيويين، فضلا عن برابرة الشمال . ويشير برايس الى الملابس وأنواعها وقتذاك فيقول انها كانت تختلف عن ملابس اليونان القدماء ، وان الرجل لم يضع شيئا فوق رأسه ، بعكس المرأة التى كانت تلبس قبعة ، وان الاهالى من الجنسين كانوا يهتمون بالتحلى بالمجوهرات ، ويفضلون الالوان الجميلة الزاهية والمنسوجات الثمينة التى كانوا يستوردنها من بلاد الفرس ومن الصين وكانت ملابس الأسرة الامبراطورية محلاة بالذهب .

وقد تركت المرأة بدون تعليم ، اذ كان مكانها الطبيعى هو المنزل الى أن تتزوج . وكان سن الزواج بالنسبة للفتاة هو ١٤ أو ١٥ سنة ، ويقوم والداها أو ولى امرها باختيار رجلها . وكانت طقوس الزواج ومراسيمه تشبه التقاليد الرومانية القديمة ، كما كانت العروس لاترى زوجها الا بعد حفلة الزفاف . ولم تتبع الطقوس المسيحية فى اجراءات الزواج الا متأخرا اعتبارا من القرن التاسع ، أى بعد عصر جستنيان بفترة غير قصيرة . كما كانت هناك قوانين تحد من الطلاق ويبدو فيها الأثر المسيحى واضحا . وعلى العموم ، كانت الحياة الاجتماعية تتميز بالجد والصرامة ، ذلك اذا استثنينا الألعاب التى كانت تقام فى ملعب القسطنطينية الكبير المعروف بالهبودروم . كما كان الذهاب الى الكنيسة فى أيام الآحاد والأعياد الرسمية يعتبر من وسائل الترفيه عن النفس .

ولم تبلغ الثقافة مستوى عاليا ، وانحصر الانتاج الفكرى فى أعمال الآباء المسيحيين . واما التعليم فكان على ماكان عليه أيام روما القديمة . وكانت اللغة اللاتينية لاتزال حتى أيام جستنيان لغة القصر الرسمية . وقد استخدمها الامبراطور فى اصدار تشريعاته ومجموعة قوانينه . ومع ذلك ، كانت اليونانية هى اللغة الشائعة فى العاصمة . وفى أواخر حكمه بدأ فى اصدار القوانين باليونانية التى حلت محل اللاتينية واصبحت لغة الحكومة الرسمية .

وانتعشت حركة التجارة أيام جستنيان ، وقد أفسحت الأعمال والمشروعات البنائية العظيمة التى قام بها ، مجال العمل امام الآلاف من العمال . وكانت تجارة الامبراطورية تتركز فى العاصمة لما لها من ميزات جغرافية فريدة . وقد جعلت حركة التبادل التجارى بيزنطة على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، وخاصة الصين والهند وسيلان . وشاهد عصر جستنيان ادخال صناعة الحرير الى أوروبا،والتى كانت ترد اليها من الصين عن طريقين هامين أحدهما برى والآخر بحرى .

* واذا نظرنا الى الحالة الاقتصادية لطبقات الشعب ، نجد أن النبلاء كانوا يعيشون فى ثراء زائد ، وقد عاشوا فى قصورهم عيشة اللهو والترف ، ويقوم على خدمتهم آلاف العبيد . ولم تصل حالة الطبقات الفقيرة الى درجة كبيرة من السوء . اذ كان افرادها موضع عناية الكنيسة ، والمسئولين فى الدولة . فانشئت اماكن الاسعافات ، وأقيمت الملاجىء والمستشفيات لخدمة الفقراء بالمجان . أما العبيد،فكانوا سلعا تباع وتشترى.ومع ذلك كانت حالتهم تتخذ طريقها نحو التحسن المستمر . وكان للكنيسة اثرها الملموس فى تحريرهم من ربقة العبودية والرأفة فى معاملتهم . الا أننا يجب أن نفهم جيداً أنه بينما كانت هناك اقلية ضئيلة تنعم فى نعماء الترف ، كانت الأغلبية الساحقة فى حالة تدعو الى الرثاء . وكانت الضرائب المفروضة على السكان مرتفعة ، كما كانت الطريقة التى اتبعت فى تحصيلها عن طريق المحصلين الامبراطوريين سيئة للغاية ، وقد أثارت السخط والاستياء . وكان يوحنا الكبادوكى وزير المالية فى عهد جستنيان مكروها من الجميع . وكان لهذا اثره فيما آلت اليه الأمور فى السنوات الاخيرة من حكم جستنيان وبعد موته مباشرة .

أما فيما يتعلق بتشريعات جستنيان وقوانينه ، يعتبر ما كتبه كل من باركر Barker في مؤلفه « الفكر الاجتماعي والسياسي في بيزنطة » ، وجورج استروجورسكي G. Ostrogorsky في مؤلفه « تاريخ الدولة البيزنطية » ، من افضل ما كتب مركزا في هذا الموضوع .

المعروف أن جستنيان كان قد استقر عزمه على اعادة تنظيم وتنسيق القوانين الرومانية ، وعمل حصر شامل لها بما يتلائم والظروف الجديدة التي استجدت على العالم الأوروبي وقتذاك ، وبصفة خاصة في الجزء الشرقي منه . وكانت هذه الفكرة ترتبط ارتباطا وثيقا بسياسته الخارجية التي استهدفت احياء دولة القياصرة القدماء . فشكل عددا من اللجان برئاسة مشرعه تريبونيان للقيام بهذه المهمة . وقد أثمر عمل اللجنة عن اصدار مجموعة من القوانين المدنية باللغة اللاتينية عام ٥٢٩ م ، والتي عرفت باسم «Corpus Jur.s Civilis Justiniani» وهي تعتبر ، في الواقع ، من الأعمال الخالدة التي تمت في عهد جستنيان ، ومن أهم آثاره وأبقاها . وقد وضعت هذه المجموعة على أساس تشريعات من سبقوه ، من أمثال جريجوريانوس وهيرموجينيانوس وثيودوسيانوس . هذا ، فضلا عن الأباطرة المتأخرين ومؤلفات كبار المشرعين القدامى . وهكذا حفظ جستنيان للأجيال التالية آراء الثقات التي تدور حول المبادىء القانونية التي قامت على أساسها الدولة الرومانية القديمة .

وتنقسم المجموعة المذكورة الى ثلاثة أقسام هي : القسم الأول ويتضمن الأحكام الامبراطورية والمراسيم والقرارات والاستفتاءات القانونية الصادرة عن مجلس السناتو ، ويعرف هذا القسم باسم Senatus Consulta أما القسم الثاني فيعرف باسم « Institutes » وهو كتاب مختصر في أصول التشريع الروماني . أما القسم الثالث والأخير ، فيعرف باسم « شرح القوانين » أو « الديجست » Digest ويتضمن القوانين المدنية

بأكملها وعليها شروح الشراح والمفسرين . وقد ظهرت فى هذه المجموعة الأخيرة أصالة جستنيان الحقيقية ، اذ تعتبر اكبر الوثائق التشريعية التى تمخض عنها حكمه ، كما أنها تعتبر حجة فاصلة فيما يتعلق بكافة المسائل القانونية . ونشر جستنيان قبل موته بعامين مجموعة أخرى عرفت باسم « القوانين الجديدة » Navellae leges وهى عبارة عن ترجمة مختصرة لقوانين جستنيان باللغة اليونانية . ويظهر فى هذه المجموعة الاخيرة ادماج الروح المسيحية فى التشريعات الرومانية الوثنية القديمة .

مما سبق يتضح أن جستنيان أتم الكثير من الأعمال .فأصاب قدرا كبيرا من النجاح فى فتوحاته الغربية والافريقية ، واحيت تلك الفتوحات الحضارة الرومانية الغربية . كما جمل عاصمته حتى اصبحت مثلا للعظمة والفخامة . ووجه عناية خاصة الى المسائل الداخلية ، فأعاد اصلاح النظام الادارى وأحكامه . وكان فوق ذلك يتمتع بمقدرة وكفاءة كمشرع ، ويعتبر قانونه أثرا خالد الذكر لأحكام القضاء . وكان لسياسته الدينية أثرها فى انقاذ خلفائه الشرقيين من الاذلال الذى ألم بأباطرة الغرب فى حادثة كانوسا الشهتية عام ١٠٧٧ . ومع ذلك فقد سببت هذه السياسة للامبراطورية خسارة لا تعوض بعد أن اصبحت خزائنها خاوية من المال ، وازداد رعايا الامبراطورية ضيقا واستياء .

واذا أردنا أن نقيم جستنيان ، فليس هناك أفضل مما قاله ستيفن رنسيمان فى هذا الصدد . يقول رنسيمان ان جستنيان أتم كثيرا من الأعمال ، فجمل العالم ، وأمده بأدق مجموعة من القوانين ، واحيت فتوحاته الحضارة الرومانية فى الغرب . كما انقذت سطوته الدينية والعلمانية التى قام بتطبيقها خلفاءه الشرقين من الاذلال فى حادثة مثل كانوسا . ولكن كان من نتيجة ذلك درسان عظيمان . اذ وضح أنه لايمكن التوفيق بين الشرق والغرب ، وان المالية السليمةوالمنظمة هى أساس الحكومة الناجحة . وبتجاهل جستنيان

هذه القواعد سبب للامبراطورية خسارة لاتعوض ، بدا أثرها واضحا عقب موته مباشرة .

نهاية حكم بيت جستنيان :

لقد أثبتت الظروف والأحداث التى مرت بها الدولة البيزنطية والسياسه التى انتهجتها حتى ذلك التاريخ،أنه لا يمكن ارجاع عقارب الساعة الى الوراء. فقد اتجهت تلك الدولة بعد موت جستنيان سنة ٥٦٥ م اتجاها مباشرا نحو سياسة بيزنطية شرقية خالصة ، وليست رومانية على النسق القديم . وكان اولئك الأباطرة الذين ساروا بالدولة نحو ذلك الاتجاه الجديد الذى أملته الظروف والوضع الجغرافى والحضارى والزمنى للدولة الرومانية فى الشرق هم جستين الثانى وتيبريوس الثانى وموريس وفوكاس من بيت جستنيان .

ولكن يجب أن نعرف أن جستين الثانى Justin II (٥٦٥ — ٥٧٨) الذى خلف جستنيان على الكرسى الامبراطورى كان لايزال يعتقد أن باستطاعة الدولة الرومانية الشرقية أن تكون رومانية بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان . وكان يرى أنه من الضرورى مواصلة المشروعات التى بدأها سلفه العظيم ، ولم يدرك أن معظم هذه المشروعات لم تعد ميسورة التحقيق بسبب الظروف التى ألمت بالعالم الأوروبى عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط . ومن مواقفه التى يبدو فيها المغالاة انه منع الدول المتاخمة لبيزنطة والدولة العربية وبلاد الشام وشمالى بلاد العرب من نمع الجزية ، وحجته فى ذلك أن تلك الدول يجب أن تبقى على ولائها وخضوعها للدولة البيزنطية ، وليس مقابل مبلغ معين من المال يذهب الى خزينة الامبراطورية . بل انه كان يدفع جزية لهذه الولايات ليضمن ولاءها ومساعدتها له فى صد المغيرين على البلاد . ومن ذلك ايضا موقف الامبراطور جستين الثانى من الدولة الفارسية عندما أخل بمعاهدة سلفه جستنيان معها . وكان رد الفعل هو زحف الفرس نحو أراضى الدولة البيزنطية رغبة منهم فى المحافظة على الشروط التى

تضمنتها المعاهدة المشار اليها . وترتب على ذلك أن ألحقت الجيوش الفارسية هزيمة شديدة بالقوات البيزنطية . وكانت صدمة قوية لجستين الذى لم يدر بخلده اطلاقا أن يحدث مثل هذا فى يوم من الايام . وأصيب بخبل فى عقلـــه وأبعد عن العرش ، وأقيم وصى عليه يشاركه فى أعباء الحكم . ويبدو أن هذا الجنون الذى اصيب به جستين كان يرجع الى ماقبل تلك الكارثة التى حلت ببيزنطة . فان الكثير من تصرفاته كانت تدل دلالة واضحة على اختلال توازنه العقلى . ونذكر على سبيل التمثيل موقفه من قيام دولة اللمبارديين فى ايطاليا، والتى كانت قد أعيدت الى حظيرة الدولة البيزنطية بفضل جهود جستنيان . وكذلك موقفه من المسألة الدينية المزمنة باعتبارها من المشاكل التى تناولها الأباطرة السابقون بشىء كبير من التروى والحذر ، خشية حدوث فتنــه أو اضطرابات ، اذ تشدد ازاء أتباع المذهب المونوفيسى الذى ينادى بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وكان هذا المذهب قد أخرج زعيما من زعماء الحركة المونوفيسية الا وهو يعقوب بارديوس (البرادعى) الذى يطلق عليه العرب تصرفا اسم يعقوب السروجى .واخذ هذا الرجل يتنقل من مكان الى آخر فى أرجاء الامبراطورية داعيا لمذهبه . وأراد جستين أن يحسم الموقف بطريقة فيها شىء من العنف ، فدعا ذلك الزعيم الى القسطنطينية ليحل هذه المسألة التى طال عليها الزمن . ولكن يعقوب رفض الخضوع للامبراطور ، وازداد هو وأتباعه اصرارا على موقفهم ، وتمسكا بأهداب مبادئهـــم . والمذهـــب المونوفيسى هذا هو الذى يعرف بالمذهب اليعقوبى أو التوحيدى،تمييزاً له عن المذهب الآخر المعروف باسم المذهب الملكانى ، نسبة الى الملك ،أى الامبراطور البيزنطى . وهو المذهب الذى ينادى بأن للمسيح طبيعتين مستقلتين تماما عن بعضهمـــــا .

خلف جستين الثانى الامبراطور تيبريوس الثانى **Tiberius II** ولم يمتد به العمر لتحقيق مشاريعه ، اذ حكم من ٥٧٨ الى ٥٨٢ ، وكانـــت هناك كثير من المسائل على الدولة البيزنطية مواجهتها . وجاء بعده موريس

Mourice II (٥٨٢ — ٦٠٢) لتحقيق تلك المشاريع . وقد اتجه خلال سنى حكمه الى مواجهة الآفار والسلاف على حدود الدانوب ، والعرب فى بلاد الشام ودولة الفرس على الحدود الآسيوية والدولة اللمباردية فى ايطاليا . وفوق هذا وذلك ، المسألة الدينية العتيقة . ففيما يتعلق بالمسألة الفارسية، فقد شاءت الظروف أن تنتهى نهاية مرضية بوفاة كسرى الثانى واختلاف ابناء البيت الساسانى على الحكم ، ومساعدة موريس لأحد المطالبين بالعرش ، ونجاحه فى اقامته فى الحكم باسم كسرى الثالث . أما سياسة الامبراطور حيال الآفار والسلاف ، فكانت تتلخص فى دفعهم الى الدانوب ليجعل منه حدا فاصلا بين الدولة البيزنطية وبين جيرانها من البرابرة المتربصين بها الطامعين فيها فيما وراء هذا الحد المائى المنيع . ولتحقيق ذلك ارسل الجيوش لمطاردة هذه العناصر ، وأمر بابقاء هذه الجيوش على حدود الدانوب . وكان ذلك ضد رغبة الجند الذين كانوا مستائين من الامبراطور منذ بداية حكمه لاقتصاده فى نفقاتهم . فكل هذا سبب موجة من السخط والتذمر ضده ، وأعلن أحد قواد الجيش ويدعى فوكاس Phocas الثورة ، وتوجه الى العاصمة ، وهاجم الامبراطور موريس فى القصر وقتله هو وبعض ابنائه ، والقى البقية من أبناء اسرته فى السجن . وكان هذا آخر العهد بأبناء بيت جستنيان .

وعلى هذا تسلم فوكاس مقاليد الأمور فى البلاد بحق الاغتصاب وليس بحق الوراثة الشرعى،أو حتى بمباركة بطريق القسطنطينية أو بفضل الشعب وترتب على هذا الموقف الكثير من الفتن والاضطرابات فى شتى أرجاء الدولة خلال حكمه الذى يمتد من ٦٠٢ الى ٦١٠ م . وكان هدفها هو ابعاد فوكاس من العرش . وكان كلما نمى الى مسامعه أنباء فتنة أو ثورة ، كلما تمادى فى قسوته وبطشه وشكه فى المحيطين به والتنكيل بهم . وهكذا باتت البلاد مسرحا عجيبا للفتن والثورات ، فى وقت كانت فيه فى أمس الحاجة الى فترة من الهدوء والاستقرار تتيح لها التفرغ لمواجهة مشاكلها العديدة فى الداخل والخارج .

لقد كانت الكوارث عندما انتهت أسرة جستنيان تحيط بالامبراطورية من كل جانب . ففي الشرق كان خطر الفرس لايزال جاثما . وفي الشمال كان الآفار يضغطون على حدود نهر الدانوب ، تدفعهم من ورائهم قبائل السلاف الاشد بربرية منهم . وفي الغرب نزل اللمبارديون في ايطاليا المفككة ، بينمـــا سقطت اسبانيا في أيدي القوط الغربيين . ففي ظل هذه الظروف السيئة التي المت بالدولة البيزنطية ، انتهى حكم بيت جستنيان الذي اقتطع من تاريـــخ الدولة البيزنطية ٩٣ سنة . وبدأت أسرة جديدة في تاريخ بيزنطة عندما ابحر هرقل Heraclius ابن حاكم ولاية افريقية الى القسطنطينية كمنقذ للبلاد من الكوارث التي نزلت بها ، وأسس أسرة نسبت اليه واستمرت الوراثة فيها من سنة ٦١٠ الى سنة ٧١٧ ، أي أكثر من مائة عـــام .

ويلخص ن . هـ . بينز N. H. Baynes و هـ . ب . موس H B. Moss في الكتاب الذي أشرفا على نشره وشاركا في تحريـــره بعنوان « بيزنطة : مقدمة في الحضارة الرومانية الشرقية » ، أحوال الدولة البيزنطية عند نهاية بيت جستنيان ، في الفقرة التالية : « لقد قضت ثـــورة سنة ٦٠٢ على كافة المكاسب الزائلة التي حققها خلفاء جستنيان ، تلك الثورة التي كانت نذيرا باقتراب أحلك السنوات التي عرفتها الامبراطورية الرومانية حتى ذلك التاريخ . ولقد استاءت القوات البيزنطية من الآمال المعلقة على تمضية فصل الشتاء على ضفاف الدانوب ، فأعلنت الثورة . وانتخب فوكاس، قائد المائة الروماني الفظ ، امبراطوراً وقد عمل السيف في موريس وأسرته. وتلا ذلك عهد من الرعب كشف عن عوامل الضعف الحقيقيـــة الكامنـــة في الامبراطورية . اذ هددت الفوضى والاضطرابات الداخلية ، فضلا عن افلاس الدولة ، كيان السلطة المركزية نفسها. هذا ، بينما استولت القوات الفارسية، في سلسلة من الهجمات والاغارات على مقاطعات روما [الجديدة] النائية على الحدود ، وعاثت فساداً في ممتلكاتها الحيوية في الاناضول . وغدت هذه التركة الخربة التي خلفها جستنيان بادية للعيان أو بدا كما لو أن أيام بيزنطة قد أصبحت معدودة . »

الموضوع السابع

أسرة هرقـــــل

(٦١٠ – ٧١٧)

الامبراطور هرقل الأول (٦١٠ — ٦٤١)

حالة الدولة البيزنطية قبل اعتلاء هرقل العرش :

لنفهم الظروف التى اعتلى فيها هرقل عرش الامبراطورية ، يحسن بنا ان نلقى نظرة عاجلة الى الحالة التى كانت عليها بيزنطة قبلئذ . يذكر الأستاذ الفريد بتلر A. Butler فى كتابه « الفتح العربى لمصر » ان الامبراطورية وان بلغت فى عهد جستنيان من الرقى والازدهار مالم تبلغه فى عهد خلفائه من بعده ، وان كان جستنيان نفسه قد بذل قصارى جهده فى الرقى بها من كافة النواحى والوجوه ، الا ان عامل التدهور والانهيار كان ماثلا أمام عينيه وان لم يكن بدرجة ملحوظة او ملموسة فى فترة حكمه . ولكن بعد موته مباشرة سارت الامبراطورية سريعا نحو الانهيار . ووقف الأباطرة مكتوفى الأيدى امام هذا الانحلال لاحول لهم ولا قوة . فمن فساد خلقى الى آخر سياسى ، الى اضطراب مالى ، الى انتشار الأوبئة والامراض الفاتكة ، الى حدوث الزلازل والمجاعات . يضاف الى ذلك ، تبرم الشعب فى مدينة القسطنطينية وسخطه على اباطرته ، فأصبح يعزل من يشاء ويهب العرش لمن يشاء ، كما حدث عندما عزل الامبراطور موريس ووهب التاج لفوكاس، ذلك الرجل الأمى الذى ذاقت الامبراطورية فى عهده ضروبا شتى من التعذيب والاضطهاد . لقد كان قاسيا متوحشا جاهلا طائشا ، اخذت الامبراطورية فى ايامه تتحطم بسرعة عجيبة . اذ استهل عهده بسلسلة من أعمال القتل التى كان اسوأها قتل أرملة سلفه موريس وبناتها الثلاثة الصغار واحراق قائده الكفء نارسيس حيا .

واخذت الأخطار تهدد الامبراطورية من كل جانب ، فأعلن كسرى ملك الفرس الحرب على فوكاس فى اللحظة التى اعتلى فيها العرش . فاندفع الفرس الى سورية الشمالية ، واعملوا فيها التخريب ، ثم اتجهوا شمالا

واكتسحوا ولايات آسيا الصغرى . وفى سنة ٦٠٨ توغلوا عبر كبادوكيا حتى وصلوا الى ابواب خلقيدونية . هذا ، بينما اكتسح السلاف ولايات تراقية وايلليريا لان الجيش الاوروبى كان قد نقل فى ذلك الوقت عبر البسفور للوقوف ضد الفرس .

اما مصر ، وكانت اذ ذاك تابعة للدولة البيزنطية ، فقد عانت كثيرا خلال هذه الفترة من الزمن . اذ قامت فيها الفتن والثورات الدينية ، وازداد العداء والصراع بين الملكانيين واليعاقبة ، وهم الذين ذاقوا الأمرين على يد العامل الذى كان عليها من قبل بيزنطة . وكان الشغل الشاغل لهذا العامل هو جمع المال بشتى الطرق لارساله الى خزائن الامبراطورية فى القسطنطينية . وبالاختصار كانت مصر فى هذه الأثناء نهبا للفوضى والفتن التى لانهاية ولا آخر لها .

وكانت افريقية هى الجزء الوحيد من الامبراطورية ، الذى ظل بمناى من الاضطرابات التى صاحب عهد فوكاس . وكان يحكمها هرقل المسن . وفشلت كل محاولات فوكاس لعزله من منصبه . وتوالت الالتماسات من القسطنطينية الى هرقل تطلب المبادرة لانقاذ البلاد من براثن هذا الطاغية المستبد الذى كرهه الشعب وسأم حكمه واخذ يتحين الفرص للتنكيل به . ولما كان هرقل رجلا طاغيا فى السن ، فقد ترك الامر لابنه هرقل الصغير وابن اخيه نيكتاس Nicatas وقد وجد فيهما العون والنصح .

لقد اختلفت آراء المؤرخين المحدثين حول خطة هرقل المسن بخصوص الاستيلاء على القسطنطينية ، وتضاربت النظريات بشأنها . فكان لكل مؤرخ رايه وحجته وادلته التى يستند عليها . فنجد مثلا المؤرخ المعروف ادوارد جيبون E. Gibbon يذكر رواية غريبة مؤداها أن هرقل ونيكتاس اتفقا على ان يسير احدهما بحرا والآخر برا قاصدين العاصمة البيزنطية ، فمن سبق اليها جزاؤه ان يفوز بالتاج . وقد اخذ المؤرخ الفرنسى شارل ديل

بهذه الرواية . وادلى بنصيب وافر فى مناقشة هذه المسألة . وبعد أن فنـد أقوال كل من جيبون وديل ، ذكر أن تفاصيل الخطة التى أعدها هرقل المسن هى ان يبحر هرقـل الصغـير بسفنه ضـد القسطنطينيـة مباشـرة ، بينما كان على نيكتاس أن يتجه على رأس فرقة من الفرسان بحذاء الشاطىء الافريقى للاستيلاء على الاسكندرية ، واعلان الثورة من هناك ضد فوكاس فى الأراضى المصرية . اذ كان لمصر أهمية خاصة ، وان الاستيلاء عليها معناه قطع كل الامدادات عن فوكاس ، وهذا أمر له خطورته . وهناك شخص عاصر تلك الأحداث وكتب عنها يدعى يوحنا أسقف نقيوس **John Nikioh** نسبة الى مدينة عظيمة من مدن مصر السفلى ، وهى التى كان قد عين أسقفا عليها . ولهذا الاسقف كتاب فى التاريخ له أهميته لانه يلقى ضوءا شديدا على هذه الخطة والحوادث التى ادت الى سقوط فوكاس واعتلاء هرقل عرش الامبراطورية .

على أى حال ، عندما وصل هرقل الصغير بأسطوله الى الدردنيـل ، التجا اليه أهالى القسطنطينية ، وفتحت له المدينة ابوابها بعد صدام خفيف . وفرحت كثير من البلاد بمقدمه . ويمكن تلخيص هذه الأحداث فى كلمة ، وهى أن الخطة المرسومة تمت بحذافيرها . وقتل فوكاس واعلن هرقـل الابـن امبراطورا للدولة فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ٦١٠ م . هذا ،بينما لم يجد نيكتاس صعوبة فى الاستيلاء على مصر التى جعله هرقل نائبا عنـه فيهـا .

المشاكل التى واجهت هرقل خلال حكمه :

اذا اتجهنا بنظرنا نحو الامبراطورية البيزنطية فى هذه المرحلة من حياتها نجد ان عهد هرقل يعتبر حدا فاصلا فى تاريخها الطويل . ولانغالى إذا قلنا ان مشاكل الدولة من منتهى ذلك العهد الى أواخر ايام بيزنطة ، انمـا ترجـع اصولها وفروعها الى أيام حكم هرقل .

لقد وصل ذلك الرجل الى العرش بفضل ثورة شرعية ، أريد بها ارجاع

الأمور الى نصابها قدر الاستطاعة . ولكن هرقل لم يكن من سلالة البيـوت الامبراطورية ، فأبوه احد حكام الولايات فى ذلك العهد فحسب . ولذلك لـم تنته الثورة بقتل فوكاس وقيام هرقل . بل ان احد اصحاب الحق فى البيت الامبراطورى كان قد ساعد هرقل فى ثورته ، وكان يطمع يطمع هو الآخـر فى هـذا المنصب لنفسـه ، ونعنى بـه البرسيـق Priscus احد اقارب الامبراطور موريس . ولاشك أن هذه المشكلة قد اثرت فى هرقل فى سنة توليته العرش .

والى جانبها كانت هناك تركة مثقلة بالمشاكل التى تنتظر من الامبراطور الجديد حلولا حاسمة سريعة . فقد تسلم هرقل الامبراطورية وهى فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب . وكان اصلاح الامور يبدو ومستحيلا . كما كانت جميع الولايات التابعة لبيزنطة ماعدا افريقية ومصر والمنطقة المحيطة بالعاصمة قد اكتسحها الفرس والآفار والسلاف . أما الجيش فقد نقص عدده بسبب الحروب المتواصلة والهزائم التى حلت به فى آسيا الصغرى . أمـا الموارد المالية فكانت مشكلة قائمة بذاتها ، فقد كانت معدومة وباتت الخزانة خاوية . وهكذا دخل هرقل امبراطورية قد أقفرت تماما . ويقال ان فوكاس عندما تيقن من انتصار هرقل أمر فاذ بالأموال والكنوز التى جمعها هووسلفه موريس وولاته قد رميت كلها فى البحر . فكان هذا سببا فى وقوع الفاقة والعوز فى شتى أرجاء الامبراطورية .

الحالة عندما تسلم هرقل مقاليد الحكم فى البلاد :

وفى هذا يقول احد المؤرخين الأوروبيين الحديثين وهو استروجورسكى : « كانت الامبراطورية حطاما عندما تسلم هرقل مقاليد الحكم فيها ، وهو مـن اعظم من انجبهم التاريخ البيزنطى من القادة . فكانت البلاد منهكة اقتصاديا وماليا . ولم يعد الجهاز الادارى العتيق يؤدى وظيفته . كذلك لم يعد النظام الحربى القائم على الجند المرتزقة يقوم بمهمته ، نظرا لعدم وجود المال ، فضلا عن أن المصادر القديمة للقوى البشرية لم يعد من السهل الحصول عليها أو

الافادة منها . واكتسح الأعداء المقاطعات الحيوية الرئيسية من الامبراطورية.
اذ اقام السلاف والآفار فى البلقان ، بينما حصن الفرس انفسهم فى قلب آسيا
الصغرى . ولم يكن هناك ماينقذ الامبراطورية من هذا الانهيار سوى تجديدها
من الداخل ، وبعث الحياة فيها من جديد . »

على أية حال،ظل هرقل فى القسطنطينية الاثنتى عشرة سنة الأولى من
حكمه محاولا قدر الاستطاعة اعادة تنظيم الامبراطورية من هذه الفوضى ،
وحماية حدود تراقية وآسيا الصغرى . أما الولايات الأكثر بعدا فقد كان الأمل
فى انقاذها ضعيفا ومستبعدا .

الكفاح بين هرقل والفرس :

كانت المسألة الفارسية من اولى المشاكل التى واجهت هرقل منذ بداية
حكمه والتى لم تنته فى الواقع باقتلاع الامبراطور فوكاس . وكانت هناك
أسباب ظاهرية مباشرة ، واخرى حقيقية غير مباشرة لهذا الصراع . فقد
اتخذت فارس من مسألة قتل الامبراطور موريس وعتلاء فوكاس العرش
ذريعة للتدخل فى شئون بيزنطة والتقدم فى أراضيها.ولكن الحقيقة أن المشكلة
الفارسية ليست بجديدة ، وهى ترجع الى التاريخ القديم منذ أيام الاسكندر
المقدونى . وتجددت فى العهد البيزنطى . وكانت كفة الفارسيين هى الراجحة
منذ عهد جستنيان ، وفى عز أيامه بوجه خاص ، وفى أيام الامبراطورية
البيزنطية بوجه عام . وكانت الدولة الفارسية وقتئذ فى حالة انتعاش فوجدت
الفرصة مواتية للتوسع على حساب بيزنطة التى كانت فى حالة تدهور وانحلال
من كافة النواحى والوجوه .

فتح الفرس للشام :

كان الصراع بين الدولتين البيزنطية والفارسية هو صراع بين
الامبراطور هرقل وكسرى الثالث ملك الفرس . ولم تجد مفاوضات هرقل

مع الفرس اى فائدة،بعد ان ذاق ملوكها لذة الانتصار على الجيوش البيزنطية فيما مضى . وانقذ كسرى جيوشه التى استولت على حمص سنة ٦١١ . وكان هذا نصرا كبيرا ودليلا بينا على اطماع الدولة الفارسية فى الاتساع على حساب جارتها الدولة البيزنطية . واخذت الجيوش الفارسية تتقدم من ناحية ارمينية وبلاد الشام ، ووضعت يدها على كيليكية وطرسوس وارمينية وانطاكية وقيسارية ودمشق بالشام سنة ٦١٣ . وهكذا اخذت جيوش الفرس فى التقدم فى أملاك الامبراطورية الرومانية الشرقية دون توقف.وقد استغرق فتح بلاد الشام ست سنوات . ثم وقع ماهو اسوا من ذلك بكثير ، ولايعتبر كارثة حربية بقدر ماكان كارثة دينية من وجهة النظر المسيحية . ذلك ان الجيش الفارسى ظهر سنة ٦١٤ امام بيت المقدس واستولى عليها ووضع حامية فيها ، ثم استولى على الصليب الحقيقى الذى يعتقد المسيحيون انه الصليب الذى صلب عليه المسيح ، ويعرف عندهم باسم صليب الصلبوت ، واخذ كسرى معه الى بلاده .

وقد عمت موجة من الذعر والغضب واليأس فى القسطنطينية ، وظن الناس أن نجم الامبراطورية قد بدا فى الأفول بضياع خشبة الصليب المقدس، وهو الأثر الذى كانت هيلينا والدة قسطنطين الكبير قد استخرجته من جبل مرية Mount Morriah فى فلسطين وشيدت له هناك ضريحا فخما يعرف باسم القبر المقدس او كنيسة القيامة . ويقال ان كسرى رغبة منه فى اذلال هرقل ، وجه رسالة اليه فى يوم انتصاره يسبه فيها باقذع الألفاظ ، ويتهجم على المسيح قائلا له فى سخرية ان المسيح لم يتمكن من انقاذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه ، وان هرقل لو كان يثق حقا فى قدرة المسيح لانقذه من المحنة التى وقع فيها ، ولما ضاعت منه بيت المقدس . ويطلب منه فى نهاية الخطاب الاستسلام والالتجاء اليه هو وزوجته وأولاده اذا اراد الأمن والسلام .

كانت هذه الانتصارات حافزا للفرس على التوغل داخل حدود الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشهم سنة ٦١٥ الى خلقيدونية الواقعة على شاطىء بحر مرمرة . ومن هذا المركز الحيوى بالنسبة لبيزنطة أملى كسرى الفرس شروطه على الامبراطور هرقل .

فتح الفرس لمصر :

بعد أن انتهى الفرس من فتح بلاد الشام ، أخذوا يستعدون لفتح مصر . وفى خريف سنة ٦١٦ كان كل شىء معدا للقيام بهذا الغزو . وجدير بالذكر أن المصريين لم يبدوا أية مقاومة ، بل نراهم يرحبون بالفرس . فقد كان حكم بيزنطة عبئا ثقيلا على نفوسهم . يتفق المؤرخون أن الفرس استولوا على مصر من ناحية الشام فى سنة ٦١٦ ، وتقدموا من عاصمتها بابليون حتى وصلوا الى الاسكندرية . ومما يؤسف له أن المعلومات التى وصلت الينا عن هذا الغزو قليلة جدا . ولا تكاد تشفى غليل الباحث فى هذه الناحية . ولكن يبدو ان البلاد كانت تستسلم للغزاة الجدد دون قتال أو اراقة للدماء .

ويحسن أن نتريث لحظة عند الفرس للاسكندرية ، فقد تضاربت أقوال المؤرخين فى هذا الصدد . وكل ما نعرفه ان الاسكندرية صمدت لهم مدة من الزمن ، وأن الفرس دمروا الأديرة المحيطة بها ، وأعملوا فيها السلب والتخريب . ونجد فى كتاب « تاريخ البطارقة » للكاتب ساويرس بن المقفع الشىء الكبير عن الفرس للاسكندرية . ويمكن تلخيص أسباب صمودها مدة أطول فى وجه الفرس الى حصانتها ، ووجود حامية قوية دائمة بها ، واتصالها بالبحر . أما أسباب سقوطها فتنحصر فيما يلى :

أولا : لم يوجه هرقل الاهتمام الكافى الى هذا الجزء الحيوى من الامبراطورية .

ثانيا : سحب هرقل جانبا من جندها لاستخدامهم فى مناطق أخرى بقصد الدفاع عن بيزنطة .

ثالثا : انقطاع وصول الموارد الى الاسكندرية ، والتى كانت تصلهـا مـن الخـــارج .

رابعا : اصبحت خزانة الدولة خاوية مقفرة ، فلم يكن بوسعها تقديـم أى مساعدة جدية اليهـا .

لقد بلغت الحال بهرقل مبلغا سيئا ، وهوى ملكه حتى صار لا يتعدى ابواب عاصمته . فكانت العناصر المتبربرة تهدد العاصمـة ، والجيوشـس الفارسية تقتحم آسيا الصغرى وتجتاح كل ماق طريقها حتى بسطت يدها على فلسطين والشام ومصـر .

استعداد هرقل لقتال الفرس :

لم يبق من ممتلكات الدولة البيزنطية ما يمكن الاعتماد عليه سوى ولاية افريقية . ويقال ان هرقل قد فكر فعلا فى الالتجاء الى تلك المنطقة ، واعداد جيوشه لصد هذا الخطر الداهم . غير أن بطريق القسطنطينية ورجال الدين وعامة الشعب بها رفضوا الموافقة على هذا المشروع الذى كان يعتبر فى واقع الأمر استسلاما مزريا وهروبا من عاصمة الدولة . ومن جزاء هذه الاحداث استيقظت بيزنطة من سباتها ، وهبت تريد أن تجعل من رجالها وعتادهـا كتلة متحدة ضد الفرس . وقام هرقل يريد استرداد أملاكه الضائعـة . وفى سبيل ذلك سعى فى مصالحه الآفار حتى يأمن جانبهم ، ويوجه عنايته لمحاربة الفرس الذين اذلوه . ووجد هرقل شعبا مستعدا للتضحية ، فلم تعد المسالة مسالة دولة انتهت وانكسرت سياسيا وحربيا فحسب ، بل ان حادثة الاستيلاء على البيت المقدس وعلى الصليب الحقيقى كانت ماثلة امام الاعين . ومن هنا يمكن القول بأن الأسباب التى دعت هرقل لقتال الفرس كانت دينية قبل كل شىء . فقد اقسم أن يسير على رأس الجيش الى ميدان القتال . وقدمـت جميع كنائس القسطنطينية كنوزها ونفائسها سلفة الى الدولة لمواجهة نفقات الحرب ، كما الغى توزيع القمح المجانى على سكان العاصمة ، والذى كانوا

يتسلمونه منذ أيام قسطنطين الكبير أسوة بما كان متبعا فى روما القديمــة . وتحمل الجميع الحرمان بدون اعتراض . وكان لهذه الاجراءات أثرها فى انقاذ خزانة الدولة واعداد الجيوش والأساطيل لقتال العدو .

ويعتقد كثير من مؤرخى الحركة الصليبية اللاتين ، وعلى راسهم وليــم الصورى أن حملات هرقل ضد الفرس كانت فى روحها أول الحروب الصليبية ويقول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو شارل أومان انها كانت أول حروب شنتها الامبراطورية الرومانية الشرقية بحافز من الحماس الدينى ، هدفــه استعادة الأراضى المقدسة واعادة الصليب الحقيقى . ويأخذ بهذا الراى كثير من المشتغلين بالتاريخ البيزنطى وتاريخ الحركة الصليبية مثل المؤرخ رينيه جروسيه . وقد أوضحنا فيما سبق أن هذه الحروب تختلف عن الحــروب الصليبية التى قام بها الغرب الأوروبى فى مدلولها الدقيــق ، وانهــا لو أن اصطبغت بالصبغة الدينية ، فقد كانت أهدافها السياسية واضحة .

القتال بين الطرفــين :

قام هرقل بما لايقل عن ست حملات فى الفترة من ٦٢٢ الى ٦٢٨ ، فى محاولة مستميته لانقاذ الامبراطورية شبه المحطمة . وكانت خلاصة خطته أن يتقدم هو برا فى آسيا الصغرى . بينما يتقدم اسطوله البحرى نحو الجهة التى ستتجمع عندها الجيوش البرية . ونجحت الخطة المزدوجة ، وانتجت ثمرتها السريعة . فقد اضطرت الجيوش الفارسية الى التقهقر عن بلاد آسيا الصغرى بعد موقعة عنيفة ، والحق هرقل هزيمة تامة بالقائد الفارسى المسمى شهريارز **Shahrbarz** ولم يكتف هرقل بهذا النصر ، بل استمر فى قتال كسرى فى بلاده واحرز عدة انتصارات متوالية عليه ، اذ لم تكن فارس قد أفاقت بعد من صدمتها الأولى . واخذ الامبراطور البيزنطى يتقدم جنوبا عبر جبال ارمينية ، فاضطر كسرى الى استدعاء جيوشه التى كان يحتفظ بها فى مصر وسورية للدفاع عن ولاياته الفارسية . وأخذ هرقل ينتقم لنفسه لمــا

احدثه الفرس فى أنطاكية والقدس عند استيلائهم عليهما ، فأشعلت جيوشه النيران فى معابد النار الفارسية فى ميديا وغيرها . وواصل هرقل تقدمه حتى بلغ مدينة دستاجرد . واضطر كسرى الى الجلاء عنها والالتجاء الى عاصمته « المدائن » واستدعاء جنوده من الغرب ، حيث اشتبك مع خصمه فى معركتين كبيرتين خرج منهما خاسرا . ولما كان الشتاء على الأبواب ، فقد قفل هرقل عائدا الى ارمينية ،وتوغل فى بلاد الجزيرة المعروفة باسم **Me optamia** بعد أن الحق الهزيمة بالقائد شهريارز .

ولكن كسرى أبى أن يحنى راسه للهزائم المتتالية التى حلت به وبجيشه وبلاده . وعزم على القيام بعمل أخير للقضاء على هرقل . فاتفق مع غريمه ملك الآفار على خطة موحدة هدفها محاصرة القسطنطينية نفسها . وفعلا انفصل جانب من الجيش الفارسى الذى كان يتابع تحركات هرقل فى أرمينية وسار جنوبا بقيادة شهريارز الى منطقة آسيا الصغرى متجها نحو البسفور . بينما انقض ملك الآفار واتباعه السلاف على البلقان ،.وحاصر القسطنطينية من الجانب الأوروبى . واستمر حصار العاصمة ثلاثة اشهر (من يونيو الى اغسطس ٦٢٦) . واخذ الخطر يتزايد فى وقت كان فيه الامبراطور وجيشه يقاتلون فى جهة بعيدة . اذ كانوا وقتذاك مشغولين فى اكتساح ميديا وبلاد الجزيرة . ومع ذلك فقد أخفقت هجمات الفرس والآفار والسلاف على العاصمة ، واضطروا مكرهين الى رفع الحصار بعد أن قتل منهم الالاف . ويرجع سبب الهزيمة الى أنه كان يوجد بالعاصمة حامية قوية واسطول كبير . فضلا عن الشعور الشعبى العدائى الذى استولى على جميع أهل القسطنطينية ضد الفرس منذ ضياع بيت المقدس والصليب الحقيقى .

فى تلك الأثناء كان هرقل يواصل تقدمه فى بلاد الفرس . فالحق هزيمة ساحقة بجيوشهم بالقرب من نينوى . وتوالت الانتصارات تباعا ، فاستولى الامبراطور على دستاجرد ، وتراجع كسرى الى المدائن عاصمة ملكه،ولكنه

اضطر الى الفرار عندما اقترب العدو من أبوابها . وكان قد تحددت خاتمة كسرى ملك الفرس،اذ قبض عليه وعلى ابنه وكبار رجال دولته.ولم تمض أيام حتى توفى . واختلفت الروايات فى حقيقة موته ، فمن قائل انه مات متأثرا مما ألم به ، وهناك من يقول انه مات جوعــا .

واذا كان كسرى قد ارسل قبل ذلك التاريخ بعشر سنوات رسالته التى تمتلىء غرورا وصلفا الى هرقل عقب انتصاره الأول عليه فى القدس ، فقد ارسل ابنه بعد هذه المصائب التى حلت بالفرس رسالة الى الامبراطــور البيزنطى المنتصر تختلف تمام الاختلاف عن رسالة ابيه،يستعطفه فيها،ويلتمس الصفح عما بدر منه ومن والده فى حقه . وتم الصلح على أن ينسحب الفرس من كل الأراضى الرومانية ، ويطلقوا سراح الاسرى الرومان ، ويدفعوا جزية حربية ، ويردوا جميع الاسلاب التى استولوا عليها من بيت المقدس بما فيها خشبة الصليب الحقيقى . وقد قبل شيرويه Sirues ملك الفرس الجديد هذه الشروط صاغرا . وبذلك انتهت فى سنة ٦٢٨ الحروب الفارسية وماتت الروح الحربية عند اولئك القوم .

وعاد هرقل الى عاصمته منتصرا ظافرا . وكان الاحتفال بعودته على نمط الانتصارات الرومانية القديمة . فقد استرد صليب الصلبوت الذى جعل منه رمزا لنصر نهائى على الفرس . ومشى كما يقول الأستاذ الفريد بتلر فى ركاب ذلك الصليب الأعظم من مدينة الى اخرى بين اقواس النصر . وختم الاحتفال بعرض الصليب أمام مذبح كنيسة سانت صوفيا . وبعد ذلك أعاده الامبراطور الى بيت المقدس فى احتفال كبير .

ويتفق المؤرخون ان ما أحرزه هرقل هو اعظم انتصار حازه امبراطور رومانى . فقد حارب بدون انقطاع وفى اكثر من جبهة . وقاد قواته شرقا الى مسافة تبعد بكثير عن اية مسافة توغلها اى قائد رومانى آخر ، كما لقى من النجاح مالم يحرزه أحد غيره . هذا ، مع مراعاة الظروف السيئة التى تولى فيها الحكم فى البلاد .

سياسة هرقل الدينية :

بعد أن انتهى هرقل من حروبه مع الفرس ، أخذ يوجه عنايته نحـو المسألة الدينية التى كانت شغله الشاغل فى ذلك الحين ، وكان أقصى مايتمناه هو توحيد المذاهب المسيحية المختلفة حتى تصبح كتلة واحدة بعد الشقاقات المذهبية التى هزت كيانها . لقد اعتقد هرقل بعد انتصاره الكبير أنه أصبح حامى المسيحية ، وأن هذا هو الوقت المناسب لحل مشكلة انقسام المسيحية وتعدد مذاهبها التى أخفق أسلافه فى حلها . وكان يؤمن أن انتصاره الدينى والسياسى على دولة الفرس سيكون أكبر عون له على تحقيق الوحـــدة الدينية واخراجها من عالم الخيال الى عالم الحقيقة والواقع . فكـان أول مافعله هرقل أنه تجاهل الخلافات المذهبية القائمة وقتئذ ، واستقر رأيه هو وبعض كبار رجال الدين على مذهب جديد يقضى بأن يمتنع الناس عن مناقشة موضوع طبيعة المسيح وجوهره ، هذه المناقشة التى كانت سائدة فى عصره، والتى كانت لها آثارها الخطيرة . واسم المذهب الجديد هو مذهب التوفيق أو مذهب التوحيد . وواضح من اسمه أن الغرض الأسمى منه هو التوحيد والتوفيق بين مختلف المذاهب المسيحية . وقد سمح هذا المذهب بأن يقول ان للمسيح ارادة واحدة فقط . ومع ذلك فلم تؤد المحاولة المذكورة الى أى وحدة دينية ، بل أدت — على العكس من ذلك — الى نزاع دينى شديـد . فقد رفض اليعاقبة بمصر هذا المذهب ، ولم يعترفوا به ، واشتدت المعارضة ضد مبعوث الامبراطور وهو المقوقس الذى لجأ الى جميع وسائل الارهاب والتعذيب لفرض المذهب الجديد وكتاب بتلر ملىء بالأمثلة الدالة على الاضطهادات التى قاساها المصريون على يد المقوقس، حتى لقد اضطر البطريق بنيامين الى الاختفاء . وقد أدى هذا الى تكوين حركة دينية سرية خفيت أخبارها عـن المبعوث الامبراطورى . وكانت النتيجة الطبيعية والحتمية لذلك أن تمنى قبط مصر من أعماق قلوبهم أن يتخلصوا من البيزنطيين ومذهبهم واضطهاداتهم .

وتصادف فى ذلك الحين ظهور الاسلام ودخول الناس افواجا ، وكان اهــل مصر هم أول من رحب بالعرب ، وفتحوا لهم أبوابهم وقلوبهــم .

ويتحدث رانسيمان فى مؤلفه عن الحضارة البيزنطية ، عن سياســـة هرقل الدينية وآثارها . يقول : « لقد سعى هرقل ، كأسلافه ، الى كسب صداقة المونوفيسيين بالتوفيق اللاهوتى فى المبادىء الدينية . وتبنى الفكرة القائلة بأن للمسيح نشاط واحد فقط ، أو على أى حال ارادة واحدة فحسب. ومع أن هذا المذهب المونوثليتى قد قوبل ببعض النجاح فى القسطنطينية ، ومع أن البابا هونوريوس الأول قد وافق عليه ، الا أنه لم يرض المونوفيسيين، فقد أبقتهم متاعبهم السياسية القائمة ، وحقدهم الدفين على تعاليم مجمــع خلقيدونية المسكونى ، باستمرار غير قانعين . وكيفما كان الأمر ، فقد حدث هذا بعد فوات الأوان . ففى عام ٦٣٦ م ، وهى السنة التى وقع فيهـــا الامبراطور على وثيقة الاخطيس Ekthesis ، تلك الوثيقة التى تجد المذهب الجديد وتعبر عنه ، دارت رحى جرب فى سورية انتهت بفقــــدان الامبراطورية لها الى غير رجعة »

ظهور الاسلام والفتوحات العربية — الصراع بين هرقل والعرب :

لقد خرجت بيزنطة من الحرب الفارسية وقد انهكها طول القتال ، وحل بها الخراب والدمار ، وجف معينها فى الرجال والمال ، وأصبحت فى أشــد حالات التعب والاعياء . وكان أشد ماتحتاج اليه هو فترة ممتدة من السلام والهدوء وحتى تسترد أنفاسها المتقطعة وقوتها المنهوكة . وفى ذلك الحين — أى فى أوائل القرن السابع — وقعت فى شبه الجزيرة العربية احداث كان لها اهميتها العالمية ، وآثارها البعيدة المدى فى تطور التاريخ البشرى . اذ ظهر الاسلام يدعو الناس الى وحدانية الله . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس

قامت الدولة العربية الجديدة قوية شامخة ، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . وكان من الطبيعى ان تحتك بدولتى الفرس والروم اللتين انهكتهما الحروب الطويلة الدامية ، وتوجه اليهما أشد الضربات حتى انتهى الأمر بتحطيم مملكة فارس واقتطاع نصف ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ففى سنة ٦١٠ أخذ الرسول فى نشر دعوته ، وفى سنة ٦٢٨ أرسل كتبا بأيدى سفراء ورسل الى البلاد المجاورة داعيا الى السلام . وتروى الكتب انه وصل من هذه البعوث رسول الى هرقل ، وانه لم يعن بالرسالة الموجهة اليه . فكان هذا بداية الحرب بين العرب والروم التى لم تنته الا سنة ١٤٥٣ عندما استسلمت القسطنطينية للأتراك العثمانيين .

ومما يؤسف له ان كثيرا من المؤرخين الغربيين القدامى والحديثين قد نظروا الى هذه الحروب نظرة حقد وتعصب أعمى . بل ان بعضهم مثل اومان وجروسيه وميشو تناولوا شخصية الرسول بكلمات حادة فيها جور واسفاف لا يتفقان بحال مع الحق والأمانة العلمية . بينما حاول فريق آخر من المؤرخين ان يقلل من شأن قوة العرب وحماستهم .

فتح العرب لبلاد الشام :

لم يكن اختيار وقت الفتح فى صالح بيزنطة ، ذلك لأن هرقل سدد الدين الكبير الذى كان قد تعهد بدفعه الى الكنيسة أثناء حروبه مع الفرس وادى هذا الى استنزاف موارد الدولة وافقارها ، حتى لقد اضطر الامبراطور الى فرض ضرائب جديدة على أهالى الولايات المستاءين من الحكم الرومانى . والى تسريح عدد كبير من جنوده رغبة فى الاقتصاد قدر الاستطاعة . ولم تعد سورية التى قضت حوالى اثنى عشر عاما تحت نير الحكم الفارسى الى حالتها الأولى بعد فتحها من جديد وعودتها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية.

اذ كانت المنازعات الدينية والمشاكل الاقتصادية والانقسامات المذهبية قد ادت الى تفككها وتمزيقها . فقد كثر اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، وهم اليعاقبة ، فى هذا الاقليم ، وتنفسوا الصعداء مدة الحكم الفارسى بسبب تخلصهم من الضغط البيزنطى . ولذلك قاوموا بكل شدة محاولات هرقل لفرض مذهب التوحيد ، حتى اذا جاء الفتح العربى رفضوا باصرار مساعدة الجيش الامبراطورى فى الوقت الذى أمدوا فيه للعرب يد المساعدة .

وجدير بالتنويه أن المؤرخين البيزنطيين لم يحفظوا لنا تفاصيل فتح العرب لسورية . ولعلهم على حد قول اومان كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الأحداث. أما العرب فلم يكونوا من ناحيتهم قد بدأوا الكتابة بعد . ولذلك أحيطت سنوات الفتح بسياج من الروايات والأساطير الخيالية .

على أنه يمكن تتبع مراحل هذه الحروب بشىء من الدقة والتركيز قدر الاستطاعة . ففى سنة ٦٢٩ ، وقع أول احتكاك بين العرب والروم ، اذ وجه الرسول حملة برئاسة زيد بن حارثة الى الجهات الشمالية الشرقية من بلاد العرب ، وتقدمت وحاربت البيزنطيين ، ولكنها انهزمت .وتعرف هذه الواقعة بغزوة مؤته Mt ta وتبعتها غزوات أخرى منها غزوة « تبوك » سنة ٦٣٠ التى قادها الرسول بنفسه ، ووقعت على مقربة من الحدود العربية الشامية . وقد رجعت هذه الحملة دون أن تصطدم بالبيزنطيين اصطداما خطيرا .وبعد ذلك أوفد الرسول جيشا بقيادة اسامة بن حارثة لمحاربة الروم، لكن الرسول انتقل الى ربه قبل أن تبدأ الحملة .

وواصل العرب حملاتهم على البلاد الشامية ، فاستولت جيوشهم فى ربيع سنة ٦٣٤ بقيادة ابى عبيدة على بصرى ثغر سورية الشرقى . وحاول الرومان استرداد بصرى ولكنهم هزموا فى يوليو من نفس السنة فى موقعة اجنادين . واثارت هذه الهزيمة هرقل فسير جيوشه لاسترداد المدينة . فعبروا نهر الأردن وقابلهم العرب عند مخاضات نهر اليرموك احد الروافد الشرقية لنهر الأردن . ونشبت معركة عنيفة بين الفريقين ، انتهت باكتساح الفرق

الرومانية وضياع المناطق السورية الواقعة شرقى نهر الأردن . وفى السنة التالية استسلمت دمشق بعد مقاومة ، وسرعان ماسقطت انطاكية وسورية الشمالية كلها فى قبضة العرب . وفى سنة ٦٣٧ سقطت بيت المقدس بعد مقاومة استمرت حوالى عام . ويعتبر هذه المدينة من الأحداث الفاصلة فى الحرب بين العرب والروم .

وكان الامبراطور هرقل فى ذلك الحين قد جاوز الستين من عمره ، وبدات صحته فى الاضمحلال ، والم به مرض اضطره الى الاقامة فى عاصمته ، بينما اضطر ابنه الاكبر المسمى قسطنطين الثالث الى التوجه الى ميدان القتال لاسترداد سورية الشمالية ، ولكنه هزم فى سنة ٦٣٨ هزيمة شديدة . وهكذا انتهت الحملات العربية فى عشر سنوات بانتزاع سورية وفلسطين كلها من أيدى البيزنطيين ، وكان ذلك فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

وفى نفس هذا الوقت كانت القوات العربية تكتسح بلاد الفرس . ففى عام ٦٣٧ سحقت جند بنى ساسان عند القادسية ، وقضت على مملكة فارس بصفة نهائية فى موقعة نهاوند Nihawand بعد ذلك التاريخ بأربع سنوات .

فتح العرب لمصر :

قبل الاسترسال فى الحديث عن بقية فتوحات العرب ، يحسن أن نمهد لذلك بكلمة عن أحوال مصر قبل الفتح . نعرف أن هرقل بعد استيلائه على مصر جعل نيكيتاس نائبا عنه فيها . ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن هذه الفترة ، هى الأخرى ، غير كافية . ولكن يمكننا أن نلمح من خلال الظلام الذى احاط بهذه الفترة أن مصر تمتعت فى أوائل عهده برجاء وتقدم نسبى عما كانت عليه أيام سلفه فوكاس . ولكننا نستطيع ان نلمح أيضا سير الأحداث الكبرى التى عصفت بسلطان الدولة البيزنطية فى مصر أواخر حياة ذلك الامبراطور .

لقد كانت مصر بين ولاية هرقل والفتح العربى تعج بالفتن والاضطرابات الدينية . ومن أطرف ما أورده المؤرخ الغربى بتلر عن مصر فى هذه الفترة

قول مأثور للشاعر جوفينال Juvenal . اذ اخذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيهما أفضل فى العبادة :عبادة التماسيح أم عبادة القطط. وقال « ان كل مكان يكره الآلهة التى لجيرانه ، ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هى التى يعبدها هو » وينص قوله باللاتينية :

" Numina vicinorum.

Odit utrque locis, cum solos credat habendos.

Esse deos quos colit"

فكان النزاع بين الملكانيين واليعاقبة على اشده ، فوق مادونه من غشاء رقيق شفاف قصد به التوفيق بين المذهبين . ولكن هذه المحاولات ذهبت حسبما اسلفنا أدراج الرياح . وازداد الشعور بالسخط بين المصريين ضد الروم ، وباتوا يتحينون الفرصة المواتية فى زوال الدولة البيزنطية عنهم .

هذا بالنسبة للأوضاع فى مصر قبيل الفتح ، أما بالنسبة للعرب فقد كان فتح مصر ضرورة اقتضتها الظروف بعد أن ظهرت أهميتها وخطر تجمع القوات البيزنطية بها ، حين بعث هرقل حملته البحرية من الاسكندرية ، واستولت على انطاكية وكادت تزعزع الفتوحات العربية بالشام . يضاف الى ذلك أن بحر الروم مازال فى أيدى البيزنطيين ، ترتع فيه سفنهم ، وتسبب الكثير من المضايقات للجيوش العربية . وخلاصة القول ان مصر غدت محور ارتكاز القوات الحربية للدولة البيزنطية فى حوض شرقى البحر المتوسط . فكل هذا حمل الخليفة عمر بن الخطاب على اتخاذ الخطوات اللازمة بتأمين الفتوحات العربية فى المنطقة ، وحتى تأمن الدولة الناهضة من شر بيزنطة. فكان أن تقرر فى مؤتمر الجابية غزو مصر ، ذلك المخزن الذى كان يمد بيزنطة بالغلال . وبالاستيلاء عليها يحرم البيزنطيون من أهم الشرايين الحيوية التى أمدت دولتهم بالحياة ، ويحرم الأسطول الرومى من أية قاعدة يستطيع ان يعمل فيها ضد العرب فى مياه البحرين الأبيض والأحمر .

كان ، اذن ، ارسال الخليفة عمر الجيوش لفتح مصر بقيادة عمرو بن

العاص يعد ضرورة حربية استدعت تأمين قواته وفتوحاته فى الشام . وكان الطريق . مفتوحا امام قائده ، اذ استولى على الفرما سنة ٦٤٠ ، ثم احتل بلبيس وحصن بابليون فى السنة التالية ، ثم اتجه الى الاسكندرية وضرب الحصار حولها . وبموت هرقل سنة ٦٤١ كانت الاسكندرية هى المكان الوحيد المتبقى من ممتلكات الرومان فى مصر ، وقد تم الاستيلاء عليها فى السنة التالية . ويعتبر بتلر حجة فى تاريخ الفترة الغامضة ، اذ أسهب فى كتابه « فتح العرب لمصر » فى ذكر الغزوات مثل وقعة هليوبولس وحصن بابليون وغيرهما .

وكل ما يهمنا أن المصريين الذين كانوا هراطقة مضطهدين فى نظر الكنيسة البيزنطية ، والذين اثقلت كواهلهم الضرائب الباهظة تحت نير الحكم البيزنطى،لم يبدوا اية محاولة لحفظ هذه المستعمرة الامبراطورية . بل على العكس،لقد رحب أهل البلاد بالعرب.ويقول المؤرخ ستيفن رانسيمان انهم اعتبروا الاسلام أقرب الى مبادئهم ومعتقداتهم من تعاليم مجمع خلقيدونيــة المسكونى.وكانت الاسكندرية هى المدينة الوحيدة التى قاومت بعض الوقت، واضطرت الى التسليم آخر الأمر ، وبذلك انهار آخر الحصون الهللينية فى الشرق .

خاتمة حــكم هــرقل :

ففى غمرة هذه الكوارث التى حاقت بالدولة البيزنطية توفى هرقل فى اوائل شهر مارس سنة ٦٤١ . وبموته انحصرت الامبراطورية فى حدود آسيا الصغرى وساحل شبه البلقان وولاية افريقية وصقلية . واصبح هذا الجزء المتبقى موئل الارثوذكسية على المذهب البيزنطى ، بينما اصبحت البلاد التى فقدتها بمثابة المونوفيزية .

ويعتبر حكم هرقل فترة هامة فى تاريخ بيزنطة . لأن هذه الدولة سارت فى أواخر ذلك العهد ، كما لاحظنا ، مختلفة تمام الاختلاف عن حالها فى اوله. ويمكن القول ان هرقل يعتبر حدا فاصلا فى تاريخ الدولة البيزنطيـــة ، لان تسلسل هذه الدولة من منتهى ذلك العهد الى أواخر أيامها ترجع أهميتهـــا وفروعها واصولها الى عهد هرقل نفسه . وهناك ملاحظة اخرى نخرج بهــا

من دراستنا لهرقل وعهده ، وهى أنه ابدى شخصية متناقضة فيها البطء أحيانا والسرعة أحيانا ، وفيها الضعف والخور مرة والاقدام والشجاعة مرات ، وفيها بطء التفكير والتصرف كما فيها سرعة البت فى الأمور ، وما الى ذلك مما نجد له أمثلة لاحصر لها فى حكم هذا الامبراطور وفى شخصيته وتصرفاته ، وان كنا لانجد لها التعليل الكافى .

هذا ، ويتحدث المؤرخان بينز وموس عن عهد الامبراطور هرقل باعتباره حدا فاصلا فى التاريخ البيزنطى . اذ يقولان : « وتحت ضغط الفتح [العربى] اتخذت الامبراطورية البيزنطية ، بصفة نهائية ، شكلها الوسيط . لقد ولت الآن أيام روما [الجديدة] باعتبارها قوة برية عظمى . وفيما عدا آسيا الصغرى وضواحى العاصمة ، فقد انكمشت الأراضى البيزنطية ، فعلا ، فى تلك النتوءات الباقية على الساحل الشمالى لحوض البحر المتوسط . وخلال القرن السابع استسلمت مراكزها الاسبانية للقوط الغربيين ، بينما وقع الجزء الشمالى الغربى من افريقية آخر الأمر فى قبضة العرب . »

نهاية بيت هرقل :

كانت السنوات التى أعقبت موت هرقل حتى نهاية حكم أسرته من أحلك الفترات فى تاريخ بيزنطة . فقد خلفه عدد من الأباطرة تراوحوا بين القوة والضعف ، فى وقت كانت فيه البلاد مرتعا لمؤامرات البلاط الدامية ، وكان العرب ماضين فى فتوحاتهم فى القطاع الشرقى من الامبراطورية ، واضطرت الامبراطورية أن تحشد قواها لحفظ جبال طرسوس وهى الحد الشمالى للفتوحات العربية . وكان العرب يعبرون سلسلةجبال طرسوس للاغارة على آسيا الصغرى .

واستمر الحال هكذا الى أن ولى الحكم قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) ، فى وقت بدأ فيه معاوية بن ابى سفيان — اول خلفاء الأمويين — يوجه الضربات القوية ضد الامبراطورية . وفى نهاية سنة ٦٧٢ قام اسطول ضخم

وجيش كبير من سورية بقيادة عبد الرحمن لمحاصرة القسطنطينية نفسها . وكانت هذه أولى المحاولات العربية للاستيلاء على عاصمة الروم التى دام حصارها اربع سنوات . ولكن هذ هالحملة لم يقدر لها النجاح بسبب مناعة العاصمة ومتانة اسوارها . وأحرز الروم نصرا كبيرا برا وبحرا . ولم يتوقف القتال بعد ذلك فقد اشتبكت الأساطيل العربية فى عمليات حربية مع الأساطيل البيزنطية مدى سبع سنوات (٦٧٤ — ٦٨٠) . وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الفريقين تعهد فيها معاوية بدفع جزية سنوية كبيرة . وجدير بالذكر أن تفاصيل هذا الحصار الكبير للقسطنطينية غير معروفة اكثر مما أوردناه فلا يوجد أى مؤرخ كبير كان شاهد عيان لهذه الأحداث أو عاصرها ليمدنا بالمعلومات الوافية عنها ، التى لو كنا قد حصلنا عليها لألقت الكثير من الاضواء على تلك الفترة .

وفى ذلك الحين اتجهت الفتوحات العربية نحو الغرب ، فهاجم العرب ولاية افريقية عام ٦٧٠ ، وسقطت قرطاجة فى سنة ٦٩٧ ، ومنها واصلوا الزحف نحو اسبانيا.وزادمن مشاكل بيزنطة وقتئذ أن البلغار أخذوا يستقرون على ضفاف الدانوب الجنوبية . ولم يكن بوسع خلفاء هرقل القيام بأعباء الحكم الشاقة فىتلك الظروف.اذ قضوا بقية حكمهم فى حروب تكاد تكون مستمرة مع البلغار والغرب ، حتى أن الامبراطور كونستانس Constans II (٦٤١ — ٦٦٨) ، بعد أن تملكه اليأس نزح الى صقلية ليقيم فيها ، واتجهت نيته فى العودة الى روما العاصمة القديمة ، والاستقرار فيها لولا موته قبل أن ينفذ مشروعه . وكانت البلاد مسرحا للفوضى والاضطرابات والثورات الداخلية الى أن انتهى الأمر بانقراض أسرة هرقل عندما استولى ليو الأيسورى أعظم قواد الامبراطورية ، على أعنة الحكم دون أى معارضة .

المـــوضـــوع الثـــامن

الأسرة الأيسورية

(٧١٧ — ٨٢٠)

اعتلاء ليو الثالث الأيسورى العرش :

الامبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠)

ذكرنا أن شئون الامبراطورية فى أخريات حكم بيت هرقل كانت تسير من سيىء الى أسوأ . فأهملت مصالح الدولة اهمالا خطيرا ، واخذ يدب فيها الفساد ، وتدهور التعليم ، وانحل النظام الحربى . واصبحت البلاد مسرحا للحروب الأهلية بين المتكالبين على العرش . وهذا ، فى الداخل ، أمـــا فى الخارج فقد أخذ البلغار والعرب يكتسحون ولايات الحدود التى اخذت تنسلخ عن الامبراطورية ولاية بعد الأخرى . واستغل الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك هذه الفرصة المواتية ، واعد حملة فى موانى سورية هدفها حصـــار القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء عليها . وكانت الظروف مواتية ، فسقطت فى قبضة العرب مدينة تيانا Tyaua سنة ٧١٠،وأما سيا سنة٧١٢،وانطاكية البسيدية فى السنة التالية . وتوغلوا فى فريجيه بآسيا الصغرى سنة ٧١٦. وكان من المنتظر أن يواصل العرب تقدمهم ونجاحهم لولا ظهور رجل قدر له انقاذ الامبراطورية من الانهيار ولو لفترة من الزمن . ذلك هو ليو الأيسورى قائد منطقة الأناضول . فتمكن بالحيلة والسياسة والدهاء من اقناع العرب برفع الحصار عن مدينة عامورية . ثم خرج على ثيودوسيوس الثالث آخر أباطرة بيت هرقل (٧١٥ — ٧١٧) . ولما كان ثيود وسيوس هذا لايرغب فى الاحتفاظ بالعرش بعد أن توالت الأزمات والكوارث من كل جانب ، فقد دعا بطريق القسطنطينية ومجلس السناتو وكبار الدولة وأبدى رغبته فى التنازل. ووافق المجلس على ذلك ، وقدم التاج الى ليو الذى قبله فى أوائل سنة ٧١٧ ليكون مؤسس أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى ، هى الأسرة الأيسورية ، وليكون هو أول أباطرتها ويحمل اسم ليو الثالث الأيسورى .

حصار العرب للقسطنطينية وفشله :

هكذا تم تنازل ثيودوسيوس الثالث عن العرش فى وقت كان فيه الهجوم

العربى على الأبواب . وكان على ليو الثالث تحمل عدة مسئوليات يتوقف عليها مصيره ومصير الامبراطورية كلها . فلم يكن عنده سوى جيش صغير حطمته الحروب الخارجية العديدة ضد الفرس والعناصر الجرمانية والعرب، وكذلك الثورات الداخلية من فتن ومؤامرات . وكانت الخزانة خاوية تماما والفوضى ضاربة أطنابها فى النظام الادارى . ثم هو لم ينس أنه كان مخاطرا لولا مبادرة ثيودوسيوس الثالث بالتنازل له رسميا عن العرش ، والا لكان قد استولى عليه بالقوة المسلحة ، كما فعل غيره من القواد المخاطرين من أمثال الامبراطور فوكاس الذى قتل سلفه موريس ويوحنا تزيمسكس ورومانوس ليكابينوس وغيرهم .

ففى زحمة هذه الظروف التى المت ببيزنطة ، كانت الخلافة العربية قد آلت الى سليمان بن عبد الملك سابع الخلفاء الأمويين بدمشق . وقد انفق موارد دولته فى اعداد جيش واسطول كبيرين يمكنهما القيام بالمشروع الضخم الذى عزم على تنفيذه ، والذى أخفق معاوية من قبل فى تحقيقه . ولم تكن فكرة الاستيلاء على بيزنطة مجرد حلم يداعب خياله ، وانما كانت أقرب ماتكون الى الضرورة السياسية والحربية فى ذات الوقت . بمعنى انه لوحدث ان استولى العرب عليها ، لضمنوا سلامة دولتهم التى كانت تقف بيزنطة منها موقف العداء منذ البداية ، وهذا أمر طبيعى فامتلاكها كان بمثابة ضمان نهائى لعدم تعرض دولة الروم للعرب الذين اقتطعوا منها أجزاء هامة فى سبيل نشر الدين الجديد وتأمين فتوحاتهم .

على أية حال ، أسند الخليفة الأموى قيادة الحملة الى اخيه مسلمة ، فصار على رأس جيش من ثمانين الف مقاتل من مدينة طرسوس ووصل الى الدردنيل عبر آسيا الصغرى . وفى تلك الأثناء ابحر من سورية اسطول يتألف من الف وثمانمائة قطعة بقيادة الوزير سليمان قاصدا بحر ايجه . وتقابل الأسطول والجيش فى ابيروس الواقعة على الدردنيل دون أن تواجههما اية مقاومة من جانب بيزنطة،اذ كان ليو الثالث قد سحب قواته البرية والبحرية

لحراسة العاصمة نفسها . وفى اغسطس سنة ٧١٧ كان الأسطول العربى يعبر بحر مرمرة بينما كان الجيش قد عبر البحر الى تراقية ، وأخذ يقترب من القسطنطينية من ناحية الغرب . وقد أمر مسلمة — قائد الحملة العربيــة جنوده بحفر الخنادق على طول الطريق من البحر حتى القرن الذهبى ، ليقطع الاتصال بين القسطنطينية وتراقية ، بينما سد سليمان قائد الأسطول مدخل البسفور الجنوبى ، وحاول اغلاقه من ناحية الشمال ليمنع وصول الامدادات الى البيزنطيين من البحر الأسود . ولكن ليو هجم بسفنه التى تحمل النار الاغريقية على السفن العربية ، وانزل بها الكثير من الاضرار . وبذلك لـم يتسن محاصرة المدينة من هذه الناحية .

بعد ذلك ، ضربت قوات مسلمة واسطول سليمان الحصار حـول العاصمة البيزنطية ، وكانوا مزودين بكل مايلزم لحصار يدوم بضعة اشهر . وكان هدفهم هو تجويع المدينة الى أن تستسلم لهم . ولكن الذى حدث كان على العكس من ذلك ، اذ سرعان ماتفشت المجاعة بين القوات العربية بسبب نفاذ الأقوات ، فضلا عن أنها لاقت الامرين من قسوة البرد فى شتاء ٧١٧/٧١٨ ، الأمر الذى فتك بعدد كبير منها ، وكان الوزير سليمان نفسه من بين الموتى . وفى الربيع التالى وصلت الامدادات الى مسلمة من البر والبحر ، والأمر الذى مساعده على اطالة أمد الحصار للمدينة . ولم ييأس ليو ، واستخدم النيران الاغريقية فى احراق معظم قطع الأسطول . وهجم على الجيش وفتك بعدد كبير من افراده . وتفشت المجاعة بين قوات مسلمة ، فاضطر الى اصدار الأمر بالتراجع . وقام الأسطول بنقل الجيش البرى الى آسيا الصغرى . ثم اتجهت القوتان عائدتين أدراجهما دون أن تحققا الغرض . وهكذا كانت نهاية آخر محاولة كبيرة قام بها العرب بقصد الاستيلاء على القسطنطينية . ولم تقم مثلها مرة أخرى ، ولو ان الحروب كانت لاتنقطع بين الفريقين فى مـــدى ثلاثة قرون ونصف . وكانت من نوع معارك الحدود التى كانت تحدث نتيجة متاخمة الحدود بين البلدين . وظلت بيزنطة منذ ذلك الحين ولمدة تقرب مـــن

سبعة قرون ونصف تصارع فى جبهات مختلفة متعددة محاولة المحافظة على كيانها واستقلالها الى أن سقطت آخر الأمر فى قبضة الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى .

ويقيم رانسيمان حروب ليو الأيسورى ضد العرب قائلا : « كان قدراً مكتوبا على اباطرة البيت الأيسورى أن ينقذوا الامبراطورية البيزنطية من قبضة العرب ، وأن يعدوها بحيث تصبح أعظم صرح دفاعى عرفه العالـــم المسيحى وقتها . وقد تمكن ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤٠) ، بما حققه من نصر ، من حفظ العاصمة أثناء حصار العرب الكبير لها خلال عامى ٧١٨/٧١٧ . كما تمكن فى حروبه المتأخرة من دفع العرب الى حدود جبال طرسوس . »

والواقع الذى لاخلاف بشأنه أن من أهم الأسباب التى حالـــت دون وقوع القسطنطينية فى قبضة الأمويين فى هذا التاريخ المبكر ، هو مناعتهـــا الطبيعية والحضارية التى كانت تتمتع بها . فضلا عن استخدام البيزنطيين لأسلحة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وعلى رأسها النار الاغريقية التى كانوا يصوبونها على سفن أعدائهم فتشتعل فيها النيران وتلتهما وتصبح اثرا بعدعين . وقد سميت هكذا لأن مخترعها مهندس اغريقى يدعى كالينيكس **Calinicus** من مواطنى مدينة هليوبوليس بسورية . وقد اخترعـها فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع فى أواخر حكم الأسرة الهرقلية ، والذى حوصرت القسطنطينية فى عهده على يد العرب أيام معاوية بن ابى سفيان ، فلم ينقذها غير هذا السلاح . وهذه النار عبارة عن مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . وكان هذا المزيج يوضـع فى انابيب من النحاس لها فم توقد منه ، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره الى الأمام . وكانت تلك الانابيب توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلـــة مستديرة ، وتلقى فى مدافع المنجنيق — وهى قاذفات اللهب والأحجار — ثـــم تقذف على العدو فتصليه نارا حامية . وكانت هذه النيران — حسبما أسلفنا — من أهم الأسباب التى ادت الى انتصار ليو الثالث على العرب . اذ التهمت

سفنهم ، بينما هجم الامبراطور البيزنطى على الجيش وفتك بعدد كبير من افراده،واضطرت فلوله الى التراجع دون أن تحقق الهدف الذىقامت منأجله.

ليو والحملة على الأيقونات :

بعد أن انتهى الامبراطور ليو الثالث من حروبه مع العرب الذين حاصروا مدينة القسطنطينية بقصد الاستيلاء عليها ، عمد الى اتخاذ سلسلة من الاصلاحات الداخلية لاتقل فى نظره أهمية عن دفع العرب عن عاصمة ملكه . فضلا عما كان لها من آثار بالغة الأهمية فى تاريخ العلاقات بين المسيحيين فى الشرق والغرب منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ، وهى التى تعارف المؤرخون على تسميتها باسم حركة تحطيم الصور والأيقونات وكسر التماثيل الدينية Image - breakers التى تمثل المسيح والعذراء والرسل والقديسين فى شتى انحاء الامبراطورية ، الأمر الذى ترك أثرا سيئا على الامبراطورية من الناحية الداخلية ، وعلى موقف بابوية روما وكنيستها اللاتينية الكاثوليكية من أباطرة بيزنطة ، وهى التى كانت تؤمن بالصور والأيقونات ايمانا عميقا ورثته عن تاريخها القديم حتى قبل المسيحية نفسها عندما كانت لاتزال تدين بالوثنية التى تميزت بتعدد الآلهة نتيجة لتعدد نواحى الحياة.وكانت هذه الآلهة الوثنية القديمة تقرب الى اذهان الرومانفىهيئة تماثيل يعبدونها ويقدمون لها الضحايا.

ولقد تضاربت آراء الكتاب والمؤرخين الغربيين المحدثين المشتغلين بالتاريخ البيزنطى والتاريخ الأوروبى الوسيط فى الحكم على هذه الحركة وصاحبها . فنجد المؤرخ شارل اومان Ch- Oman مثلا يقول انه لو كان ليو الأيسورى قد مات بعد نجاحه فى صد العرب عن عاصمته لكان ذلك خيرا له ولذكراه فى التاريخ ، اذ ان الحركة اللاأيقونية قد أساءت اليه اساءة بالغة، وحطت من شأنه وقدره فى نظر المعاصرين له والمتأخرين عنه .

ولدراسة هذه الحركة فى ظهورها وتطورها ، يحسن أن نعود قليلا الى الوراء . ففى القرن الرابع اعتنقت الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية التى اصبحت دينا رسميا لها بموجب مرسوم ميلان الذى اصدره قسطنطين

الكبير سنة ٣١٣ ، واعترف بكنيستها . ولكن مع مرور الزمن لم يسلم هــذا الدين الجديد من كثير من البدع والتقاليد والأساطير والخرافات التى ذاعت حول عقائدة الرئيسية . ولعل ذلك يرجع الى أن النفس البشرية تميل بطبيعتها الى اضفاء الكثير من الروايات المبالغ فيها والأساطير التى هى أقرب الــى الخيال منها الى الحقيقة أى شىء جديد غامض.فنجد أن الأديان بصفة خاصة تستعصى بعض جوانبها أحيانا على عقول البشر المحدودة التى لا يمكنهــا بحال ادراك كافة الأمور الروحية غير المحدودة . فلم يكن من السهل على الفرد ان يتقبل غوامض هذه الأديان وأسرارها . ومن ثم يعمد الى اضفاء مظاهر جديدة لطبيعة الدين بقصد تقريبه الى الأفهام . فكان رجال الدين فى العصر المسيحى الأول يهدفون بشتى الطرق الى اجتذاب الناس الى المسيحية ،وضم اكبر عدد ممكن منهم الى دينهم الجديد . ولما كان الناس فى ذلك الحين يدينون بالوثنية ، فقد عمد رجال الدين الى اعطاء صور حية مطموسة عن أعمــال الآباء والقيسين والرسل الأوائل . ولما كان أصحاب الديانات الوثنية القديمة يؤمنون بتعدد الآلهة ، فقد عمد رجال الدين المسيحى الى تشبيه تلك الآلهــة القديمة بالقديسين الأوائل . وكان الهدف من ذلك هو تقريب المسيحية الى اذهانهم بمثل هذهالصور الملموسة التى الفوها منقبل فقداصبحمنالصعبعلى الرجل الذى كان يؤمن بتعدد الآلهة ، والتى كانت تجسم له تلك الآلهة فى صور أو تماثيل ملموسة ، والذى كان يدين بدين مغاير قبل اعتناق المسيحية ، اصبح من الصعب عليه أن يتمثل الرسل والقديسين دون وضع صور مادية ملموسة لهم أمامه . واخذت الأمور تسير على هذا المنوال ، ولم يكن هناك مناص من أن يتجه هذا الاتجاه فى بداية الأمر ، وفى الغرب الأوروبى بالذات معقل الوثنية القديمة . وكان أكثر الناس اعتنقاقا لمبدأ عبادة الصور والتماثيل رجل الشارع لجهله وانتشار المعتقدات الباطلة التى اثرت اسوأ الأثر على عقليته .

وبمرور الوقت أخذت عبادة الصور والتماثيل **Image- warship** تنتشر فى طول أرجاء الامبراطورية وعرضها بشكل مخيف ، بل لقد وصــل الأمر الى حد عبارة مخلفات وآثار الموتى من القديسين الاوائل وزيـــارة

أضرحتهم والدعاء عندها والتبرك بها ، وهى التى تعرف باسم الفيتيشية Fetishism والمقصود بها عبادة الأشياء المادية وامتلاكها اعتقادا أن ذلك يؤدى الى الحصول على خدمات من الروح التى تستقر فيها هذه الاشياء ، وهى فى أغلب معناها تدل على عبارة الأوثان .

والامثلة على ذلك عديدة فى التاريخ الوسيط . فقد عثرت هيلينا أم الامبراطور قسطنطين الكبير على بعض آثار المسيح ، وخاصة أدوات صلبه . وقام ابنها ببناء كنيسة فى بيت المقدس،تعرف باسم كنيسة القيامة أو الضريح المقدس حفظت فيها هذه الذخائر المقدسة ، حتى أنها أصبحت كعبة الحجاج المسيحيين الذين يفدون لزيارتها والتبرك بهذه المخلفات . وقد استتبع هذا الاهتمام الزائد بجمع آثار الرسل والقديسين وتبجيلها والتبرك بها . وأخذ الناس من كافة الطبقات فى الغرب يهتمون بجمع مثل هذه الآثار الدينية ، ودفع مبالغ كبيرة للحصول عليها . فنجد ملكا مثل لويس التاسع يحصل على بعض الذخائر المقدسة مثل تاج الشوك وقطعة من خشب الصليب الحقيقى من بيزنطة ويشيد لها خصيصا كنيسة فىباريس المعروفة باسم الكنيسة المقدسة . وعلى أية حال فقد أصبحت الصور والتماثيل القديمة والمخلفات المقدسة تعبد باعتبارها أشياء الهية بقوى خارقة ، ويمكنها ان تأتى بالمعجزات . بل بسات امتلاكها يجلب الحظ السعيد للكنيسة أو ادير الذى يحتفظ بها ، وأصبحت تلقى من الاحترام ما يفوق ذلك الاحترام الذى يلاقيه القديسين الذين أقيمت هذه الصور والتماثيل تخليدا لذكراهم .

وانتشرت تبعا لذلك التصورات والاعتقادات السخيفة التى نشأت من عبادة التماثيل . فنجد فى وقت ما أن رجال الدين انفسهم يؤكدون أن يد تمثال للعذراء كانت تقطر بلسما طيب الرائحة . وكان عامة الناس يعتقدون أن هزيمة هرقل أمام الفرس فى المرحلة الأولى من كفاحه ، واستيلاء ملكهم على خشبة الصليب الحقيقى انما كان نذيرا بانهيار الامبراطورية . وأصبحوا يعتقدون بعد نجاحه فى حملته ضدهم فى المرحلة الثانية والتى انتهت باستعادة

اورشليم واسترداد الصليب المقدس انما يرجع الى أنه كان يحمل معه صورة لمريم العذراء سقطت من السماء . وكان العامة الذين يعيشون فى غلالة كثيفة من الجهل يعتنقون مثل هذه الافكار بشغف . وذلك باستثناء فئة قليلة مثقفة من رجال الدين كان يهمها أن يظل الشعب فى جهالته ، ضمانا لبسط نفوذها عليه . وليس معنى ذلك أن كل الناس قد آمنوا بهذا التطور المادى الـذى دخل الدين المسيحى . وانما كانت هناك ايضا طبقة من العلماء المثقفين الذين رفضت عقولهم قبول مثل هذه السخافات التى ليست من الدين فى شـىء وزاد من كراهتهم لهذه الخزعبلات تأثير الدين الاسلامى على عقولهم وافكارهم، والذى كان يحرم بشدة عبادة الأوثان أيا كان شكلها وأصلها باعتبارها مـن الأمور التى تتنافى والتعاليم السماوية .. ومما يذكر فى هذا الصدد أن احـد المسلمين اخذ يعير أحد سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية المجاورين له بأنه يتمسك بدين دب فيه الفساد ، فلم يكن أمامه الا الاعتراف بصدق هـذا الاتهام ، وهو يرى تصرفات مواطنيه الذين جعلوا من التماثيل آلهة يعبدونها ويتقربون اليها . ومن العجب أن السواد الأعظم من رجال الدين انفسهم ، وبخاصة الرهبان ، كانوا يشجعون هذا الاتجاه حسبما أسلفنا لما كان يعود به عليهم من سيطرة روحية وأثر مادى ملموس باعتبارها الواسطة بين الخالق والمخلـوق .

وبناء على ماتقدم ، وجد رد فعل قوى بين المثقفين ضد هذه الأساطير والخرافات الضاربة أطنابها فى شتى ارجاء الامبراطورية. ويلاحظ أن رد الفعل هذا كان أكثر وضوحا بين العلمانيين عنه بين رجال الدين للأسباب التى أوردناها وأكثر انتشارا فى آسيا عنه فى الولايات الأوروبية من الامبراطورية . فقد كان الغرب اللاتينى حصن الوثنية التى صمدت بعض الوقت أمام المسيحية ، بينما أسس قسطنطين الكبير عاصمته فى الشرق لتكون أصلا مدينة مسيحية الصبغة والطابع . هذا ، فضلا عن أن الشرق كان منذ القدم مهد الأديان والفلسفات واللاهوتيات . وقد تبلور كل هذا فى الحملة التى قام بها ليو الايسورى ضد

الأيقونات فى سنة ٧٢٥ ، أى بعد صد العرب عن القسطنطينية بحوالى سبع سنوات . فهاجم عبادة التماثيل وتقديس مريم العذراء وفكرة اسناد الكرامات الى القديسين . وقد أورث ليو هذا العداء لذريته من بعده . وكان ابنـــه قسطنطين الخامس (٧٤٠ — ٧٧٥) أكثر جراة منه عندما حاول القضاء على الرهبنة نفسها ، باعتبار أن الرهبان هم اشد المتحمسين لعبادة التماثيـــل تحقيقا لأغراضهم ومصالحهم .

على أية حال ، بدأ النزاع فى سنة ٧٢٦ عندما أصدر الامبراطور ليو الثالث أوامره بازالة الصور والتماثيل من العاصمة . وانقسم الشعـــب والكنيسة البيزنطية الى قسمين : القسم الأول يؤيد الامبراطور ويتكون فى معظمه من العلمانيين المثقفين ومن رجال الجيش وعلى رأسهم الامبرطـــورا نفسه بطبيعة الحال . وكان هؤلاء يشعرون بالخجل ازاء اتهام العرب لهـــم بعبادة الأصنام التى تعتبر أثرا واضحا من آثار الوثنية القديمة . أما القسم الثانى فكان يتألف من عامة الشعب ومن رجال الدين وعلى رأسهم الرهبان . فقد عارضوا هذه الحركة على طول الخط ، ووقفوا فى وجه الامبراطـــور ورجاله . وقالوا ان عبادة الصور امر طبيعى يرمز الى احترام صاحب الصورة نفسها . وجدير بالذكر فى هذا المجال أن موضوع عبادة الصور وتحريمهـــا لا يرجع الى عهد ليو فقط ، بل كانت هناك أحداث مباشرة فى نتائجها مثل تلك التى حدثت فى اسبانيا فى القرن السادس الميلادى فى أحد المجامع الدينية الذى حرم عبادة الصور ، أى قبل قيام ليو بحركته بفترة غير قصيرة . ومنذ هذا الوقت نستطيع القول ان اسم أيقونيين ولا أيقونيين قد بدأ يظهر بشكل واضح على مسرح الأحداث التاريخية .

كان المرسوم الذى أصدره ليو واضحا حاسما . اذ أمر بازالة الصور والتماثيل من الكنائس والأديرة . وقد أثار هذا العمل من جانبه العامة ورجال الدين حسبما أسلفنا . اذ اندلعت الثورة فى العاصمة ،وقامت جماهير الشعب الثائرة تفتك بالموظفين الذين كانوا يحطموا التماثيل . ورد الامبراطور على

ذلك باستخدام القوة . وتمادى بأن أمر بتنفيذ سياسته فى كل مكان بالامبراطورية وليس فى العاصمة فقط ،ولو اضطر الأمر الى استخدام السلاح . وهناك من يقول بأن الثورة على الأيقونات فى بيزنطة انما كانت بتأثير اسلامى مباشر ويدللون على هذا بأن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى عام ٧٢٣ — أى قبل حملة ليو بعامين — بازالة جميع الأيقونات الموجودة فى الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية . ومن هنا انتقلت الفكرة الى الدولة البيزنطية .

كيفما كان الأمر ، فقد قاوم الجمهور وبخاصة فى الولايات الاوروبية اجراءات الامبراطور مقاومة شديدة . وأخذوا يشنعون عليه ، واتهموه بالعمل على القضاء على المسيحية واعتناق المذاهب الوثنية . ومنهم من قال ان الخليفة يزيد أدخله سرا فى الاسلام . ولكن الأمر الذى لا خلاف فيه أن ليو كان يؤمن بفكرته ايمانا ثابتا . وأن بدأت المقاومة ضد الحملة اللاأيقونية سرا فى بادى الأمر ، الا أن الثورات سرعان ما شبت فى جميع أنحاء الدولة وبخاصة فى ايطاليا وبلاد اليونان ، وقد أريقت فيها الكثير من الدماء . ولعل من أهم الآثار التى ترتبت على هذهالحركة فى ايطاليا أن ضعفت سلطة الامبراطورية فيها بشكل خطير ، وأصبح ممثل الامبراطور فى روما مجرد شبح أو ظل لا حول له ولا طول . ولم يتسن تدعيم السلطة الامبراطورية بعد ذلك ، بل كانت هذه فرصة مواتية للبابوية لتثبيت نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية تنفيذا للسياسة الاستقلالية التى رسمها جريجورى الكبير أول بابوات روما ، وتعنى بذلك الاستقلال عن الدولة البيزنطية وكنيستها الشرقية . ولهذا السبب قاوم بابوات روما بشدة حركة تحطيم الأصنام ، واصبحوا على رأس الحزب المعارض للامبراطور تحقيقا لمصالحهم الخاصة . وبلغ بهم الأمر أن تحالفوا مع اللمبارديين فى شمال ايطاليا فى سبيل طرد الحاميات البيزنطية من جنوب ايطاليا . وقد وجدوا منهم العون والترحيب .

لقد كان طبيعيا أن تجد حركة الامبراطور ليو الثالث الايسورى اثرا معاديا فى غرب اوروبا الذى تمسك بالأيقونية . وكانت عوامل هذا التماسك متوافرة فى كيان المجتمع الأوروبى بشكل واضح . فقد ظل هذا المجتمع لفترة ما وثنيا حتى بعد ظهور المسيحية وانتشارها فى الغرب . ومن ثم فانهـــا عارضت هذا العمل بقوة ، واتخذت هذه المعارضة شكلا ايجابيا عندما أصدر البابا الرومانى جريجورى الثالث قرارا بحرمان الامبراطور اللاايقونى . ولم يسكت ليو ، اذ رد قرار حرمانه بحرمان بابوية روما من حقوقها واملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، كما فصل جميع الكراسى الأسقفية عـــن بابويـــة روما ، وحولها الى بطريق القسطنطينية . وكانت هذه الخطوة من جانبه عاملا جديدا يضاف الى العوامل السابقة ، مما زاد فى حدة الخلاف والشقاق بين العالمين البيزنطى والأوروبى الغربى وبين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية . وان دراسة أحوال اوروبا الحضارية فى ذلك الوقت تكشف عن الفوارق الحضارية واللغوية والفكرية والمذهبية بينها وبين بيزنطة التى كانت تتفوق عليها فى كل شىء . وعلى هذا ايضا نستطيع أن نفســر الكثير من المواقف المختلفة المتباينة التى سيقفها كل من اللاتين والاغريق ازاء الآخر ، وموقفهما حيال الأحداث التى جرت فى القرون التالية ، وبصفة خاصة أيام الحروب الصليبية . فجذور التباين فى موقف كل من الكنيستين لا ترجع الى القرن الحادى عشر فقط ، وانما ترجع الى القرن السابع الميلادى بسبب الفوارق العديدة بينهما فى اللغة والحضارة والتفكير ، فضلا عن الخلافات المذهبية التى تمتد الى أوائل القرن الرابع عندما أسس قسطنطـــين الكبـــير عاصمته على ضفة البسفور الآسيوية .

ولا يفاح هذه المسألة يحسن الاشارة الى حدث له أهميته وقع أيام الامبراطور هرقل . ففى عهده اتخذت الامبراطورية البيزنطية طريقا شرقيا هللينيا خالصا . لقد رأى الامبراطور نظم دولته متضاربة بين لاتينية ويونانية ، لهذا أمر بأن تصبح اليونانية هى اللغة الرسمية للدولة بعد أن كان النظام

الادارى خليطا عجيبا من اللغتين . وقل تبعا لذلك عدد المتكلمين باللاتينية قلة ملموسة فى القطاع الشرقى من الامبراطورية وفى القسطنطينية بصفة خاصة ، كما تناقص عدد المتكلمين باليونانية فى القطاع الغربى منها وخاصة فى روما . كذلك تخلى هرقل عن الألقاب اللاتينية القديمة ، ونراه يستخدم مثلا لقب باسيليوس Basilius اليونانى ومعناه حاكم أو ملك،وذلك بدلا من الألقاب الرومانية القديمة مثل امبراطور وقيصر واغسطس . وعلى هذا النحو سارت الامبراطورية فى طريق مخالف عن ذلك الذى سارت فيه روما القديمة ، واتسعت هوة الخلاف بين شقيها الشرقى والغربى ، حتى جاء النزاع الأيقونى فزاد هذا الخلاف حدة وعمقا . وأخذت الامبراطورية البيزنطية تتباعد تدريجيا عن الغرب الأوروبى ، فى ذات الوقت الذى اخذت فيه الحواجز الحضارية واللغوية والمادية والمذهبية تتعدد بين الجانبين،حتى بات كل قسم ينظر الى الثانى على انه مهرطق وعدوه اللدود . وكان لهذا انعكاساته — بطبيعة الحال — على العلاقات بين شقى اوروبا .

ذلك هو أثر الحركة اللايقونية بالنسبة للعالم المسيحى بصفة عامة وللكنيسة الغربية اللاتينية والعلاقات الغربية وقتذاك ، وفى الأحقاب التالية بصفة خاصة .

وفى هذا يقول أحد المؤرخين الأوروبيين المحدثين وهو جورج استروجورسكى : «.... لقد افتتحت الحملة على الأيقونات فصلا جديدا غير عادى فى التاريخ البيزنطى . وان معارضة ليو الثالث لعبادة الايقونات أثارت الأزمة التى ميزت تلك الحقبة من الزمن ، والتى جعلت الامبراطورية مسرحا لمنازعات داخلية حادة ، وقد امتدت أكثر من قرن . وقد تجمعت نذر الزوبعة فى بطء ، واتخذت شكل صراع ضد الصور والتماثيل بسبب المظهر الرمزى المادى الخاص الذى أصبح يرتبط بالأيقونات ، وذلك من وجهة النظر البيزنطية .

.... وكانت النتيجة السياسية الهامة لحركة محطمى الصـــور والتماثيل هى أن روما انفصلت عن الشرق اليونانى ، بينما انفصلت بيزنطة عن الغرب اللاتينى . وهكذا انتهت تلك الرابطة الروحية التى كانت تربط بين الامبراطورية البيزنطية والكنيسة الرومانية . »

ويجيب ستيفن رانسيمان عن الدوافع التى حدت بليو الثالث الى القيام بحركته ، قائلا : « .... ومن المحتمل أن يكون الدافع الأساسى لهذا الاجراء دينيا ، ولكن الحركة سرعان ما اصطبغت بصبغة سياسية ، وذلك فى مهاجمتها للكنيسة والأديرة بصفة خاصة ، والتى كان احرازها للأيقونات المقدسة من أسباب نمو قوتها المتزايدة . »

على أية حال ، لقد أثار ليو بحملته هذه الكراهية ضده من عامة الشعب ومن رجال الدين وعلى رأسهم الرهبان . وكان من الممكن أن يقضى عليـــه غضب الجماهير ، لولا الانتصارات التى أحرزها ضد العرب . وكان ليـــو نشطا الى حد كبير . فالى جانب اصلاحاته الدينية ، كان يعمـــل فى جميـــع نواحى الاصلاح الأخرى . فنشر مجموعة جديدة للقوانين باللغة اليونانية بدلا من اللاتينية التى كانت قد زالت تماما من شبه جزيرة البلقان .

وتستحق قوانين ليو وقفة قصيرة . فالمعروف أن جستنيان كان يهدف من اصلاحاته القانونية أن تصل الى درجة تقرب من الكمال . ولكن مشروعه فى هذا الصدد لم يتم ، ووضعت كثير من المؤلفات القانونية خلال القـــرن التالى له . ومع ذلك فقد استمر قانونه المدنى ساريا حتى عهد الامبراطور ليو الثالث . وكان ليو هذا رجلا متدينا ، وقد قاده تدينه من زاوية علم اللاهوت الى الحركة اللاايقونية ، كما قاده الى العمل على صبغ الدستور كله بصبغة انسانية . وقد انحطت الدراسات القانونية خلال القرن السابع الذى كانت البلاد فيه مسرحا للفوضى والاضطرابات . ولذلك كانت الحاجة ماسة الى وضع قانون جديد يلائم الأحداث والظروف الجديدة . وقد تم ذلك فى سنة

٧٣٩ ، عندما أصدر ليو قانونه المعروف باسم « الاكلوجا Ecloga » الذى قصد به كما يقول هو نفسه ادخال المبادىء المسيحيـــة فى القانـــون البيزنطى .

ويبدو هذا الأثر واضحا فى القانون الجنائى والمدنى فى قانون ليو ، من حيث تخفيف عقوبة الاعدام واستبدالها ببتر الأطراف ، كذلك فى تقييد الطلاق الا فى أربع حالات فقط هى : ارتكاب الزوجة جريمة الزنا ، وعجز الـــزوج جنسيا ، ومحاولة الزوج قتل زوجته أو العكس ، واخيرا مرض الجـــذام . كذلكرفع قانون « الاكلوجا » من منزلة المراة ، فأصبح للزوجة نصيب مماثل لنصيب زوجها فى ملكيتهما المشتركة ، وأصبح لها حق الوصاية على ابنائها هذا ، بينما تم تحرير الأطفال من سلطة الدولة عليهم ، تلك السلطة المعروفة باللاتينية باسم Pateria Potestas . وأصبح للكنيســة ، أيضا ، حق الوصاية على الأطفال اليتامى .

وفى كتاب « الفكر الاجتماعى والسياسى البيزنطى » يقـــول باركـــر « ان الاكلوجا ، أو المختارات المنتقاه ، عبارة عن قانون مختصر يشمل على أربعين فصلا أصدره باللغة اليونانية الامبراطور ليو الأيسورى . ويكشـــف عنوانه عن كنهه وطبيعته . فهو عبارة عن مختارات مختصرة من القوانـــين التى أصدرها ليو وابنه وخليفته قسطنطين ، الامبراطوران العاقلان الورعان وهذه المختارات مستقاة من مجموعة النظم والديجست ومجلـــة الاحـــكام والمتجددات التى اصدرها جستنيان العظيم . . . وهى عبارة عن نسخـــة منقحة انبثقت من نظرة انسانية أعمق للامور » ويزيد بينز وموســـ الامـــور وضوحا ، فيقولان فى كتاب « بيزنطة » ما يلى « يبدو أن سيـــاســـة ليـــو وقسطنطين الادارية قد اتبعت وسائل صائبة تستهدف حمايـــة السلطـــة المركزيـــة . . . هذا ، ويعتبر اصدار الاكلوجـــا ، وهـــو عبـــارة عـــن مجلة أحكام جديدة تتعلـــق بالمسائل القانونيـــة التـــى صبغـــت القانـــون بصبغـــة انسانيـــة أكبر وأعمـــق ، أمـــرا أكثر تطرفا . لقد كانت النظرة

الانسانية وحب الخير العام واجبا تقليديا من واجبات حكام روما حيال رعاياهم . ولكن القانون الجديد يدل على الانتقال من روح القانون الرومانى الى وضع مغاير ، وعلى وجه الخصوص فى مجال الأخلاقيات الفردية وما يتعلق بالحياة الأسرية . ثم انه عبارة عن محاولة لتطبيق المقاييس والقيم المسيحية على تلك العلاقات . ومما يدل على القوة الكامنة وراء التراث الذى خلقته روما الوثنية ، أنه رغما عن اثر الكنيسة المتجدد ، فقد كان ثمة عودة الى الأوضاع القديمة فى ظل النظام المقدونى . »

ولم يشغله هذا كله عن توجيه عنايته الى الجيش واعادة تنظيم مالية الدولة التى كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من السوء ، والاهتمام بالادارة المدينة وحسن نظام المقاطعات . فوضعت كل مقاطعة تحت ادارة قائد عسكرى ، وكانت القسطنطينية تشرف على هؤلاء الحكام العسكريين . ويكفى أن الامبراطورية أمكنها الاحتفاظ بسيادتها فى القطاع الشرقى حتى ظهور الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر . ومما يؤسف له أن المؤرخين من الرهبان الذين عاصروا هذا الامبراطور وكتبوا عنه ، لم يعنوا اطلاقا بالاشارة الى اصلاحاته المالية والمدنية وغيرها ، فى الوقت الذى بالغوا فيه فى اظهار عيوبه ومساوىء حملته ضد الأيقونات . وكان طبيعيا أن يقفوا منه هذا الموقف نظرا لمعاملته السيئة لهم وهم من اكبر المؤيدين لعبادة التماثيل والصور . ومما لاشك فيه أن اصلاحاته تركت أكبر الأثر ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالمقارنة بين حالة الاستقرار التى كانت عليها الدولة بعد موت ليو والفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى البلاد قبل اعتلائه العرش .

تطور الحركة اللاايقونية منذ وفاة ليو الثالث حتى نهاية حكم البيت الأيسورى:

وفى سنة ٧٤٠ م مات ليو الثالث تاركا الحكم لابنه قسطنطين الخامس (٧٤٠ — ٧٧٥) ، الذى واصل سياسة سلفه فى الصراع ضد عبادة الصور

والتماثيل ، وتوقيع اشد العقاب على أنصار هذه الخرافة . ولعل أهم مايمتاز به حكم قسطنطين هو استيلاء اللمباردين على مدينة رافنا Ravenna سنة ٧٥٠ ، وعلى باقى ممتلكات بيزنطة فى وسط ايطاليا ، تشجعهم على ذلك بابوية روما التى وجدت فى الحركة اللاأيقونية فرصة لتحقيق الانفصال الدينى والروحى عن بيزنطة ، حتى اذا كان عام ٧٥١ لم يعد للامبراطورية شيئا شمالى مقاطعة كالابريا Calabria . وقد ادى هذا الى الانفصال عن البابوية فى الغرب الذى كان له نتائج بعيدة المدى ، ووجد بابوات روما فى الفرنجة فى غالة حلفاء جدد لهم . وبالرغم من الهزائم التى لحقت بقسطنطين الخامس فى ايطاليا ، فقد أحرز عدة انتصارات على العرب والسلاف والبلغار . ومع ذلك كانت الاجراءات التى اتخذها فى الأمور الدينية تعتبر من أهم مميزات حكمه . اذ جمع فى سنة ٧٦١ فىالقسطنطينية مجلسا دينيا ضم عددا كبيرا من الأساقفة أعلن فيه أن عبادة الأيقونات تتنافى مع مبادىء العقيدة المسيحية ويعتبر هرطقة والحادا . وأخذ منذ ذلك الحين فى مهاجمتها فى كل مكان فى الامبراطورية . وقام بحمله صليبية ضد الرهبان الذين كانوا من اشد انصار عبادة الصور والتماثيل . فشرد وقتل البعض ، ونفى البعض الآخر ، واغلق الكثير من الأديرة ، ومنع الناس من الدخول فى سلك الرهبنة . وكان لهذه الاجراءات اثرا عكسيا ، اذ اعتبر الرهبان فى مرتبة الشهداء ، بينما ازداد تأييد الناس لعبادة التماثيل .

وخلف قسطنطين بموته فى سنة ٧٧٥ ابنه ليو الرابع (٧٧٥—٧٨٠) ، وهو أيضا من كبار محطمى الاصنام مثل جميع أفراد البيت الأيسورى . ولو أنه لم يلجأ الى أساليب والده العنيفة ، بل كان معتدلا مثل جده فى اضطهاده لانصار عبادة التماثيل . ولم يقدر له أن يعمر طويلا ، اذ مات مسلولا بعد حوالى خمس سنوات من توليه الحكم . وخلفه ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٨م) ، وكان اذ ذاك طفلا صغيرا فى العاشرة من عمره . واصبحت الامبراطورة الأرملة ايرين Irene هى الوصية عليه فى

الفترة من ٧٨٠ الى ٧٩٧ . وتمكنت من اكتساب حب الجماهير لها وعطف رجال الدين عليها بوقفها حركة اضطهاد أنصار عبادة الصور والأيقونات Image-Worshipper Iconodules اثناء فترة وصايتها على ابنها القاصر . وقد عقدت فى سنة ٧٨٨ صلحا مع روما ، ودعت المجمع المسكونى السابع والأخير فى المجامع المسكونية الكبرى للانعقاد فى مدينة نيقية للعمل على ارجاع عبادة الصور . وكان هذا مبعث سرور الكنيسة البيزنطية وغالبية الشعب . ولكن الجند الآسيويين لم يرضوا عن هذه الحركة ، وهم الذين ايدوا ليو الثالث وخلفاؤه فى حركتهم كما ساءهم أن تسوسهم امرأة ، خاصة عندما قويت شوكة العرب فى بغداد أثناء حكم بنى العباس . لكل هذا وقفوا منها موقف المعارضة .

وقد طغت الامبراطورة الوصية بظلها على ابنها القاصر . وفى سنة ٧٩٧ اعتقلته وسملت عينيه ، وحكمت بمفردها خمس سنوات (٧٩٧ — ٨٠٢) . وفى فترة حكمها قام البابا الرومانى ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) بتتويج شارل العظيم او شارلمان امبراطور على الغرب ، فحول اليه تلك التبعية الشكلية التى كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية . وكان هذا ايذانا بفصم ذلك الارتباط الذى ظل قائما بين روما والقسطنطينية منذ أيام الامبراطورية الأولى . ولا شك أن النزاع اللاأيقونى بالرغم من قرارات المجمع المسكونى الأخير — ، ووجود امرأة على العرش الامبراطورى ، كانا من أهم الأسباب التى اتخذها البابا ذريعة للدفاع عن عمله هذا . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية بكلمة أدق وأوضح فى التعبير .

وتميزت الفترة الاخيرة من حكم الاسرة الايسورية بكثرة ثوارتها وعودة الحركة اللاايقونية Iocnoclasm الى الظهور . وانتهى الأمر بأن خلع ايرين عن العرش وزير ماليتها المسمى نقفور الأول Nicaphorus I الذى حكم من سنة ٨٠٢ الى سنة ٨١١ . ونقفور هذا من أصل شرقى أقامت

اسرته فى آسيا الصغرى . ولذلك كان مثل أسلافه الايسوريين محطمـا للتماثيل ، رافضا بشدة اعادة عبادتها . ولم يشجع عبادها ومؤيديها ، حتى ان المؤرخين الذين كتبوا عنه ، وبخاصة الرهبان منهم ، تناولوا شخصيته بكثير من القدح مثلما فعلوا مع ليو الايسورى . ولم يحالفه الحظ على طول الخط فترة حكمه التى دامت تسع سنوات . اذ كان عليه مواجهة العرب والبلغار . وانتهى الامر باغتياله فى معركة ضد البلغار ، كما أصيب ابنه ووريثه ستوراكيوس Stauracius بجراح بالغة أودت بحياته هو الآخر بعد موت ابيه ببضعة اشهر ، ليخلفه فى الحكم زوج اخته ميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣) . وقد اثار ضده غضب الجيش والمثقفين من الشعب عندما ابعد أنصار تحطيم التماثيل عن الوظائف العامة ، وأبدى عطفا على الرهبان . وهو الامبراطور الوحيد من الذكور من الأسرة الأيسورية الذى دافع عن أنصار عبادة الصور . ولم يلبث ان ذهب ضحية ثورة عسكرية دبرها القائد ليو الأرمنى المعروف بليو الخامس . وفى فترة حكمه (٨١٣ — ٨٢٠) عادت الحملة على الأيقونات كحملة سياسية ضد رجال الدين والرهبان أكثر من وصفها بحركة دينية .

كان ليو الخامس من مواطنى الولايات الشرقية . فكان طبيعيا أن يعتنق مبادىء مؤسس الأسرة الأيسورية فيما يتعلق بتحطيم الصور والأيقونات . ولكنه اتخذ سياسة الحرص والحذر . فاتخذ حلا وسطا بين كسر التماثيل وعبادتها . وفكرته تقوم على السماح بعبادة التماثيل بعد تعليقها عالية عن الأرض حتى لا تكون فى متناول الناس ، فلا يتسنى لهم لمسها أو تقبيلها تبركا بها . وكانت النتيجة على عكس ماتوقع . إذ ثـار الرهبان ورجال الدين وعلى راسهم البطريق على تحريك الصور والتماثيل من مواضعها ، بينما اندفع الفريق الآخر من الجند الآسيويين داخل الكنائس عاملين الكسر والتشوية فى الصور والأيقونات التى عثروا عليها . ولذلك كانت الفترة التى حكمها مليئة بالاضطرابات الدينية . واضطر فى الفترة

الأخيرة من حكمه الى التخلى عن هذه الحلول النصفية التى اتبعها فى بداية عهده ، والتى خلقت له الكثير من المشاكل والمتاعب ؛ فحرم عبادة التماثيل تحريما باتا . ولتأكيد ذلك عقد مجمعا دينيا قرر فيه رجال الدين الشرقيين تحت ضغط من الامبراطور أن عبادة الصور والأيقونات هرطقة والحاد ؛ أما من تصدوا للدفاع عن عبادة التماثيل فقد صدرت ضدهم قرارات الحرمان الكنسى ، وكان على رأس هؤلاء البطريق البيزنطى نقفور . وانتهى حكم ليو عندما اغتاله فى سنة ٨٢٠ جندى يدعى ميخائيل العامورى من مقاطعة فريجية . وبه انتهى حكم الأسرة الايسورية ، وتبدا اسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى هى الأسرة الفريجية أو العامورية .

ويتحدث المؤرخ استروجورسكى عن الحركة اللاأيقونية أيام ليو الخامس الأرمينى فيقول انه « خلال تلك الفترة التى سادها السلم حاول ليو الخامس تنفيذ خططه المتعلقة بتحطيم الصور والتماثيل .... وكان لسياسة الامبراطور اللاأيقونية أثرها فى توحيد مختلف العناصر المتنافرة داخل صفوف الحزب الأرثوذكسى . وقبل أن يرتقى ليو الخامس العرش كان قد اعطى البطريق نقفور وعدا كتابيا مؤداه أنه لن يحدث أية تغييرات فى الوضع الدينى القائم . ولكن نقفور وجد نفسه الآن منغمسا فى صراع ضد عبادة الأيقونات التى أثيرت من جديد ، وقد انضم اليه خصمه الاسبق ثيودورستوديت . وقد أيد الاثنان بحماس زائد فى عدد من الرسائل الاستعمال التقليدى للأيقونات، وعارضا التدخل الامبراطورى فى شئون العقيدة . وبات الأمر أكثر وضوحا عما كان عليه فى القرن الثامن ، وهو أن الخيوط الدينية والسياسية قد تشابكت فى بعضها فى هذا الدور الثانى من الحركة اللاأيقونية . فقد سعت السلطة الامبراطورية الى التحكم فى الحياة الدينية ، وأن عليها مواجهة معارضة الكنيسة العنيدة ، وبخاصة جناحها المتطرف ... وكان الطريق ممهدا أمام الامبراطور ليبدأ مهمته،فقد كانت لديه فعلا الوسائل لتأييد سلطاته.

فذهب ثيودور وعدد من اتباعه الى المنفى حيث عوملوا معاملة سيئة للغاية . وخلع نقفور من منصبه ، وتربع على الكرسى البطرياركى فى يوم عيد القيامة من أول ابريل سنة ٨١٥ أحد رجال البلاط وهو ثيودوتس موليسينوســـس Theodotus Molissenus . ويرجع الفضل فى ذلك الى شرف أصله وقرابته للزوجة الثالثة لقسطنطين الخامس . »

الموضوع التاسع

الأسرة العامورية

(٨٢٠ — ٨٦٧)

استهل ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) حكم الأسرة العامورية الذى دام حوالى نصف قرن لم تنجز فيها شيئا اللهم الا موقف اباطرتها من الحركة اللاايقونية ، مابين مؤيد ومعارض ومتشدد ومتساهل . وكان هذا الرجل متحمسا لمذهب تحطيم الصور والأيقونات ، ولو انه حاول اخفاء تحمسه هذا بظهوره بمظهر المحايد حتى لا يسىء الى معتنقى التماثيل ولا الى محطميها وقد استدعى من المنفى عناد التماثيل الرهبان الذين كان ليو الأرمينى قد نفاهم فى أديرة بعيدة تخلصا منهم ، واعلن أمامهم بأن كل فرد له مطلق الحرية فى اداء العقيدة بالطريقة التى تروق له . ولم يكن هذا ليرضى عباد التماثيل بطبيعة الحال ، فطالبوا مخائيل باعادة تماثيلهم الى اماكنها ، ولكنه رفض طلبهم هذا . ولذلك لم يرض الرهبان عنه رضاء كاملا .

وبعد حكم استمر تسع سنوات مات ميخائيل العامورى دون أن يحقق الوحدة الدينية للامبراطورية المنهوكة القوى . وخلفه فى الحكم ابنه ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢) الذى كان هو الآخر من انصار الحملة على الصور مثل ابيه ، ولو أنه كان اقل تحمسا فى اضطهاده لأنصار هذه العبادة . لقد بدأ حكمه بأن أوعز الى البطريق البيزنطى يوحنا ، وكان محطما للتماثيل باصدار قرار الحرمان ضد جميع المخالفين له ، ومعاملتهم كوثنيين . كما لجأ الى جميع الأساليب من نفى وحبس وتعذيب وبتر أجزاء من الجسم ، ولو انه لم يستخدم ضد معارضيه عقوبة الاعدام . وزاد الأمور تعقيدا فى أخريات حكمه زواجه الثانى بعد وفاة زوجته الأولى ، من الأميرة ثيودورا التى كانت من اشد المتحمسين لعبادة التماثيل ، والتى استغلت نفوذها ومركزها ضد معتقدات زوجها . وكان موقفها من هذه الحركة قريب الشبه بموقف الامبراطورة ايرين من قبل .

وان كان الرجل قد اشتد فى معاملته لعباد الأيقونات ، الا ان عهده لم يخل من بعض المآثر . فقد امتاز بتشجيعه للعلم والتعليم ، وشاهد عصره نهضة علمية وفنية عظيمة اثرت فيها الى حد بعيد حضارة العباسيين فى

بغداد . وبعد موته سنة ٨٤٢ أصبحت أرملته ثيودورا وصيـة على ابنهـا الصغير ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧) ، وقد استمرت فترة وصايتها من (٨٤٢ الى ٨٥٦) . ولما كانت ثيودورا — مثل ايرين — من مناصرى الصور والتماثيل ، فقد اعادت فى سنة ٨٤٣ عبادتها ، الأمر الذى ارتاحت له الأغلبية الساحقة من جماهير الشعب ومن رجال الدين . وسرعان ماظهرت الصور والأيقونات على حوائط الكنائس بالقسطنطينية . وكانت الحركة سريعـة ومفاجئة حتى أن محطمى التماثيل لم يتحركوا ، كما أن الامبراطورة لم تتخذ من ناحيتها اية اجراءات بقصد اضطهادهم أو التنكيل بهم .

وكان لهذا السلام الدينى أثره فى حالة الانتعاش التى عمت البلاد بعد فترة غير قصيرة من الاضطرابات والقلاقل فى الداخل والخارج . ولم يقدر لهذه الفترة من الهدوء والرخاء ان تمتد طويلا ، اذ اغتال ميخائيل فى سنـة ٨٦٧ أحد أصدقائه وهو بازيل **Basil** المقدونى ، وتقلد السلطـة الامبراطورية (٨٦٧ — ٨٨٦) . وبه يبدأ تاريخ أسرة من أقوى الأسرات التى تربعت على عرش الامبراطورية البيزنطية زهاء قرنين من الزمـان ، ونعنى بها الأسرة المقدونية .

الموضوع العاشر

الاسرة المقدونية

(٨٦٧ — ١٠٥٧)

مقدمـــة :

لقد جعلت الأحداث السابقة الدولة تظهر بيزنطية تماما . فقد خرجت من أزمة الحركة اللاايقونية بعد أن عادت عبادة الصور الى ماكانت عليه من قبل . واستقلت كنيستها استقلالا تماما عن الكنيسة الغربية اللاتينيـــة ، وتأسست امبراطورية فى الغرب أصبحت بابوية روما تدين لها بالولاء ولو من الناحية الشكلية . وتخلصت بيزنطة من أشد اطرافها الداخلية خطرا عليها عندما اعتنق السلاف المقيمين على حدودها الديانة المسيحية ، بينما اعتنقت بلاد البلغار وروسيا ومورافيا المسيحية على مذهب الكنيسة الشرقية منذ أواسط القرن التاسع . وبذلك استراحت من تهديد سكان هذه البـــلاد لحدودها ، بعد أن أصبحت تتبع بطريق القسطنطينية من الناحية الدينية .

وقد تمتعت بيزنطة خلال حكم البيت المقدونى بكل مظاهر القوة والمجد . وساعدها على ذلك ان تعاقب على العرش منذ بازيل المقدونى عـــدد مـــن الاباطرة المقدونيين الذين نالوا شهرة كبيرة فى ميـــدان السياســـة والادب والحرب . هذا ، فضلا من أن الدولة كانت قد تخلصت منذ أواخر القـــرن التاسع من مشاكلها المختلفة . وترجع عظمة أولئك الأباطرة انهم عملـــوا جاهدين على تأسيس بيت امبراطورى ثابت الأركان فى قلوب جماهير الشعب كما برهنوا بسياستهم وأعمالهـــم على استحقاقهـــم للوظيفـــــة الامبراطورية واللقب الامبراطورى . لقد كانوا رجالا قادرين ، ونجحـــوا نجاحا كبيرا فى خدمة الدولة وخدمة البيت المقدونى . ولم يبعثروا ثروة البلاد هباء أو نواح ليس من ورائهـــا أى نفـــع أو فائـــدة . بل كـــان همهـــم أن تنمو ثروة الدولة وتنفق فى الوجه الصحيح لها . كما استخدموا الكفاءات المغمورة لتنفيذ سياستهم . وقصارى القول انهم اجمعوا على أن تكون الدولة البيزنطية اعظم دولة فى الشرق ، وأن تكون هللينية المظهر والطابع بكـــل ماتحمله هذه الكلمة من معان .

الامبراطور بازيـل الاول (٨٦٧ — ٨٨٦)

لم تكن حالة الدولة مستقرة تماما فى الوقت الذى جاء فيه بازيل الأول ، بل كانت فى امس الحاجة الى من يضع لها اسس الاستقرار . واثبت بازيل المقدونى انه يستطيع القيام بذلك العمل . لقد كان فلاحا خشنا مخاطـرا ، يمتاز بمقدرة وكفاءة كبيرين ، وبثقافة وذكاء متوسطين ، مع عزيمة قويـة وشىء من المكر والخداع . وقد جعلت منه هذه الصفات امبراطورا نافعا للدولة فى تلك الفترة من تاريخها . ثم أنه كان متحمسا لاستعادة النظـام الامبراطورى وهيبة الدولة التى كادت أن تفتقدها فى الخارج . ونجـح فى اكتساب احترام الناس ومهابتهم له ، كما وطد اقدام اسرته حتى أصبح الناس يتجاهلون انه اغتصب العرش .

واتجه بازيل اول مااتجه نحو الدولة العربية ، وكانت الظروف مواتية له . اذ كانت الامبراطورية الكارولنجية فى الغرب فى شغل عنه . فسعـى الى تسوية حدود دولته فى نواحـى آسيـا الصغـرى ، وكانـت الدولة العربية فى الشرق تعانى من الضعف والتفكك بسبب استقـلال خراسان وتأسيس الدولة الطاهرية بها ، بينما كان احمد بن طولون يؤسس لنفسه دولة فى مصر . وغير هذه وتلك من الحركات الاستقلالية فى كثير من الولايات فى دولة الخلفاء . ولذلك لم يجد من القوى العربية مايحاربه سوى أمراء طرسوس وبلاد الشام ، وكانت جيوش الدولة العباسية فى شغل عن ذلك . لكل هذا نجح فى دفع العرب شرقا على طول خط الحدود بين الدولتين من كيليكية فى الركن الشمالى الغربى من البحر المتوسـط الى ارمينيـة وطرابيزون . وبذلك أصبحت جميع المنافذ التى اعتاد العرب الزحف منهـا الى داخل آسيا الصغرى فى قبضة الجيش البيزنطى .

وخطا بعد ذلك خطوة لا تقل أهمية عن سابقتها ، وهى نجاحه فى اعادة نفوذ بيزنطة القديم فى ارمينية المسيحية . ولذلك أهمية من وجهة النظـر

البيزنطية فى دفع العرب عن اطراف الدولة . واعتبر ذلك ركنا هاما من أركان السياسة البيزنطية الخارجية . وقد وفق الامبراطور بازيل ايضا فى غربى البحر المتوسط حيث كان المغاربة قد استولوا على كريت وصقلية وتارنتوم ، وضيقوا على تجارة بيزنطة فى تلك الجهات . وكانت سيادة العرب على البحر المتوسط فى أواخر القرن التاسع سيادة فعلية لاينافسهم فيها أحد ، حتى أن سفنهم أصبحت تهاجم الأملاك البابوية فى أواسط ايطاليا . وكان الأمل ضعيفا جدا من ناحية البابوية أو الدولة الكارولنجية لدفع العرب بسبب المنازعات القائمة فى البيت الكارولنجى واخطار الشماليين ، حتى أن البابا وامبراطور الدولة الكارولنجية أرسلا الى بازيل يطلبان منه مساعدتهما ضد العرب . وكان طبيعيا أن يرحب الامبراطور البيزنطى بتلك الفرصة التى اتيحت له لاستعادة النفوذ البيزنطى فى ايطاليا والبحر المتوسط . وتدخل نتيجة لذلك فى شئون ايطاليا فى سنة ٨٧٦ ، واجلى العرب عن تارنتوم بعد ذلك بأربع سنوات . وانشأ اقليمين بيزنطيين فى أملاك الدولة الكارولنجية التى بادرت الى مساعدته والانضواء تحت لوائه . وبانتهاء الدولة الكارولنجية وقيام عدة دول مستقلة وهى فرنسا والمانيا وبرجنديا وايطاليا ، خلا الجو لبيزنطة لتحقيق أطماعها فى ايطاليا ، بل وفى اوروبا كلها . ولعل بازيل كان يطمع فى مد نفوذه غربا كما كان الحال أيام جستنيان . والدليل على ذلك أنه فاوض البابوية فى بداية حكمه فى أمر توحيد الكنيستين اللاتينية والاغريقية . ولاشك أنه كان يستهدف من وراء حركته هذه العمل على زيادة نفوذ الكنيسة الشرقية ومد سلطانه الى الغرب . وقد يبدو نجاح تلك الحركة فى ظاهره انتصار للبابوية فى روما التى ظلت تنادى بعالميتها وأسبقيتها على باقى الكنائس المسيحية ، الا أنه كان انتصارا زائفا ، فلم تتخل الكنيسة البيزنطية اطلاقا عن عدم اعترافها بتبعيتها لروما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد انه جعل نوعا الوفاق الظاهرى بين الكنيستين ، ولكنه كان وفاقا مؤقتا لم يلبث أن تكشف امام الخلافات القديمة المزمنة .

واذا نظرنا الى سياسة بازيل الداخلية، نجد أنه وفق فيها الى حد بعيد . فقد أحدث اصلاحات ضخمة فى التشريع والقوانين . ولعل اهم مايذكر له بالفضل ، هو تلك القوانين المنسوبة اليه والمعروفة باسم بازيليكا Basilika ، والتى حلت محل القوانين التى جمعها ليو الأيسورى المعروفة باسم الاكلوجا Ecloga وتعتبر مجموعة البازيليكا هى آخر عمل قانونى قام به امبراطور بيزنطى . وجدير بالذكر انها كانت مكتوبة باليونانية حتى تصبح فى متناول الجميع . وأن دل هذا على شىء ، فانما يدل على أن الدولة أصبحت يونانية هللينية . وهكذا نتج عن حركة الاصلاح هذه ، تلك المجموعة فى القانون المدنى التى سارت عليها بيزنطة فى تاريخها كله .

ويتحدث المؤرخان بينزوموس فى كتابهما عن بيزنطة عن بازيل الأول والتشريع.يقولان ان حكم كل من بازيل الأول وليو السادس يعتبر آخر العهود الخلاقة المبدعة فى التشريع الرومانى . فلقد تم جمع وتنظيم التراث القانونى فى تلك المجموعة الضخمة المعروفة بالبازيلكيا ، بحيث تلائم مطالب واحتياجات العصر الجديدة . وجدير بالاشارة أن من أولى ميزاتها الرئيسية هى العودة الى قوانين جستنيان ، بالغاء القوانين والمبادىء الثورية التى أدخلها الحكام اللاايقونيون .

ولمزيد من الايضاح نقول ان بازيل كان يرغب فى الغاء تشريعات البيت الأيسورى اللاايقونى من ناحية ، والعمل على اضعاف سلطة الكنيسة من ناحية اخرى . ولذا اتخذ عدة خطوات للعودة الى قانون جستنيان كما سلف. وأصدر فى أوائل حكمه كتيبا جديدا يسمى بروخيرون Procherios Nomos ليحل محل الاكلوجا ، وكان ذلك بصفة مؤقتة الى أن يتسنى له اعداد قانون كامل جديد بعد ان تستبعد من القوانين السابقة المواد التى أدخلها محطمو الصور والتماثيل الأيسوريون . وتم فيما بين عامى ٨٧٩ و ٨٨٦ جمع كتيب

آخر منقح هو الابانا جوج Epanagoge ويرجح ان الدولة لم تقره ، وأنه لم ينشر قط . وعندما خلف ليو السادس أباه الامبراطور بازيل المقدونى ، قام بنشر القانون المعدل فيما عرف باسم البازيليكا Basilika أو « الأوامر الامبراطورية » . وهو يقع فى ستين كتابا ، وغدا منذ ذلك الحين حجة فى القانون الامبراطورى . ولم يصل الينا هذا القانون كاملا . والمعروف ان ليو العاقل اضاف اليه قوانين أخرى جديدة تحت اسم « المستجدات » Novelle.

ولما كان بازيل هذا اوروبى الأصل ، فقد اضطهد بشدة محطمى التماثيل ، وبخاصة طائفة البوليسيون Paulicians واتباعها من المسيحيين الشرقيين الذين انتشروا فى أرمينية وآسيا الصغرى منذ القرن الخامس الميلادى . وكانوا يعتنقون مبدأ كسر التماثيل . ومن آرائهم ايضا انكار عبادة العذراء والقديسيين ، وانكار صحة العشاء الربانى ، وعدم الاعتراف بسلطة رجال الدين .

لقد بلغ من توفيق بازيل المقدونى فى الميدانين الداخلى والخارجى أن أرسل الى الامبراطور لويس الثانى يطلب اليه ان تكون بأوروبا امبراطورية واحدة كما كان الحال فيما مضى ، وتلك الامبراطورية هى الدولة البيزنطية دون سواها . على أن الامبراطور الطموح توفى فى ظروف أليمة سنة ٨٨٦ ، وخلفه فى الحكم ابنه ليو السادس المعروف بليو العاقل Leo VI the Wise

ليو السادس (ليو العاقل) (٨٨٦ — ٩١٢)

وكان ليو العاقل على خلاف أبيه . فقد كان بازيل فلاحا خشنا نشأ فى حياة كلها تقلبات ، على حين نشأ أولاده نشأة الملوك داخل البلاط . فقد كان ليو فقيها يقرض الشعر ، كارها للخشونة محبا لحياة القصور والبلاط . ومن أهم ما يميز حكمه مسألتان هما التنظيم الادارى ومشكلة وراثة العرش . فقد أحدث بالدولة البيزنطية انقلابات بعيدة الأثر . كما تطورت مسألة ايجاد

وريث للعرش الى تقرير الحق الشرعى لأبناء الأباطرة . وبذلك تم ربط ابناء البيت المقدونى بالدولة البيزنطية ربطا لم تتمتع به كثير من الأسر الأخرى التي تولت الحكم فى بيزنطة من قبل او من بعد . وثارت هذه المسالة بعد وفاة زوجتة ليو السادس فى سنة ٨٩٤ دون أن تنجب له وريثا للعرش ، فتزوج من احدى نساء البلاط . ولكنها توفيت أيضا دون أن تنجب . فعمد ليو الى الزواج مرة ثالثة متخطيا بذلك القانون الكنسى والمدنى . ولكنها ماتت هى الاخرى سنة ٩٠٠ دون ان تعقب له ولدا . ولما كان هدفه من وراء ذلك هو ايجاد وريث له يخلفه فى الحكم ، فقد عمد الى الزواج مرة رابعة سنة ٩٠٥ ، واثمرت تلك الزيجة الرابعة ولدا . ولكن الكنيسة البيزنطية لم تعترف بزيجاته هذه لمخالفتها لقوانينها . واقترحت فصل الامبراطور عن امراته بعد أن انجبت له وريثا ، حتى لايخالف الكنيسة والقانون . ولم يتوقع ليو السادس هذا الموقف من الكنيسة لأن غرضه من زيجاته كان سياسيا بحتا ، وهو السعى بأى وسيلة وبأى ثمن لوجود وريث للعرش ضمانا لاستمرار تسلسل البيت المقدونى . وكحل وسط للأزمة الناشبة بين الفريقين اقترح بطريق القسطنطينية وتتذاك المسمى نيقولا مستيكوس **Nicolas Mysticus** الاعتراف ببنوة الطفل وتعميده ، على أن ينفصل الامبراطور عن زوجته الرابعة . ولكن الامبراطور رفض هذا الاقتراح ايضا . وثار الخلاف بين الاثنين ، واخذ كل منهما فى تحدى الآخر . والواقع أن هذا الخلاف بين الامبراطور والبطريق لم يكن مجرد خلاف حول مسالة زواج ، بل كان ليو يريد تاسيس الأسرة المقدونية وتعزيز اقدامها فى الحكم ، فى حين أن البطريق نيقولا كان يريد تطبيق قوانين الكنيسة وتقاليدها المرعية ، دون نظر الى صالح البيت المقدونى . ولا شك أن الكنيسة الشرقية فى تصرفها هذا انما كانت تسعى الى تعزيز استقلالها حتى على الامبراطور نفسه . واستمر الامبراطور فى تحديه للبطريق ، فعمد من بعد تعميد ابنه فى يناير سنة ٩٠٦ الى تعزيز مركز زوجته الرابعة باعلانها امبراطورة . ولم ياخذ البطريق بهذا

الوضع ، واصدر قرار القطع ضد الامبراطور ومنعه من دخـــول كنيســـة سانت صوفيا.وحلا للاشكال الذى بدأ يتطور تطورا خطيرا ، اتفق الاثنان على تحكيم بابا روما الذى افتى بشرعية الزواج . ولعله كان يسعى من وراء ذلك أن تتسع الهوة بين الامبراطور والبطريق البيزنطى مما يعود بالنفع عليه وعلى كنيسة روما اللاتينية ومطالبها فى السيادة العالمية . وهكذا ذهب البطريق البيزنطى ضحية موقفه . والمهم من هذا كله ان الامبراطور ليو فى سبيل أن يجعل لمبدأ الوراثة الشرعية مكانه فى التشريع البيزنطى ، نراه يتحدى البطريق ويخالف الكنيسة ويضرب بتعاليمها عرض الحائط .

ولم يكن هذا المبدأ هو كل ماادخله ليو السادس فى التشريع البيزنطى، بل انه ادخل الكثير من المبادىء مما يجعل عهده من العهود الهامة فى التشريع من الناحيتين الدينية والادارية . وامتد نشاطه كذلك الى التاليف فى الكثير مما يتعلق بشئون الدولة وانظمتها . ومن ذلك كتاب المحتسب البيزنطى الذى أوضح فيه جميع الصناعات والأصناف والسلع والتجارة فيها . وهو أيضا صاحب كتاب البروتوكول الامبراطورى لتنظيم البلاط واصحاب الرتب . كما وضع كتابا مختصرا فى فن الحرب يتناول النظم والاساليب الحربية وفـــن الحرب النظرى فى أيامه . كما أنه يعطينا صورة دقيقة عن الجيش البيزنطى واساليبه فى الحرب والقتال ، وصورة عامة سريعة عن الأعداء الذى كان عليه مقاومتهم .ومن هذا الكتاب الأخير نعرف أن فرق الفرسان الثقيلة كانت لاتزال تعتبر العمود الفقرى للقوة الحربية البيزنطية . وكانت توجد فرقة فى وكان افراده يجمعون من رعايا الامبراطورية ، بينما كان القواد يختارون من
وكان افراده يجمعون من رعايا الامبراطورية ، بينما كان القواد يختارون من
الارستقراطية ، ومن بيوت الاشراف التى ورد ذكرها فىالسجلات الملكية مثل بيوت دوكاس **Ducas** وفوكاس **Phocas** وكومنين **Commenus** وديوجينيس **Diogenes** وغيرها . والمتصفح لهذا الكتاب يلمس ثقة مؤلفه فىقوة الجيش البيزنطى وقدرته على ملاقاة الأعداد . وفيه الكثير من

النصائح التى يمد بها قواته . كما أمدنا فيه ، أيضا ، بصورة واضحة عن كيفية تنظيم الجيش وتسليحه وتموينه ، وعن ملبسه والعناية التى تبذل للجند الجرحى فى ميدان القتال ، وما الى ذلك من البيانات والمعلومات الدقيقة . كذلك الجرحى فى ميدان القتال ، وما الى ذلك من البيانات والمعلومات الدقيقة . كذلك كانت تحتفظ بثلاثة اساطيل ، أحدها فى البحر الأسود ، والثانى فى المياه الغربية ، والاخير فى بحر ايجه . والأسطول الاخير هو اكبرها عدة وعددا وحجما ، وقاعدته فى القسطنطينية نفسها . هذا ، فضلا عن الموانى العديدة الموجودة فى ساموس وسالونيكا وغيرها ، حيث كانت ترسو السفن وتستصلح قطع الأسطول التى يصيبها التلف .

ويضاف الى هذه المؤلفات التى انتجها ليو السادس مجموعات من القوانين التى كان يصدرها بين وقت وآخر . كما أشرف على مجموعة أخرى من القوانين هى مجموعة القوانين الامبراطورية . وكان فى هذا متمما لعمل أبيه . فقد جمع منها مؤلفا ضخما يشمل ٦٠ مجلدا متضمنا جميع القوانين الامبراطورية منذ عهد جستنيان . وبالاضافة الى كل هذه الأعمال التى قام بها ، فقد كان ليو السادس خطيبا ، وله مجموعة كبيرة من الخطب والمقالات والمواعظ الدينية التى كتبها فى شتى المناسبات . وله فى الآداب الدينية آثار معروفة ، سجلت فى كتب تداولتها الأيدى . كما أن له كتاب عن التنبؤات وهو عبارة عن مجموعة من الالغاز والأحاجى السياسية التى تتعلق بالاتراك والبنادقة . وكتاب آخر فى مستقبل الامبراطورية البيزنطية التى تركها بوفاته سنة ٩١٢ .

الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ — ٩٥٩)

كان عهد الدولة البيزنطية أيام حكم ليو السادس وأبيه خصيبا للدولة فى الناحيتين الخارجية والداخلية . وخلف ليو ابنه قسطنطين السابع ، وكان اذ ذاك طفلا فى السابعة من عمره ، فتولى شئونه مجلس من الأوصياء انصرفوا على تدبير المؤامرات والتكالب على الحكم . وانتهت تلك الفترة

المضطربة بقيام عم للامبراطور هو الاسكندر بتدبير شئون الدولة الى ان يصل قسطنطين للسن التى تؤهله للحكم . واستمرت تلك الفترة المضطربة من سنة ٩١٢ الى سنة ٩٤٤ . وكان من أبرز شخصياتها الاسكندر عم الامبراطور ، وكذلك أحد المتآمرين الذى كان يطمع هو الآخر فى الوصول الى العرش الامبراطورى ويدعى رومانوس الأول ليكابينوس R manus I Lecapenus أما الاسكندر فلم يمتد به العمر ، اذ توفى سنة ٩١٣، بينما اقلق مجلس الوصاية على الامبراطور القاصر الدولة بمؤامرته ومنافساته ، الى أن انفرد أحد أعضائه ، وهو رومانوس ليكابينوس بالوصاية على الطفل قسطنطين السابع . وأخذ يمكن لمركزه بتزويج الامبراطور قسطنطين من ابنته . وقد أفاد ليكابينوس الامبراطورية بالاصلاحات والتنظيمات التى أدخلها باسم قسطنطين السابع حتى يعزز مكانته فى قلوب الناس ، مما يسهل عليه تحقيق أطماعه فى الكرسى الامبراطورى . وبذلك انقذ البلاد من شر الفتنة والانقسام الداخلى الى أن تسلم قسطنطين السابع زمام الأمور فى البلاد سنة ٩٤٤ . واستمر ليكابينوس يمهد الجو لنفسه ولبنيه بطريقته الهادئة . ولكن أولاده وهم خريستوفر Christephar وستيفن Stephen وقسطنطين ليكابينوس أفسدوا عليه خطته ، وانتهى الامر بنفيه الى احدى الجزر القريبة من القسطنطينية سنة ٩٤٥ . وظن أولاده ان الجو قد خلا لهم لتحقيق أطماعهم . ولكن سرعان ما قبض عليهم هم أيضا وارسلوا حيث يوجد أبوهم فى المنفى .وفى سنة ٩٤٨ مات رومانوس ليكابينوس نفسه ، ولم يبق من ذريته الا بناته .

ولم يكن قسطنطين السابع الذى أصبح امبراطورا بسنة ٩٤٤ ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، صالحا لهذه الوظيفة ، لأنه كان قريب الشبه بأبيه من حيث حبه لحياة اللهو والقصور وانصرافه الى الكتابة والتأليف . هذا ، بينما صارت الأمور فى الدولة الى زوجته الامبراطورة هيلانه . ومن الانصاف القول ان الدولة أفادت من ذلك فى بعض النواحى الداخلية البحتة . اذ اختص

قسطنطين السابع كتاب القوانين الامبراطورية . ثم أن حبه للقصر وحياة البلاط جعله ينصرف الى جعل البلاط البيزنطى أبهى فى عصره . وكان يعرف عنه انه اكثر رجال العصر دراية بواجبات رجال البلاط والحكام . ولعل أجل خدمة اداها قسطنطين السابع للدولة فى حدود طاقاته وامكانياته هى اهتمامه بالعلم فى الاقاليم . ويلاحظ انه فى هذه الناحية يعتبر خارجا على التقاليد المرعية فى التعليم فى العصور الوسطى ، سواء فى بيزنطة أو فى غيرها . اذ كان التعليم قاصرا على العاصمة وحدها وهى القسطنطينية ، كما كان التعليم فى الدولة الاوروبية قاصرا على ما تقوم به الكاتدرائيات والكنائس والاديرة فى مدارسها . ولذلك عنى عناية خاصة بشئون التعليم فى الاقاليم وفى القسطنطينية نفسها بطبيعة الحال . واهتم بأن يشغل مناصب الأستاذية النابهون المتضلعون فى نواحى اختصاصاتهم . ووجه عناية كبيرة الى طلبة الجامعة بالقسطنطينية . وافادت الأقاليم من ذلك ، اذ لجأ طلاب العلم فيها الى القسطيطينية لتلقى العلم فى جامعاتها .

وكان قسطنطين مثل أبيه من المحبين للكتابة والتأليف . وله مؤلفات عديدة منها « كتاب الأقاليم » أو « المناطق العسكرية » . ويمدنا فيه بسجل واف للولايات وحدودها وسكانها ومواردها . وكذلك كتاب تنظيم الادارة فى الامبراطورية ، ويتضمن العديد من التوجيهات بشأن سياسة بيزنطة الخارجية ويستعرض فيه أحوال الأمم التى لها علاقات مع الدولة البيزنطية . وكتب قسطنطين ، أيضا ، حياة جده الامبراطور بازيل المقدونى ، وتكلم عنه باحترام وتقدير زائدين . أما أطول مؤلفاته فهو كتاب « مراسم القصور » ، وضمنه قواعد المعاملة فى البلاط وآداب السلوك ، وفيه يصف سلطة الامبراطورية ، وحقوقها وواجباتها ، وكل ما يتعلق بالحياة داخل القصر الامبراطورى من حيث الادارة المالية للقصر وكيفية تنظيم الاحتفالات الرسمية ، وكل ما يمت الى الاتيكيت والبروتوكول بصلة . وهكذا بذل جهدا ووقتا كبيرين فى كتابة هذه المؤلفات وغيرها الى أن توفى سنة ٩٥٩ .

ويقول بينزوموس عن قسطنطين السابع ما يلى :

« وبقسطنطين السابع نصل فى القرن العاشر الى المؤرخ الامبراطورى وسيد التجميع من الكتب والمؤلفات ، وهى الطريقة التى أرسى أسسهـا فى القرن السابع البطريق فوتيوس . ويمكننا أن نمر فى لمحة عابرة على تلـك المؤلفات التاريخية المجمعة ، التى وضعت بتأثير من هذا الملك ، وهى : تاريخ الأباطرة لجنسيوس ، وذيل أو صلة حولية ثيوفانيس ، والمجموعة التاريخية الكبيرة التى تقع ثلاثة وخمسين كتابا لم يبق منها سوى أجزاء ونتف. كما يمكن أن نستعرض فى ايجاز شديد الأعمال التى يبدو أن قسطنطين قد أسهم فيها بمجهود شخصى ملموس . فمن مؤلفاته « كتاب الأقاليم » و « كتاب المراسم » وهو مؤلف من قطع مختلفة مترابطة متماسكة ، ويتناول الأباطرة الذين سبقـوا قسطنطين وأولئك الذين جاءوا بعده . ولهذا فهو يتضمن زيادات أضيفت اليه فى فترة متأخرة . كما يشمل هذا الكتاب فهارس للمقابر والاردية والأشيـاء الثمينة . فضلا عن وصف المراسم والاحتفالات التى يدل عليها عنوان الكتاب . « ولهذه الأوصاف قيمة كبرى لأنها تمدنا بمعلومات كافية عن البيروقراطيـة البيزنطية والبلاط الذى يتميز ببهائه والطقوس الدينية . ويحتمل أنه وضـع فى نفس الوقت الذى وضعت فيه الفصول المتقدمة من كتاب المراسم كتاب آخر ليكون هديا ونبراسا لرومانوس الشاب ابن قسطنطين ، والذى عرف فيما بعد باسم رومانوس الثانى . ويعرف هذا الكتاب عادة باسم «تنظيم الادارة الامبراطورية» ويحتمل ان تاريخه يقع فيما بين عامى ٩٤٩ و ٩٥٣ ..... وآخر مؤلفـات قسطنطين هو كتاب « تاريخ حياة بازيل » الذى يدافع فيه عن جده ، ويمتاز أساسا بتلك المقدرة التى تتضح فى تغاضى قسطنطين عن الجوانب السيئة فى أعمال بازيل الأول ...... »

سياسة بيزنطة الخارجية فى النصف الأول من القرن العاشر فى عهد كل من ليو السادس وقسطنطين السابع (٨٨٦ ــ ٩٥٩)

تحدثنا عن قيام البيت المقدونى وعن بعض الأباطرة الادباء والكتاب من أبناء هذا البيت مثل ليو السادس وقسطنطين السابع ، والانتاج الذى خلفوه لنا . أما اذا انتقلنا الى سياسة بيزنطة الخارجية وقتذاك ، نجد انه بدت منذ أوائل القرن التاسع نهضة حربية اخذت تتحرك من بلاد المغرب نحو شرقى البحر المتوسط . فاحتل العرب جزيرة كريت سنة ٨٢٦ ،وتوالت حملاتهم بعد ذلك على كثير من البلاد الساحلية المطلة على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط، مثل طرسوس وطرابلس الشام . وتركزت تلك المجهودات الحربية حول جزر بحر الأرخبيل . ولهذا نرى الامبراطور بازيل الأول يوجه عناية خاصة للبحرية البيزنطية،وان لم يستطيع اخراج العرب من جزيرة كريت .وحاول الامبراطور ليو السادس نفسه الكرة سنة ٩١٠ ، وان لم يحالفه التوفيق هو الآخر . فقد كانت السيادة العربية فى تلك الجهات منيعة لم يكن من السهل الانتقاص منها. واخذ العرب يضيفون بلادا جديدة الى فتوحاتهم فى الجزء الأوسط من البحر المتوسط ، بان استولوا على المدن وهى راجيو Ragg o الواقعة فى طرف شبه جزيرة ايطاليا . كما أن صقلية أضحت كلها بأيدى الأغالبة ، واعلن أمير القيروان أنه سيواصل الزحف والفتح حتى روما نفسها. وكانت هذه البلاد تابعة للدولة البيزنطية التى لم تستطع القيام بأى عمل ضد هذا التقدم ، وذلك لانشغالها فى شبه جزيرة البلقان بسبب البلغار . أما الامبراطورية الرومانية الغربية فكانت ، هى الأخرى ، فى شغل شاغل عن تقدم القوات العربية من جنوب ايطاليا حتى جنوب حدود الأملاك البابوية ، بسبب التفكك الداخلى الذى دب فى أوصالها وانشغالها فى صد اغارات الشماليين .

واذا عدنا الى بيزنطة نجد أن البلغار كانوا مصدر متاعب ومضايقات

مستمرة على حدود الدولة منذ القرن السادس الميلادى . ولم ينته القـــرن التاسع حتى أضحى البلغار دولة قوية مرهوبة الجانب تمتد من ضفاف الدانوب شمالا الى جبال البندوس . وكانت بولندا ومورافيا تكونان جزءا من تلك الدولة الواسعة . واخذ ملوكها ، بعد ان اشتدت سواعدهم ، يتحدون السيـــادة البيزنطية على البلقان ، خاصة بعد اعتناق البلغار الديانة المسيحية . اذ اراد الملك سيمون البلغارى (٨٩٣ — ٩٢٧) أن يجعل السيادة البلغارية فى البلقان حقيقة واقعة ، وأن يستولى على القسطنطينية نفسها ، وأن يضم الدولـــة البيزنطية الى ملكه . وكان هذا من أكبر الأخطار التى هددت امن الدولــة البيزنطية وقتذاك . ولذلك تطلع الشعب البلغارى الى سيمون باعتباره أداة طيبة تنفيذ أطماعه البعيدة على حساب الدولة البيزنطية . والواقع أن سيمون هذا كان على معرفة بالقسطنطينية وحضارتها منذ أن أقام بها كرهينة حربية عندما كان أبوه ملكا على البلغار . وكان سيمون معجبا بالثقافة البيزنطيـــة حتى أنه طمع فى أن يكون صاحبها ، وفى أن يضع تاجها على رأسه . ولتنفيذ مشروعه هذا أخذ يتلمس الأسباب لاعلان الحرب على الدولة البيزنطيـــة . وواتته الفرصة عندما أمر الامبراطور ليو السادس بنقل التجار البلغار من فنادقهم بالقسطنطينية الى مدينة تسالونيكا . وكان هدفه من وراء ذلك حماية التجار البيزنطين من منافسة البلغاريين لهم فى العاصمة . ولم يكتف البيزنطيون بذلك ، بل حملوا الامبراطور على فرض ضرائب خاصة على اسواق تسالونيكا حيث كانت المصالح البلغارية قد اخذت فى النمو . ولما فشل سيمون ملك البلغار من دفع الغبن الذى لحق بتجاره بالوسائل السلمية ، عمد الى الحـــرب . وهكذا اعلن الحرب ضد البيزنطيين لخدمة المصالح الاقتصادية البلغاريـــة التى أساءت اليها الاجراءات التى اتخذها ليو السادس . هذا من ناحيـــة ولتحقيق الاطماع البلغارية فى بيزنطة نفسها من ناحية اخرى . وبدأت الحرب بين بيزنطة والبلغار التى استمرت قرابة مائة عام .

ولم يكن باستطاعه الدولة البيزنطية فى اوائل القرن العاشر تأديـــب

البلغار على جرائتهم لما كان لديها من مشاغل بسبب فتوحات العرب البحرية. لذلك انتهت المرحلة الأولى من الحرب بين الطرفين بمعاهدة فى سنة ٩٠٤ فى صالح البلغار . وبمقتضاها استولى سيمون على جزء كبير من مقدونيا والبانيا. ولعل هدف بيزنطة من وراء ذلك هو ان تعطى البلغار تلك الاراضى لينتشروا فيها وحتى يقل خطرها . ولكن هذه الدولة الفتية كانت فى ذروة امتدادهـا واتساعها ، وكانت المسالة بين الدولتين أكبر من مجرد ضم اقليم واقليمين . ذلك لان الدولة البلغارية كانت تهدف الى ان تكون صاحبة السيادة فى البلقان. وقد ساعدها على ذلك ان الدولة البيزنطية كانت غارقة فى مشاغلها الداخلية والخارجية التى لا تنتهى ، لاسيما بعد وفاة ليو السادس سنة ٩١٢ وقيـام ابنه قسطنطين السابع ، واختلاف الاوصياء فيما بينهم ، وقيام احدهم وهـو رومانوس ليكابينوس يريد العرش لنفسه . ففى زحمة هذه الظروف ضرب البلغار ضربتهم . فاراد سيمون الا تضيع الفرصة من يده وعزم على ان يزحف نحو القسطنطينية مباشرة لتحقيق حلمه القديم . واستولى فى طريقه اليها على مدينة ادرنه سنة ٩١٤ ، وعسكر بجيوشه قرب العاصمة البيزنطية . وفشلت المساعى التى بذلها البطريق البيزنطى نيقولا لرد البلغار عن العاصمة مستغلا فى ذلك نفوذه الدينى . وأصر سيمون على موقفه ، واستولى على تراقية ومقدونية ولم يبق امامه سوى حصار العاصمة والاستيلاء عليهـا . وحاول ذلك فعلا سنة ٩٢٤ حيث رمى بكل ثقله فى الميدان . ويبدو أنه كان متأكدا من النصر ، اذ تذكر المراجع أنه كان قد أعلن نفسه قبل ذلك امبراطورا على كل من بلغاريا وبيزنطة ، كما أسس فى عاصمته برسلاء بطريركيـة منفصلة عن بطريركية القسطنطينية . غير أن مناعة القسطنطينية ومتانة اسوارها كانت تنقذها دائما . فقد كان حصارها يستلزم قوات برية وبحرية هائلة . ولم يكن لدى سيمون البلغارى قوات بحرية تسمح له بفرض حصار منظم ينتهى بسقوط العاصمة . وعندما ادرك انه من المستحيل مواصلـة الحصار ، لجأ الى المفاوضة ، واشترط ان تكون المفاوضة بينـه وبـين الامبراطور مباشرة ، وأن تتم داخل القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ،

وهو المعروف بقصر البلاكرن . وتم له ما اراد ، كما تم توقيع المعاهدة بين الطرفين . والعجيب فى الأمر أن سيمون البلغارى خرج من المفاوضة شخصا يخالف ذلك الذى بدأ الحرب ضد بيزنطة قبل ذلك ببضع سنوات . لقد خرج من المعاهدة وهو يسبح بحمد الامبراطور ويتغنى بعظمته ، ويعلن أن الامبراطورية البيزنطية هى صاحبة العظمة والسيادة . ولعل مظاهر الفخفخة والأبهة فى البلاط الامبراطورى ، وما لقيه الملك البلغارى من الكرم وحسن المعاملة ، مما جعله يقلل من أطماعه ويخفف من غلوائه .

خرج سيمون من البلاكرن الامبراطورى وقد وافق على رفع الحصار عن العاصمة ، وعلى أن تسوى الخلافات بين البلغار والدولة البيزنطية بالمفاوضات والطرق الودية وليس بالحرب والقتال بعد ان ثبت له فشل هذه الوسيلة ، كما خرج بفكرة جديدة وهى انه لا يجب أن يطمع البلغار فى السيادة على الدولة البيزنطية ، وان فكرة ضم بيزنطة الى املاك الدولة البلغارية فى امبراطورية واحدة أصبحت حلما من أحلام الماضى . واخذ سيمون منذ ذلك الحين يتصرف فى بلاده كما لو كان تابعا للدولة البيزنطية . وجلب الى عاصمته برسلاء مظاهر الأبهة الموجودة فى البلاط البيزنطى .

وخلف سيمون على ملك بلغاريا ابنه المسمى بطرس . وفى عهده انهارت الأطماع البلغارية . وسارت بلغاريا فى تلك الفترة التى تقرب من نصف قرن على سياسة تقليد الدولة البيزنطية . وهكذا قل خطر البلغار على بيزنطة ، وأدى انهيار اطماع هذه الدولة الناشئة الى ضعف شأن الملكية فيها وازدياد النفوذ الدينى . وتم هذا فى وقت كانت فيه بيزنطة قد تخلصت من مشاكلها الداخلية والخارجية بفضل عدد من الرجال الذين تربعوا على عرشها بعد قسطنطين السابع ، اى منذ اواسط القرن العاشر فصاعدا ، مما هيأ لها فرصة مواجهة هذه العناصر الجرمانية ودفعها من بلادها .

الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣)

خلف قسطنطين السابع رومانوس الثانى الذى امتد حكمه من ٩٥٩ الى ٩٦٣ . وان تميز عهد هذا الامبراطور بشىء ، فانما يتميز بانصرافه عن الحكم تاركا مقاليد الأمور لزوجته ثيوفانو Theophano وأحاط نفسه ببطانة من رجال السوء ، مما عجل بموته . وكانت ثيوفانو تحكم باسم زوجها فى حياته ، ولجأت الى استخدام اصحاب المواهب والكفايات . وكان من أبرز رجالها القائد نقفور فوكاس وأخوه ليون فوكاس . وكان نقفور هذا من أكفأ المحاربين الذين هيأتهم الظروف لبيزنطة منذ ليو الثالث الأيسورى . كان جنديا شجاعا ومؤلفا فى الشئون العسكرية ، ويشهد بذلك كتابه الذى ألفه عن « مجرى الحرب » ، والذى تناول فيه تنظيم الجيوش واعدادها . على أى حال ، وقع اختيار ثيوفانو ورومانوس الثانى على نقفور عندما اعتزم القيام بهجومه على القوات العربية . وكانت النقطة التى اختيرت للهجوم هى جزيرة كريت التى كانت تقف حائلا دون تجارة بيزنطة مع العالم الغربى . فأعد نقفور حملته أحسن اعداد ، وتوجهت القوات البحرية والأساطيل التى تعد بالآلاف للاستيلاء عليها . وتم فتح الجزيرة بحد السيف سنة ٩٦١ . واستولى نقفور على الأسلاب والغنائم التى وجدها بها ، وأبحر عائدا الى القسطنطينية ومعه الأسرى وفى مقدمتهم أمير كريت .

تألق نجم نقفور لهذا النجاح الذى أحرزه ، وأسندت اليه قيادة الجيش الذى أعد فى السنة التالية للهجوم على قلاع الحدود العربية فى آسيا الصغرى فنزل الى كيليكية عن طريق ممرات جبال طوروس الوسطى ، واخترق جبال الأمانوس Mount Amanus متجها الى سورية الشمالية . وحاصر حلب عاصمة سيف الدولة الحمدانى ، وقضى على قواته بقوة السلاح ، ووقعت المدينة نفسها فى قبضة القائد البيزنطى . ومع ذلك ظلت قلعة حلب تقاوم العدو فترة من الزمن اتاحت الفرصة للعرب فى جنوب سورية وبلاد الجزيرة

لكى يتحدوا وينقذوا اخوانهم فى الشمال . وظهر امام اسوار حلب جيش بلغ من قوته وضخامته أن آثر فوكاس عدم المخاطرة فى معركة غير مأمونة النتائج . ولذلك تقهقر بأسلابه وأسراه عائدا الى القسطنطينية سنة ٩٦٢ . ولعل من أهم الآثار التى ترتبت على هذه الحملة ان البيزنطيين فتحوا عددا كبيرا من القلاع والحصون فى كيليكية بآسيا الصغرى وفى شمال الشام . كما كانت حملات نقفور فى هذه الجهات والتى انتهت بخضوع حلب للسيادة البيزنطية — ولو بصفة مؤقتة — من اهم الأعمال التى قام بها بعد اصبح امبراطور سنة ٩٦٣ . وخلاصة القول أن القائد فوكاس اصبح اعظم رجل فى بيزنطة وقتذاك . وأصبح الطريق ممهدا امامه ليتربع على العرش .

الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩)

ولما كان رومانوس الثانى قد أوصى أن تكون زوجته وصية على ولديه بازيل وسنه سبع سنوات وقسطنطين وكان فى الثامنة من عمره فى ذلك الحين ، فقد صار الأمر بعد موته سنة ٩٦٣ بين وصاية ثيوفانو وبين فوكاس . وفى مثل هذه الظروف المواتية استطاع نقفور فوكاس أن يلعب نفس الدور الذى سبق أن قام به ليكابينوس . بل كان اكثر توفيقا منه عندما نادى به الجيش امبراطورا بعد وفاة رومانوس الثانى ببضعة اشهر . ودخل نقفور القسطنطينية ، وحتى يضفى على عمله صبغة شرعية تزوج من ثيوفانو ارملة سلفه الشابة الجميلة . وهكذا اصبح امبراطور ووصيا على الطفلين القاصرين بازيل وقسطنطين .

وقد رفضت الكنيسة بادىء الأمر الاعتراف بذلك الزواج . ولقى نقفور من رجال الدين الكثير من العنت والمضايقات مما جعله يفكر فى الانتقام منهم بأية وسيلة . ووجه غضبه وانتقامه الى الأديرة ورهبانها بسبب مبالغتهم فى التشنيع به . فاصدر فى سنة ٩٦٤ قانونا الغى به نظام الديرية ، ووصف الرهبان بأنهم ابعد الناس عن الدين والحياة الدينية ، وأمر بإخراجهم من

اديرتهم ومصادرة املاكهم ، وان يتفرقوا فى الصحارى حتى لا يتسنى لهم التدخل فى شئون الدولة . كما حرم فتح اديرة جديدة او وقف أموال أو عقار على الاديرة القائمة وغيرها من المؤسسات الدينية . وكان غرضه الأساسى من ذلك القانون هو الانتقام من كل من شنع به لاستهتاره بقوانين الكنيسة بزواجه من ثيوفانو التى اتهم بالاشتراك معها فى تدبير مؤامرة اغتيال سلفه رومانوس الثانى . هذا ، فضلا عن حاجته الى المال لمواصلة حربه ضد الحمدانيين بالشام ، والتى كان قد بداها ان يصبح امبراطورا . ولا شك ان الجيوش والاساطيل التى أمكنه جمعها بفضل الأموال التى حصل عليها من الاديرة ، ساعدته على أن يقوم بحملات موفقة فى صقلية وقبرص وفى أطراف آسيا الصغرى ، حيث قاد الجيوش بنفسه ، واحرز عدة انتصارات فى الفترة الممتدة من سنة ٩٦٣ الى ٩٦٩ وهى فترة حكمه . والخلاصة ان سياسة الاضطهاد التى اتبعها فوكاس ضد الأديرة ورجال الدين ، قد عادت على الدولة بأموال طائلة استطاع أن يعيد بها مجد بيزنطة القديم بما ناله من توفيق حربى . ولكنه استمر سياسة مصادرة الأموال والممتلكات التى بدأها ضد رجال الدين ، فامتدت الى النبلاء الاقطاعيين فالطبقات الفقيرة حتى باتت جميع الطبقات فى القسطنطينية تشعر بجشع الامبراطور وظلمه وتعديه على حقوقها . كل هذا جعله من المغضوب عليهم من كافة الطبقات، وان لم يمنعه ذلك من السير قدما فى السياسة التى انتهجها وسار عليها، وهى العمل بكل طاقاته على استرجاع هيبة الدولة ومكانتها القديمة . فواصل الحروب ضد البلغار والعرب تمشيا مع سياسة اسلافه من ابناء البيت المقدونى . ففيما يتعلق بالبلغار فقد قام سنة ٩٦٧ بغزو بلادهم التى كان بينها وبين بيزنطة حروب ومشاحنات دامت لفترة غير قصيرة من الزمن . كما رفض الاعتراف بفتوحات امبراطور الغرب اوتو الثانى فى جنوب ايطاليا سنة ٩٦٨ .

ولعل أهم ما يميز حكم نقفور فوكاس فى الميدان الخارجى هو حروبه

ضد العرب استمرارا للحروب التى كان قد بداها عندما كان قائد الجيش البيزنطى فى عهد سلفه رومانوس الثانى . ولذلك فمن المفيد التحدث عن محاولات نقفور بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة بشيء من التفصيل، ذلك لأنها تعتبر مرحلة من اهم مراحل الصراع بين العرب والروم فى العصور الوسطى . بل انها تعتبر جزءا أساسيا من سياسة بيزنطة فى الميدان الخارجى لاسترداد نفوذها الضائع فى الشرق بعد أن ظلت قرابة ثلاثة قرون تقوم بدور الدفاع عن كيانها ضد العرب . هذا ، فضلا عن المظهر الدينى الذى تميزت به حملات هذا الامبراطور لتغطية اغراضها السياسية ، حتى لقد نظر اليها بعض المؤرخين أمثال وليم الصورى من القدامى ورينيه جروسيه وجون لامونت LaMonte من المحدثين ، على أنها من نوع الحرب الصليبية الغربية وطبيعتها . وحجة المنادين بهذا الراى يقولون ان الغرب لم يقم بمحاولاته لغزو الأراضى المقدسة الا فى اخريات القرن الحادى عشر عندما استتبت له الظروف والأحوال . وان الدولة البيزنطية قامت بنفس المحاولة قبل ذلك بقرن من الزمان أيام نقفور فوكاس حققت فيها نجاحا جزئيا . وعلى اى حال ، فانه من الامور العسيرة الحكم على حروب نقفور بأنها حروبا صليبية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذه الكلمة . فقد كانت هذه الحروب تحت زعامة نقفور شخصيا ، وكانت قواته بيزنطية هللينية ، ولم تبارك الكنيسة البيزنطية هذه الحروب للأسباب التى سنذكرها فيما بعد . أما الحروب الصليبية الغربية فقد قام بها العالم اللاتينى بأجمعه ضد امم الشرق العربى تحت زعامة البابوية وبتوجيه منها لتحقيق أغراضها العدوانية التوسعية فى الشرق العربى تحت ستار من الدعاية الدينية الزائفة . وكيفما كان الأمر ، فقد كانت حروب هذا الامبراطور تمثل مرحلة من مراحل الصراع بين العرب والروم ، وتعتبر نوعا من الحروب السابقة للحركة الصليبية نفسها والممهدة لهـا .

وكانت الظروف الداخلية والخارجية وقتذاك مهيأة لنقفور للقيام بهجومه

الكبير ، وتحقيق اطماعه البعيدة . فهناك قوة وترابط فى الدولة البيزنطية آنذاك ، وانقسام وتفكك فى العالم العربى . فكانت الدولة العباسية تعانى من الانحلال السياسى والاضطرابات الداخلية وضعف الحكومة المركزية فيها . وانقسمت الدولة الكبرى الى دويلات متعددة ، واخذت العناصر الفارسية فى الظهور ، وبات بنى العباس العوبة فى أيدى الأمراء البويهيين . وكان لهذا الضعف البادى آثاره السيئة على حدود الغرب المشتركة مع بيزنطة ، مما صرف بنى العباس عن الاهتمام بشئون مصر والشام ، وباتت القوى العربية المواجهة للخطر البيزنطى فى الشام لاتستطيع الاعتماد على اية مساعدة ايجابية من ناحية الخلافة العباسية فى بغداد . فاذا القينا نظرة على الجزء الغربى من الحركة العباسية ، نجد ان الدولة الطولونية استقلت بمصر ، ثم اعقبتها دولة الاخشيديين (٩٣٥ — ٩٦٩)، بينما اسس الحمدانيون دولة فى شمال الشام امتدت من سنة ٩٤٤ الى سنة ١٠٠٣ م ، واصبح مؤسسها سيف الدولة يسيطر على حلب وحمص وانطاكية واللاذقية وشيزر وحماه . وكان على سيف الدولة بحكم الموقع الجغرافى لدولته مواجهة القوات البيزنطية فى الشام بمفرده ، دون معاونة من الخلافة العباسية المنهوكة القوى فى بغداد ، او من مصر التى كانت تسعى هى الأخرى لا ستيرداد أملاكها الضائعة فى الشام .

والواقع أن تفكك قوى العروبة الى دويلات صغيرة متنافسة متنازعة فيما بينها اذ ذاك ، قد حال دون قيام حركة رد فعل موحد ضد الغزاة البيزنطيين . وتذكر المراجع أن الامبراطور نقفور فوكاس بعث برسالة الى الخليفة العباسى المطيع حوالى عام ٩٦٤ يتوعده فيها بالويل والثبور ، وانه عازم على التوجه لامتلاك فلسطين والبيت المقدس . ولكن هذه الرسالة لم تثر — للأسباب التى أوردناها — روح الجهاد ضد البيزنطيين ، على عكس الحالة فى بداية حركة الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى والقرون التالية له ، عندما كان العرب وحدة قوية متماسكة أمكنها احراز النصر فى فتوحاتها

التى امتدت شرقا وغربا . ويكفى أن الكتاب والمؤرخين العرب أمثال ابـن حوقل أدركوا أن انتصارات البيزنطيين فى القرن العاشر ، ومـن بعدهـم الصليبين فى أخريات الحادى عشر ، انما كانت على حساب ضعف العرب وتفككهم وانقسامهم .

تلك هى الظروف التى عمل الامبراطور نقفور فوكاس على الاستفادة منها لتحقيق أغراضه التوسعية فى الشرق العربى ، فى وقت كانت فيه الأحوال الداخلية فى بيزنطة مستقرة .فقد تم اقامة حكومة قوية مركزية،كما تم القضاء على المنازعات والخلافات الداخلية ، وابدى اباطرة البيت المقدونى اهتماما خاصا بأمر الجيش توطئة لاستئناف سياسة الهجوم على الحدود الآسيويـة للدولة .

ومما ساعده على تنفيذ هذه السياسة الهجومية ان نقفور نفسه كـان يتمتع باتجاهات عسكرية ودينية كان لها اكبر الأثر فى التعجيل بهذه الحروب. فمن الناحية العسكرية نعرف أنه كان من عائلة اقطاعية كبيرة فى آسيـا الصغرى ، وكان على معرفة بشئون الحرب والقتال ضد العرب بحكم متاخمه الحدود حتى قبل اعتلائه العرش . كما اهتم اهتماما خاصا بالكتب التى وضعت فى عهده فى الشئون العسكرية ، وفى فنون الحرب وتكتيكاتها . هذا ، بالاضافة الى الاصلاحات العديدة التى ادخلها فى تنظيم وادارة العمليات العسكرية. اما من الناحية الدينية ، فنعرف انه كان يهتم بالشئون الديرية والمنظمـات الدينية الاخرى . كما كان يهتم بالصلاة ويتجنب كل ما هو باطل ، حتى أن احد المتخصصين فى التاريخ البيزنطى ، وهو العالم جوستاف شلومبرجيه ، ذكر أن نقفور كان يتمتع بشخصية ذات جانبين : احدهما يمثل الجنـدى المحارب ، والثانى يمثل الناسك المتبتل .

تحت ظل هذه الظروف المواتية قام نقفور بحملات ضد العرب فى الشرق. وقد اشترك فى معظمها بنفسه ، واتخذ فيها سياسة الهجوم بينما اتخـذ

الجانب العربي سياسة الدفاع للأسباب التى اسلفناها . وساعده على ذلك ضعف دولة الحمدانيين ، خاصة بعد سقوط عاصمتها حلب سنة ٩٦٢ . وهكذا بدا عملياته الحربية التى يمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل رئيسية ، وذلك وفقا للدراسة القيمة التى تضمها بحث الزميل الدكتور عمر كمال توفيق تحت عنوان « الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة » .

(١) المرحلة الاولى (٩٦٣ — ٩٦٥) :

وفيها تركزت حروبه فى اقليم كيليكيا فى آسيا الصغرى الذى كان لايزال بأيدى العرب ، وذلك كى يمهد لقواته الطريق الى الشام . وانتهت هذه المرحلة باستيلائه على أذنه Adana وعلى المصيصة وطرسوس وكانتا تعتبران من اهم معاقل العروبة الشمالية . ويقال ان بوابات هذه القلاع البرونزية الضخمةارسلت الى القسطنطينية لتكون تذكارا للانتصارات التى احرزها فوكاس .

(٢) المرحلة الثانية (٩٦٦ — ٩٦٧) :

وقد امتد نشاطه فيها الى البلاد الشامية ، فاستولى على بعض المراكز والحصون الهامة ، بينما اضطر سيف الدولة الحمدانى للهروب الى شيزر ولم يواصل نقفور حملاته وقفل عائدا الى بلاده فى اوائل سنة ٩٦٧ بسبب نقص المؤن ، ولمواجهة بعض مشاكل الدولة فى الداخل والخارج .

(٣) المرحلة الثالثة (٩٦٨ — ٩٦٩) :

تأجلت حروب نقفور فوكاس لمدة عام ونصف ، على الرغم من أن الظروف كانت مواتية لمواصلة التقدم فى الشام ، وذلك بسبب انشغاله فى حروبه مع البلغار ، وفى القضاء على العناصر المناوئة لحكمه داخل البلاد. ولكنه سرعان ما استأنف هجومه بعد ان فرغ من مشاكله الداخلية والخارجية . وكان سيف الدولة الحمدانى فى ذلك الحين قد توفى ، وتولى الحكم ابنه سعد

الدولة . فتوجه نقفور بنفسه عى رأس الجيش الى الشام ، ولم يجد اى مقاومة من جانب العرب ، وتم له فتح كفر طاب وشيزر وحماه وحمص . كما اعمل التخريب فى طرابلس ، وعقد صلحا مع اللاذقية للنجاة من الدمار .

ولكن الظروف اضطرت نقفور ، مرة أخرى للعودة الى القسطنطينية فى أوائل سنة ٩٦٩ ، تاركا قواته لتواصل تقدمها فى الشام والاستيلاء على ماتبقى من المراكز العربية فيها . وقد اغارت الجيوش البيزنطية على انطاكية التى سقطت فى قبضتها فى اكتوبر سنة ٩٦٩ . ولذلك اهمية خاصة بالنسبة لبيزنطة ، اذ كانت تعتبرها المعقل الامامى لها على حدود الشام . وقد استمرت فى قبضتها لمدة تزيد عن مائة عام ، الى أن استردها العرب ثانيــة سنــة ١٠٨٤ م . بعد ذلك حاصر جند نقفور مدينه حلب عاصمة الحمدانيين قرابة شهر ، ولما ادرك اميرها انها ستقع فى قبضة البيزنطيين عقد معاهدة مــع قائد القوات البيزنطية حفظها لنا ابن العديم فى كتابة ، ومنها نعــرف أنهــا اصبحت تعترف بقيام النفوذ البيزنطى فيهــا .

لقد كان من اهم آثار حملات نقفور فى الشرق ، ان الفزع عم العالــم العربى الذى بدا يستشعر بالخطر ، ويستعد لتجميع قواه ضد الغزاة . هذا ، بينما عم الفرح الدولة البيزنطية لنجاح نقفور فى الاستيلاء على بعض المعاقل الهامة فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، وامتداد النفوذ البيزنطى الى تلك الجهات ، وان كان قد اخفق فى غزو البيت المقدس وهو الهدف الرئيســى من حملاته التى اصطبغت بالصبغة الدينية الى جانب اهدافها السياسيــة الواضحة .

وكان للكنيسة البيزنطية وبطريتها موقفا خاصا من حروب نقفور هذه . فلم تؤيد الامبراطور فى اتجاه لسببين : أولهما موقفها بلنسبة لمبدا الحــرب المقدسة بصفة عامة ، اذ كانت ترفض السماح بها مهما كانت دوافعها ، حتى ولو كانت ضد العرب ومن اجل امتلاك الأراضى المقدسة ، بعكس الحــال

فى غرب اوروبا التى شجعت مثل هذه الحروب ضد العرب فى الشـــرق ، واسهمت فيها بنصيب وافر ، وباركتها البابوية وامدتها بتأييدها اروحـــى والمعنوى تحقيقا لمصالحها . واما السبب الثانى فتتلخص فى موقف الكنيســـة البيزنطية من الامبراطور نقفور فوكاس نفسه ، بسبب تحامله عليها منـــذ البداية ، وسخطه على رجال الدين لظهور طبقة اقطاعية بينهم . فوجدت أن موقفه منها لم يكن ليشجعها على تاييده . بل وجدت أيها لن تستفيد شيئـــا من وراء الدعوة لهذه الحروب والتبشير بها ، وأن مثل هذه الفائدة سوف تعود على الامبراطور نقفور وحده دونها . ولهذا وقفت منه ومن حملاتـــه موقف المعارضـــة .

وكيفما كان الأمر ، فان هذه الانتصارات التى أحرزها نقفور فوكاســـس لم تحدث فى مركزه أى أثر حسن ، ولم ينس الناس ما قام به الامبراطـــور ضدهم وضد الكنيسة ورجال الدين . بل ان هذه الحروب المتواليـــة التـــى قام بها ، وما كانت تتطلبه من نفقات باهظة ، وما استتبع ذلك من الاستمرار فى سياسة الضغط المالى على جميع طبقات الشعب ، زاد فى كره الجميع له ولسياستة المالية . وانتهى أمره عندما تآمرت زوجته ثيوفانو مع ابن اخى الامبراطور حنا تزمسكيس John Zimisces وهو ضابط شاب لعب دورا كبيرا فى الحرب السورية . واثمرت المؤامرة بقتل الامبراطور فى القصر فى احدى ليالى شهر ديسمبر سنة ٩٦٩ بعد حكم دام قرابة سبع سنوات . وكان اغتياله بهذه الكيفية دليلا على الجحود ونكران الجميـــل . اذ تـــروى المراجع أن عددا من القتلة وعلى راسهم حنا تزمسكيس اقتحموا غرفة نوم الامبراطور ، والقاء حنا على الأرض بينما اخذ الآخرون يوجهون الطعنات القاتلة اليه حتى أسلم الروح . وهكذا كانت نهاية هذا الرجل الذى يعتبر عهده بلاشك من ازهى عهود الدولة البيزنطية من الناحية الحربية والفتوحات والانتصارات خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن .

الامبراطور حنا الأول تزمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦)

أصبح حنا تزمسكيس امبراطورا مغتصبا سنة ٩٦٩ . والواقع أنه عندما استجاب لاغراء ثيوفانو اللعوب — ارملة فوكاس ورومانوس — لم يكن مدفوعا بعاطفة الحب نحوها ، وانما بطمعه فى الوظيفة الامبراطورية . وأعلن انه لم يقبل العرش الا ليحفظه لأبناء البيت المقدونى ، أى حتى يبلغ بازيل وقسطنطين السن التى تؤهلهما للحكم . ولم يكن ذلك فى واقع الأمر الا ذرا للرماد . اذ تذكر المراجع أنه كان يأمل فى أن يجعله عمه نقفور وارثا لعرشه على حساب الطفلين الصغيرين صاحبى الحق الشرعى فى الوظيفة الامبراطورية . ولما وجد انه لم يكن لدى نقفور أى فكرة للاضرار بمن كان وصيا عليهما ، وأنه ظل مخلصا وفيا لهما ، لجأ الى طريق القتل لتحقيق أطماعه التى أخفق فى الحصول عليها عن طريق المكر والخداع .

واتخذ تزمسكيس يمكن لنفسه بشتى الطرق ، فعزل ونفى المعادين له المناوئين لسياسته ، وقرب اليه اولئك الذين اشتركوا معه فى اغتيال الامبراطور الراحل . وقد أدى ذلك الى معاداة الكنيسة له . ورفض بطريق القسطنطينية أول الأمر القيام بتتويجه باعتباره متهما بالمشاركة فى قتل نقفور ، وأصر البطريق على ذلك حتى يبرىء تزمسكيس نفسه من قتل نقفور ، وحتى يبعد ثيوفانو باعتبارها مشتركة فى الجريمة . ولما كان حنا تزمسكيس هذا مغتصبا لم يعتل الكرسى الامبراطورى بطريقة شرعية ، فقد كان يهمه أولا وقبل كل شىء الحصول على تأييد الكنيسة له مهما كان الثمن يدفعه . وفى سبيل ذلك أبدى استعداده لقبول شروطها ، ووجدت الكنيسة فى ذلك فرصة لالغاء تلك القوانين التى سبق أن أصدرها نقفور ضد الأديرة ورجال الدين . واشترط البطريق كذلك على الامبراطور تزمسكيس أن تضع الدولة يدها على الأموال الخاصة بالامبراطور السالف ، وتقوم بتوزيعها على الملاجىء وعلى الفقراء والمساكين ترضية لهم لما لحقهم من عنت واضطهاد . ولما كان حنا مستعدا

لدفع اى ثمن فى سبيل اعتراف الكنيسة به امبراطورا ، فقد اعلن براءته من قتل سلفه نقفور،وانه لم يشترك فى تلك المؤامرة.لذلك لم يتزوج شريكته فى الجريمة الامبراطورة ثيوفانو ، بل ابعدها عن البلاط ونفاهـا الى احـد الاديرة فى ارمينية . ثم الغى جميع القرارات الجائرة التى صدرت فى عهـد نقفور ، وقام بتوزيع الأموال والهبات على كثير من الناس ، وبخاصة الفقراء والفلاحين . وفى هذا دليل كاف على انه كان مستعدا للتضحية بكل شـىء ومهما كان الثمن فى سبيل قيام الكنيسة بتتويجه امبراطورا . وقد تم له ماأراد فى أواخر عام ٩٦٩ م ، بعد أن تعهد باحترام حقوق الامبراطورين الصغيرين بازيل وقسطنطين ، كما كان عمه يفعل من قبل .

وبعد ان اطمأن الى مركزه ، اخذ فى معالجة الصعاب التى واجهة بجرأة وحزم . فقضى على ثورات ابناء نقفور بآسيا الصغرى ، كما القى القبض على البارزين منهم سنة ٩٧١ . وكانت احدى هذه الثورات فى شكل حرب اهلية تزعمها ابن عمه المسمى بارداس فوكاس **Bardas Phocas** الذى حمل السلاح واثار الاضطرابات فى منطقة كبادوكيا ، والتى استمرت عدة سنوات حتى قبض عليه ، ونفى فى احد الأديرة ، كما ترك ثيوفانـو فى منفاها لتلقى مصيرها . ثم تزوج من ابنة الامبراطور قسطنطين السابع ولعله لجأ الى ذلك ليقوى مركزه فى الوظيفة الامبراطورية .

وبعد أن فرغ من ثورات بيت نقفور ، أخذ يستعد لحرب الروسيـا الناشئة ، التى بدأت تغير على شبه جزيرة البلقان . واذا كانت العهـود السابقة لحنا تزيمسكس قد شاهدت نشأة البلغار ومحاولاتهم المتتالية منافسة بيزنطة فى كيانها ومركزها ، فقد بدت الروسيا فى عهد تزمسكيس دولـة يجب أن يحسب لها الف حساب . ويحسن ان نمهد بكلمة سريعة عن هذا العنصر الذى سبب للدولة الكثير من المتاعب والمضايقات .

كان اولئك الروس يعيشون فيما مضى عيشة همجية على هيئة قبائل

منذ قرون عديدة قبل ذلك التاريخ بجوار مياه نهر الدنيبر والطونة فى أرض، كلها غابات ومستنقعات ، وفى عزلة تامة عن حدود الامبراطورية البيزنطية. واستمروا على هذا الحال ردحا طويلا من الزمن لا يسمع العالم عنهم شيئا، وهم لا يحاولون الخروج من عزلتهم ، الى ان توحدت قبائلهم المبعثرة فى وحدة لها كيانها . واخذ بعض الأمراء الطموحين يحرضون على أن تنهج سياسة الفتح والتوسع على حساب جيرانها. وتفصيل ذلك أنه قبل عهد حنا تزمسكيس بحوالى قرن من الزمان نزل فى بلاد الروس جماعة من الفيكنج من السويد . واخذ هؤلاء المخاطرون الشماليون فى غزو واخضاع القبائل السلافية التى تقطن أرض الغابات الكبرى ، وجعلوا منها دولة قوية موحدة عاصمتها كييف على نهر الدنيبر. ولم يمض وقت طويل حتى كان اولئك الروس الذين يجرى فى عروقهم الدم الفيكى ، قد شقوا طريقهم فى نهر الدنيبر الى البحر الاسود ، واخذوا فى مضايقة الدولة البيزنطية بشن الغارات المتوالية عليها .

وهكذا كان اولئك الروس منذ سنة ٨٦٠ أحد العناصر التى حاولت غزو بيزنطة ، وهددوا عاصمتها اكثر من مرة ، كما اغاروا على البلاد مرارا فى النصف الأول من القرن العاشر . ففى سنة ٩٠٧ تسرب الروس فى اسطول من القوارب الخفيفة التى تسير بالمجاديف من مصب الدنيبر الى شواطىء تراقية ، ونزلوا على بعد أميال قليلة من البسفور حيث إغاروا على أقاليم الضواحى ، وعادوا الى بلادهم بما أمكنهم حمله من الغنائم والاسلاب . وقاموا بمحاولة أخرى سنة ٩٤١ ، ولكن الأسطول البيزنطى التقى بهم وثأر منهم باغراق عدد كبير من قواربهم الخفيفة .

ونتيجة لاغارتهم المتتالية ، اضطرت الدولة البيزنطية الى مصالحتهم، ومنحت تجارهم امتيازات عديدة ، واستخدمت الكثيرين منهم فى جيوشها واساطيلها . وقدمت الأميرة الروسية المسماة اولجا الى بلاط بيزنطة ، واعتنقت المسيحية على المذهب الارثوذكسى سنة ٩٥٧ . وشملها الامبراطور

بعنايته . وكان من اثر ذلك ان امتدت مظاهر الحضارة البيزنطية والديانة المسيحية الى الروسيا . وبات من المنتظر ان يكون ذلك كافيا لأن تصبح الروسيا دولة تدين بنوع من التبعية لبيزنطة على الأقل من الناحيتين الثقافية والدينية . وقد يكون فى ذلك يكفى لعدم تحرشها بها . ولكن حدث أن وفدت سفارة بلغارية الى بلاط نقفور فوكاس سنة ٩٦٧ فى طلب ما اعتادت بيزنطة ارساله من مال الى برسلاء عاصمة البلغار . ولكن نقفور رفض ارسال المبلغ المطلوب ، وأعلن الحرب على بلغاريا ، واستولى على تراقية وجميع البلاد البلغارية حتى جبال البلقان . وكان قد عقد العزم على تصفية الموقف مع بلغاريا والقضاء عليها . وارسل الى ملك الروسيا وقتذاك ويدعى سياتو سلاف **Swiatoslaf** يغريه بقتال الدولة البلغارية ، ورحب بطلب الامبراطورية البيزنطية . وغزت روسيا بلغاريا من الشمال عن طريق الدنيبر وبجيش قوامه ستين الف مقاتل . وتمكنت من القضاء عليها تماما . وسرعان ماعبر الروس البلقان وظهروا فى سهول تراقية . وكان المفروض أن الروس قاموا بتلك الحرب من أجل بيزنطة ، وأن البلاد والأسلاب التى حصلوا عليها يجب أن تؤول الى بيزنطة . غير أن الأمير الروسى أعجبته بلاد البلغار ورفض الجلاء عنها . وصادف ذلك موت ملك البلغار واغتيال نقفور فوكاس . فوجد الروس أن الفرصة اصبحت مهيأة لهم للتوغل داخل أراضى الدولة البيزنطية نفسها ، وتحقيق الحلم الذى أخفق البلغار فى الوصول اليه .

هذا هو الموقف بين بيزنطة والروس عندما اصبح حنا تزمسكيس امبراطورا . بل هذا هو السبب الذى دفع تزمسكيس الى التوجه لقتال الروس دفاعا عن كيان الدولة البيزنطية .

كان الروس قد بلغوا فى تقدمهم سنة ٩٧٠ الى مسافات قريبة من القسطنطينية نفسها . وكان على حنا تزمسكيس ولجب ملاقاتهم ودفع خطرهم بعد أن نزلت قواتهم فى مدينة فيليبوبوليس احدى المدن البيزنطية

المشهورة ، واعملت فيها التدمير قبل أن تأتى جنود بيزنطة لنجدتها .وفى اوائل سنة ٩٧١ توجه جيش بيزنطى من ثلاثين الف مقاتل لعبور البلقان وطـرد الروس الى منطقة الدانوب.وحدث بين الفريقين موقعتان حاسمتان فى تاريخ الدولة البيزنطية . ويذكر المؤرخ شارل اومان ان الروس كانوا يحاربون وهم مشاة وفى صفوف مربعة عظيمة ، وكانوا مسلحين بالحربة والفاس، يلبسـون قمصانا مدرعة ، لهم قدرة على الصمود فى القتال ، ويحدثون فى صفـوف اعدائهم الرعب والهلع . أما الجيش البيزيطى فكان يتالف من المشاه ومـن فرسان الولايات الآسيوية ومن رماة القسى والسهام . ويروى التاريـخ تفاصيل الموقعتين الكبيرتين اللتين التحم حنا تزمسيكس فيهما مع الروس فى برستلافا Prasthlava وسيلستريا Silistria حيث تمكن رماة السهام البيزنطيين من اضعاف صفوف العدو غير المسلحين بالسهام، ومهدوا الطريق لفرق الفرسان للانقضاض على الروس والقضاء عليهم بعد مذبحة دامية . ولم ينج من المعركة سوى ملكهم سويا توسلاف وزوجتـه وفلول جيشه المنهوك القوى . ولكن القوات البيزنطية أطاحت به داخـل اسوار سلستريا ، حيث اضطر الى قبول الصلح والعودة الى بلاده ،والتعهد بعدم التحرش بالدولة البيزنطية مرة اخرى . وفى ، اجتماع تم بين الامبراطور والملك الروسى اقسم سويا توسلاف اليمين المطلوب منه . ويبدو أن ليـو Leo, the Deacan ، وهو أحد المؤرخين البيزنطيين المعاصرين لأحداث تلك الفترة من الزمن ، قد حضر ذلك الاجتماع . اذ يصفه لنـا فى كتابه وصفا تفصيليا دقيقا . وعاد الملك الروسى الى بلاده ليسقط قبل نهاية السنة صريعا فى معركة نشبت بينه وبين التتار البجاناكية الذين يعيشـون فى أراضى الاستبس الجنوبية .

وعلى هذا يمكن القول دون مغالاة ان الفضل الاول يرجع الى نشـاط تزمسكيس ومهارته الحربية فى الحاق الهزيمة باولئك القوم ، ودفعهم شمالا حتى اجلاهم عن برسلاف عاصمة البلغار .. وصارت بلغاريا بعد ذلك جزءا

يدين لها بالتبعية والولاء . واصبحت حدود الدولة البيزنطية ممتدة لأول مرة منذ قرون عدة حتى ضفاف الدانوب . لقد افادت حركة الروس هذه الدولة البيزنطية على حساب البلغار . على ان هذا كان بداية لحلقة جديدة من الصراع الرهيب بين بيزنطة والروس بعد ان اصبحت حدود الدولة الروسية ملاصقة لحدود الدولة البيزنطية .

واضطرت الظروف تزمسكيس الى تحويل مجهوداته مؤقتا نحو الشرق حيث كانت الدولة الفاطمية فى مصر تسعى الى استعادة البلاد التى ضاعت من دولة الحمدانيين وغيرها من الدول العربية فى شمال الشام ، واهمها حلب وانطاكية .وكان الفاطميون يعلمون فى تلك الجهات بقصد تأمين حدودهم فى بلاد الشام من ناحية ، والقضاء على حركة القرامطة المناوئة لهم من ناحيه أخرى . وارسل الخليفة المعز لدين الله احد قواده لاسترجاع انطاكية سنة ٩٧١ . وكاد الفاطميون ينجحون فى استردادها لولا مهاجمة القرامطة لجيوشهم ، مما حال بينهم وبين تحقيق اهدافهم . واعقب ذلك عدة هجمات قامت بها بيزنطة سنة ٩٧٣ على مدن كانت بيد العرب منذ فترة فتوحاتهم تقريبا مثل نصيبين وميافارقين وملطية وآمد والرها . ولكن لم يقدر لهذه الهجمات النجاح . وكان رد الفعل قيام ثورة فى بغداد تطالب الخليفة العباسى باعلان الجهاد فى وقت كان فيه العالم العربى يعانى كثيرا من التفكك والانحلال اسياسى .

وفى سنة ٩٧٤ سار الامبراطور حنا بنفسه الى الشرق فى وقت بدا فيه الغرب الأوروبى ينفض عن كاهله الخمول الذى لحقه طيلة القرون الماضية ، وأخذ يتحرك حركات واضحة نتيجة النهضة الكنسية الناشئة من حركة كلونى الديرية منذ تأسيس دير كلونى سنة ٩٠٨ . ويكاد يكون الآن من المتعذر ايجا الصلة بين ما فكر فيه حنا تزمسكيس من غزو بيت المقدس من ناحية ، وبين تلك النهضه الكنسية الغربية المرتبطة بديرية كلونى من

ياحية أخرى . وهناك من المؤرخين من يربط بين هاتين الحركتين ،ويخلص من ذلك ان الامبراطور حنا تزمسكيس كان اول من فكر فى مشروع الحروب الصليبية . وان مثل هذه الآراء لازالت فى حاجة الى المزيد من البحث والدراسة والاستقصاء للوصول الى رأى قاطع فيها . هذا ، مع مراعاة الخلافات الواضحة بين كل من حروب تزمسكيس والحروب الصليبية .

كيفما كان الأمر ، فقد زحف تزمسكيس بجيشه فى اوائل سنة ٩٧٥ من انطاكية متجها شطر حمص ومنها الى بعلبك.وسلمت له دمشق ، ثم تقدم من شمال فلسطين وسلمت له طبرية والناصرة وقيسارية . ولم يبق امامه سوى مدينة بيت المقدس التى طلبت اليه الا يعمل فيها التخريب عند مقدمه اليها . على أنه وقف عند هذا الحد ، لأنه لم يكن متأكدا من قدرة القوات التى تحت أمرته للاستيلاء على اورشليم . فتحول شمالا واستولى على سلسلة من المدن الساحلية بالشام . وقد صدقت مخاوف الامبراطور ، اذ لقى فى احدى المواقع الحربية عند طرابلس مقاومة شديدة من جانب القوات العربية التى الحقت به هزيمة كبيرة ، قفل بعدها عائدا الى القسطنطينية حيث مات فى يناير سنة ٩٧٦ بعد مرض لم يمهله طويلا ، وكان لايزال فى عنفوان شبابه . ويقال ان أحد وزرائه قد دس له السم انتقاما منه بعد أن كان قد أمر بعزله . ولكن هذه الرواية مازالت فى حاجة الى مزيد من البحث.

وبموت تزمسكيس تنتهى سلسلة الاباطرة المتآمرين ، ويتقلد زمام الأمور ابناء البيت المقدونى ، وعلى راسهم الطفل القاصر بازيل الثانى وكان عمره فى ذلك الوقت عشرين سنة . ويمكن القول انه لولا الأعمال الحربية الناجحة والاصلاحات الداخلية العديدة التى عهد اولئك الاباطرة الى القيام بها لتعزيز مراكزهم ، لما أمكنهم الاحتفاظ بالوظيفة الامبراطورية طيلة هذه الفترة .

الدولة البيزنطية من بازيل الثانى حتى نهاية البيت المقدونى

الامبراطور بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥)

كان حنا تزمسكيس قد أعان انه سيظل على الكرسى الامبراطورى الى أن يصل أبناء رومانوس الثانى الى السن التى تؤهلهما للحكم . ويبدو أنه كان شديد الحرص على حفظ الأميرين بازيل الثانى وقسطنطين الثامن، وكان هذا من الأسباب التى جعلت البيت المقدونى يظل حيا فى قلوب الشعب . ومن الأمور التى سهلت لأبناء رومانوس الثانى الوصول الى العرش فى هدوء أن تزمسكيس لم يعقب احدا ، فضلا عن أنه لم يكن هناك طامع فى العرش يحاول الاستئثار بالسلطة ، مثل محاولات الأباطرة المتآمرين السابقين من أمثال ليو الأبسورى وليو الأرمنى وبازيل المقدونى ونقفور فوكاس . وهكذا تم تثبيت الأميرين بازيل وقسطنطين على أن يحكما الدولة مشاركة . وقد استطاعا القيام بهذه المهمة . وربما كان السر فى ذلك أنهما كانا مختلفين عن بعضهما تمام الاختلاف من الناحية الخلقية ، ومن وجهة نظرهما الى الوظيفة الامبراطورية . فبينما كان بازيل الثانى طموحا محبا للحكم والحرب والمخاطرة، كارها لأنواع الترف والفنون والعلوم ، كان قسطنطين الثامن كارها للحكم ومسئولياته محبا للدعة والسكون . لذا اكتفى بأبهة اللقب الامبراطورى تاركا الحكم ومسئولياته لأخيه بازيل الثانى .

وشخصية بازيل الثانى جديرة بالدراسة ، فقد قضى عهده الطويل فى حروب تكاد لاتنقطع ، وكانت تنتهى غالبا فى صالحه . ويبدو أنه اتخذ من اوصيائه السابقين مثل نقفور فوكاس وحنا تزمسكيس مثلا يحتذى به ، فأخذ يجاريهم فى اعمالهم . ومع ذلك نعرف أنه أمضى السنوات الأولى من حكمه فى اللهو والمسرات . ولكنه قبل أن يصل الى سن الثلاثين طرأ عليه تغيير مفاجىء ، اذ انغمس فى الدين والحرب ، تاركا حياة الملذات . ويروى أنه كان يرتدى ملابس راهب تحت ملابسه الامبراطورية ، وبلغ من تقواه

وتدينه ان رماه المعاصرون له بالتعصب .

وكانت أول مشكلة تواجه بازيل الثانى هى وراثة العرش فى ابناء البيت المقدونى . فبينما ظل بازيل امبراطورا فعليا أعزبا ، نجد أن أخاه انجب ثلاث بنات . وكان هذا مدعاة لتدبير مؤامرات بقصد اغتصاب العرش . ولكن مآلها كان الفشل مما يدل على ان عودة أبناء البيت المقدونى الى العرش الامبراطورى قد حقق الآمال فى قلوب الناس . فقد عرف بازيل الثانى بالمؤامرات ، وأسرع بالقضاء عليها ، ونفى زعمائها فى وقت كان يستعد فيه للانفراد بالحكم . وهكذا أصبح بازيل الثانى امبراطورا ، ولكنه كان كثير الشك فى المحيطين به ، شديد القسوة على الناس ، ولا سيما رجال البلاط وقامت مؤامرات أخرى فى سنة ٩٨٥ وسنة ٩٨٧ . وكانت تلك التى وقعت فى سنة ٩٨٧ فى أماكن نائية بعيدة لم يكن باستطاعته الوصول الى زعمائها وكانت تجد عونا من القواد العسكريين . وكان أشدها خطرا على مركز بازيل تلك التى حدثت فى بلاد البلغار الواقعة فى أراضى بيزنطة . ووجد بازيل أن الوسيلة المثلى للتغلب على تلك المؤامرة هى الاستعانة بالروس لقرب بلادهم من أماكنها . وفعلا أمدته بلاد الروس بحملة انتصر بها على أعدائه سنة ٩٨٩ . وقد ترتب على هذا التحالف بين بيزنطة وروسيا معاهدة لها أهميتها فى تاريخ تلك الدولة الناشئة . وكان ملكها وقتذاك يدعى فلاديمير . ذلك أنه نشأ عنها انتشار المسيحية فى روسيا لأول مرة على مذهب بيزنطة الأرثوذكسى . وبقيت منذ ذلك الحين على المسيحية الأرثوذكسية . وكان لهذا أثره فى تاريخ العلاقات بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية ، وبين العالمين الشرقى والغربى ، ليس فى العصر الوسيط فحسب وانما فى العصر الحديث أيضا . وهكذا انتهت المفاوضات بين الطرفين بتصفية مابينهما من أسباب العداء . وتم الاتفاق على أن يرسل الأمير فلاديمير الى بيزنطة ٦٠٠٠ جندى سنويا ، وأن يزوجه الامبراطور بازيل من أخته آن . وكانت النجدة الروسية التى بدأت بها تلك المفاوضات قد وصلت ، واستخدمها

بازيل الثانى فى القضاء على مدبرى المؤامرات ضده . ويقال ان آن رفضت الزواج من فلاديمير وهو الروسى المتأخر عنها مدينة وحضارة ، مما أثار غضبه واستياءه ، ولو أن هذا الحادث لم يترك أثرا يذكر فى العلاقات بين الدولتين .

وكانت السياسة التقليدية فى روسيا تسير منذ ذلك الحين على سياسة الاقتداء بالدولة البيزنطية ، لاسيما فى فنونها وعمائرها وآدابها ، ومظاهر الترف والبذخ فيها ، حتى أصبحت كييف عاصمة الروس وقتذاك تباهى القسطنطينية نفسها . لقد اخذ الروس علم البيزنطيين وحضارتهم ، بل اقتبسوا أسماءهم والقابهم . وماكلمة تسار Tzar . الروسية الا تجريبا لكلمة قيصر Caesar . واصبحت الأسماء البيزنطية مثل ميشيل والإسكندر ونيقولا ويوحنا وبطرس تستخدم فى روسيا . كما صار المرتزقة الروس يكونون فرقا فى الجيش الامبراطورى ، وكانوا هم نواة الحرس الاسكندناوى فى ذلك الجيش . ويمكن القول دون مغالاة ان الأمير فلاديمير الذى ارتبط برباط التحالف مع بازيل الثانى ، هو المؤسس الاول لدولة الروس الحديثة . وخلفه ابنه المسمى ياروسلاف الذى واصل سياسة أبيه حتى أصبحت روسيا تتمتع بمركز خاص فى شرقى اوروبا .

واذا انتقلنا الى الدولة البيزنطية نجد أن الامبراطور بازيل حالفه التوفيق فى انهاء الحروب الداخلية والمؤامرات المدبرة ضد العرش ، وفى الحصول على مساعدة الروس وتحالفهم معه واعتناقهم المسيحية . كما نجح فى تثبيت مبدأ التوريث الشرعى فى سلسلة البيت المقدونى . كل هذا جعل بيزنطة تتمتع بمكانة مرموقة فى الفترة الوسيطة من حكم هذا الامبراطور . وقد بدا ذلك واضحا سنة ٩٨٩ .

وكان من الطبيعى بعد أن خلا الجو لبازيل الثانى ، أن يتجه الى القضاء على المراكز التى كانت مصدر متاعب ومضايقات بالنسبة له ، وهى البيوت

الاقطاعية فى الاقاليم التى كانت تخرج منها المؤامرات ضد العرش . فهو بقضائه على هذه البيوت الاقطاعية سوف يرتاح منها من ناحية ، ويخدم الطبقات الفقيرة على حسابها من ناحية اخرى . فأخذ يصادر الأملاك الكبيرة التى حصل عليها أصحابها بدون سند قانونى ، كما حرم على الاقطاعيين سواء أكانوا من العلمانيين أو من رجال الكنيسة ، زيادة رقعة اراضيهم على حساب صغار الملاك . وهو باجرائه هذا اوجد نوعا من التوازن بين طبقات الشعب ، واغنى الدولة بما وضع يده عليه من أملاك الاقطاعيين .

ولايعنى هذا أن الطريق كان ممهدا أمام بازيل ، وأن مشاكله الداخلية والخارجية قد انتهت تماما . فكانت هناك الدولة البلغارية التابعة للدولة البيزنطية منذ حوالى نصف قرن . ولكن قبل ان ينتهى القرن العاشر ظهرت فى بلغاريا حركة نفض هذه التبعية عن كاهلها ، بل كانت تأمل فى تحقيق استقلالها واطماعها القديمة . وكان يجلس على عرش بلغاريا فى ذلك الحين صمويل (٩٧٧) ، وكان رجلا قديرا شق طريقه الى العرش بكفاءته ومقدرته . ولم يترك فرصة انشغال بازيل الثانى فى القضاء على المؤامرات الاقليمية التى هددت عرشه تمر دون ان يستغلها وان يستفيد منها . وفعلا نجح فى الفترة الواقعة بين عامى ٩٧٦ و ٩٨٦ من استعادة تساليا ومقدونية والتقدم الى أواسط اليونان ، حتى أصبحت بلاده أكبر مما كانت عليه سابقا .

وقد أدرك بازيل الثانى خطر الدولة البلغارية واطماعها الواضحة للاستيلاء على أكثر من الأقاليم التى وضعت يدها عليها . فلم يكد ينتهى من مشاكله الداخلية حتى اتجه الى البلغار لردعهم وتأديبهم . فشن سنة ٩٨٦ الحرب ضد اولئك القوم ، وبها يبدأ فصل جديد من تلك الحروب المتقطعة بينهما . وقد اتبع حيالهم وسائل العنف والقسوة حتى عرف فى التاريخ باسم « قاتل أو ذابح البلغار » . وكان أول عمل قام به هو اجلائهم عن البلقان ، ثم حاصر مدينة تريادستا وهى صوفيا الحالية . الا أن ملك البلغار الحق بالبيزنطيين هزيمة شديدة عند منطقة قريبة منها هى أبواب تراجان . وقد

نجا بازيل من تلك الموقعة بأعجوبة ، وبذلك افسد صمويل على البيزنطيين انتصاراتهم الأولى . وبعد ذلك وقعت الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنوات . واستغل ملك البلغار الفرصة ، فاستولى على دورازو ، وانقض على بلاد الصرب (صربيا) التابعة لبيزنطة ، وحاولت جيوشه الوصول الى موانى بحر ايجه . بل حاول البلغار حصار مدينة تسالونيكا نفسها ، وتمادوا فى تقدمهم حتى بلغوا مدينة كورنثا . وهنا تبدأ كفة البيزنطيين فى الرجحان مرة ثانية . ففى سنة ٩٩٦ عندما كانت القوات البلغارية عائدة من جنوب بلاد اليونان تحمل اعلام النصر ، التقت بالقوات البيزنطية التى كانت واقفة لها بالمرصاد . ووقعت بينهما موقعة الحق فيها البيزنطيون بالبلغاريين شر انواع الهزيمة . وهكذا انتقمت بيزنطة من الهزيمة التى لحقت بها عند ابواب تراجان، ولم يمض عليها وقت طويل .

وكانت فرصة اغتنمتها بيزنطة ، فواصلت الحرب ، واجلت البلغار عن دورازو سنة ١٠٠٠ ، ومن مقدونية سنة ١٠٠٧ ، حتى أنه لم يبق لهم سوى بلادهم القديمة فى وسط بلاد البلقان . وظل صمويل على مقاومته حتى سنة ١٠١٤ ، وكانت سنة حاسمة فى تاريخ الدولة البلغارية ، اذ وقع الجيش البلغارى فى قبضة الامبراطور البيزنطى . وامعانا منه فى الانتقام من خصومه، فقأ عيون الأسرى الا واحدا من كل مائة اسير ليقود زملائه الى بلادهم . وكان صمويل قد مل طول الحرب ووطأة الضربات التى نزلت به وبقواته . وعندما وصله الأسرى وهم بهذا المظهر الكئيب ، استولى عليه الحزن ومات فى سبتمبر من السنة نفسها .

ولاشك أن هذا النزاع الطويل بين بازيل وصمويل الذى دام قرابة ثلث قرن ، قد استنفذ قوى الامبراطورى ومواردها ، وانهكها الى حد بعيد . فلم يكن صمويل البلغارى مجرد زعيم البرابرة ، بل كان عدوا قويا يحسب له حسابا كبيرا . كان قد تعلم فن الحرب من جيرانه البيزنطيين ، ولاسيما فى

التحصين . وكان هذا من الأسباب التي اطالت أمد القتال وجعلت مهمة بازيل غير سهلة .

على أى حال ، خلف صمويل ابنه المسمى جبرائيل **Gabriel** بنما واصل بازيل حربه العنيفة ضد البلغار حتى استولى على معظم مدنهم . فسقطت مدينة اوكريدا **Ochrida** عاصمة بلغاريا البلقانية سنة ١٠١٦ ، وهى آخر قلعة حصينة من قلاع المملكة البلغارية . ودخلها الامبراطور بازيل ظافرا سنة ١٠١٨ . ولم يشتد الامبراطور البيزنطى فى معاملة العدو هذه المرة مثلما فعل فى المرات السابقة . ولم يعمل فيهم الذبح والتقتيل ، بل كانت معاملته لهم تنطوى على العطف واللين . واخذ يصلح الطرق الرومانية القديمة ، ويقيم الحاميات دون أن يحاول القضاء على القبائل السلافية التى كانت مصدر متاعب ومضايقات له . وعاد الامبراطور بعد ذلك الى عاصمة ، وفى ركابه افراد الأسرة المالكه البلغارية رجالا ونساء.

ولعل من اهم نتائج فتوحات بازيل الثانى فى بلغاريا انها جعلت الامبراطورية البيزنطية على اتصال بمملكة المجر فى هنغاريا من ناحية حدها الشمالى . واصبحت حدودها تمتد من بلغراد الى مصب نهر الدانوب . وقدر لبيزنطة أن تحتفظ بهذا الخط قرابة قرنين من الزمان حينما قامت ثورة بلغاريا الكبرى ضد الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس سنة ١١٨٦ **Isaac II, Angelus**

لقد استنفذت المسألة البلغارية من بازيل الثانى جهدا ووقتا كبيرين. ومع ذلك نراه لايغفل مشاكل الدولة على الحدود الأخرى . ففى سنة ٩٩٥ قام بحملة على الحدود الشامية استمرارا للسياسة التى سار عليها نقفور وتزمسكيس من قبل . وكانت الدويلات العربية هناك لاتزال ضعيفة منقسمة على نفسها . الا انه ظهرت على مسرح الأحداث قوة جديدة هى الدولة الفاطمية فى مصر التى استولت على جزء كبير من بلاد الشام . ففى هجومه

الاول على الشام سنة ٩٩٥ استولى بازيل على حلب وحمص وصيدا . وهاجم الشام مرة ثانية سنة ٩٩٩ ، وتقدمت جيوشه حتى طرابلس . وانتهت الحرب بالمعاهدة لصالح البيزنطيين سنة ١٠٠١ بين بازيل الثانى والخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . ولم يقع بين الدولتين اية حرب جديدة حتى نهاية حكـم بازيـل .

كذلك اهتم الامبراطور بارمينية بآسيا الصغرى ، وسعى الى جعل السيادة البيزنطية فى تلك البلاد سيادة فعلية ، حتى تأمن بيزنطة من حركات الاتراك السلاجقة الذين بدأوا يظهرون على مسرح الاحداث وقتذاك . ولم يتطلب منه هذا الأمر جهدا كبيرا ، اذ كانت بلاد ارمينية تدين لبيزنطة بالتبعية من قبل . وقد جاءه ملوكها يطلبون منه أن تصبح ممالكهم تحت سلطة الدولة البيزنطية مباشرة ، وكان ذلك فى سنة ١٠٢١/١٠٢٢ . وتساءل اومان أن كانت فتوحات بازيل الثانى فى ارمينية قد عادت بفائدة على الامبراطوريـة البيزنطية . ويرد على ذلك بقوله ان المملكة الأرمينية المسيحيـة المستقلـة كانت جارا مفيدا لبيزنطة وصديقا لها وحاجزا يدفع عنها هجمات العـرب القادمين من فارس . وهو وان كان قد حطم القوة الأرمينية ، الا انه لم يضم الاقليم كله الى السيادة البيزنطية ، أو يدخل فيه من الاصلاحات مايقف حائلا أمام هجمات القوات العربية من ناحية الشرق .

اما فى ايطاليا البيزنطية ، فقد كان بازيل الثانى موفقا فى احداث ماأراد من تغيير فى نظام الحكم بها فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية الغربية مشغولة فى أواخر القرن العاشر بهجمات العرب عليها ، مما حال بينها وبين تحقيق أطماعها الواسعة فى ايطاليا . على أنه واجه مركز بيزنطة فى ايطاليا خطر جديد منذ أواخر القرن العاشر فصاعدا . ونعنى به الخطر النورمانى . وكان المغامرون النورمان قد وصلوا الى ايطاليا كجند مرتزقة يعملـون فى خدمة أى أمير مقابل المال الذى يغدقه عليهم . ولم يكونوا مصدر خطر على

بيزنطة فى أول الأمر ، وهى التى كانت تستخدمهم فى جيوشها للقضاء على العناصر المتمردة . وكان الامبراطور بازيل الثانى يأمل فى ان يذهب يوما الى ايطاليا للقضاء على أطماع الامبراطورية الغربية فيها ، واجلاء العرب من البلاد التى احتلوها فى ايطاليا وصقلية . ولكنه توفى سنة ١٠٢٥ وهو فى سن الثامنة والستين ، بعد حكم طويل حافل بالأعمال والخدمات فى الداخل والخارج التى جعلت من بيزنطة دولة عظمى آنذاك . فقد كسب للامبراطورية عدة ولايات ، وكانت حدودها قد وصلت عند وفاته الى أقصى امتداد عرفته فى تاريخها الطويل . والواقع أنه لم يأت بعد بازيل الثانى امبراطور فى مثل قدرته وكفاءته . بل ان الامبراطورية فى عهد خلفائه أخذت تفقد الولايات بنفس السرعة التى اكتسبتها بها فى عهده .

الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨)

من الملاحظات الهامة فى التاريخ البيزنطى أن الشخصيات الكبيرة البارزة فيه ، لم تترك عادة بارزين يحلون محلهم ، ويواصلون سياستهم واعمالهم . فنجد مثلا امبراطورا يمتاز بعزيمة قوية ويفرض اسمه فى سجل التاريخ ، ويعقبه آخر ضعيف الشخصية لايترك أى اثر . ومن الأدلة على هذا التفاوت العجيب بين الشخصيات الامبراطورية فى التاريخ البيزنطى ، تولى قسطنطين الثامن بعد أخيه بازيل الثانى ، فقد كان هذا الامبراطور حسبما اسلفنا يشترك مع أخيه بالاسم فقط فى الحكم منذ سنة ٩٧٦ . ولكنه كان فى الواقع بعيدا عن الحكم ، مكتفيا بحياة الدعة والترف . كان مجرد رجل دنيوى لاهم له سوى المسرات والملذات ، وقد اتجهت ميوله منذ البداية نحو الموسيقى والأدب . وكان يعيش أيام أخيه منزويا فى احد أركان القصر تحيط به قلة من الخصيان . وهكذا اتاح الفرصة لأخيه ليعمل منفردا فى الحكم قرابة خمسين سنة . ولا شك أنه فقد خلال هذه المدة كل الصفات التى كانت ربما تؤهله للحكم ، اذ وجد نفسه فجأة وريثا لاخ لم يعقب ولدا ،واضطر الى تحمل مسئوليات الحكم وهو فى سن الستين .

ولكن كان من حسن حظ بيزنطة أن قسطنطين الثامن لم يستمر على عرشها سوى بضع سنوات ، افسد خلالها كل ماقام به بازيل الثانى من أعمال . واثبت أنه حاكم خامل غير كفء . ولم يكن يعنيه سوى صرف أموال الدولة التى جمعها اخوه على ملذاته ، كما شغل وظائف الدولة بالمستهترين من أصدقائه الخصيان ممن كانوا يشاركونه حياة الترف والمجون . ولم يكتف بذلك ، بل اخرج جميع الرجال الأكفاء الذين كانوا يعملون فى عهد بازيل الثانى ، والذين عاونوه معاونة صادقة فى تكوين عظمة بيزنطة . وقد أدى ذلك الى غضب الكثيرين عليه .

حقيقة ان عهد قسطنطين الثامن كان يبدو عهد بهاء ورخاء . ولكن ذلك كان فى واقع الأمر اثرا من آثار عهد بازيل الثانى ونتيجة لمجهوداته . فقد وصل ايام قسطنطين الثامن رسول من قبل الخليفة الفاطمى ، حيث عقدت معاهدة بين الطرفين تم الاتفاق فيها على ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة على منابر المساجد فى كل البلاد التى تحت الحكم البيزنطى ، وان يصلح مسجد أيوب الأنصارى خارج القسطنطينية . هذا بينما يقوم الخليفة الفاطمى من ناحيته بعمارة كنيسة القيامة فى بيت المقدس التى كانت قد تهدمت سنة ١٠٠٩ .

الامبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤)

وفى اواخر سنة ١٠٢٨ مرض قسطنطين الثامن ، ولم يعقب ابناء ذكور ، فكان آخر افراد البيت المقدونى من الذكور . ولم يكن له سوى ابنتاه زوى Zoe وثيودورا Theod ra ، وكان قد أهمل تربيتهما وتعليمهما وسيبدو اثر ذلك واضحا عندما آلت الأمور اليها بعد وفاته . كانت زوى وهى ابنته الكبرى ، قد جاوزت الأربعين من عمرها وقتذاك ، ولم يفكر والدها فى حياته فى تزويجها . على انه وهو على فراش الموت زوجها من احد النبلاء واسمه رومانوس ارجيروس Romanus III, Argyrus . وكان

متوسط السن ومن المقربين فى البلاط . وتوفى الامبراطور بعد الزواج ببضعة أيام ، فاعتلى العرش من بعده ابنتاه زوى ثيودورا ، كذلك زوج ابنته الكبرى رومانوس الذى وجد نفسه بين عشية وضحاها صاحب حق فى لقب امبراطور .

ويبدأ بهاتين الامبراطوريتين سلسلة من الحكم النسائى فى التاريخ البيزنطى ، وقد حاول رومانوس الثالث ان يؤسس من بيته اسرة فى الحكم مثل اسلافه . واعتقد انه يستطيع تحقيق ذلك باثارة الحروب بين بيزنطة وجيرانها،وان يبلى فيها بلاء حسنا،مما يعزز مركزه فى الوظيفة الامبراطورية، ولكن هذه المشاكل التى اثارها لم تؤت ثمارها ، بل كانت على العكس من ذلك كارثة على الدولة ، ولا سيما اذا عرفنا أن رومانوس الثالث كان رجلا متوسط العزم والمقدرة والذكاء . فاذا قارنا بينه وبين زوجته زوى صاحبة الذكاء الخارق ، نرى الى اى حد كانت شخصيته ضعيفة مضحكة ، والى اى حد كانت اعماله تافهة وتدعو الى السخرية . فنجد مثلا يحاول ان يكسب مجدا حربيا على حساب الدولة الفاطمية . ولم يغب عن الفاطميين الحال التى آلت اليها بيزنطة بعد موت بازيل الثانى . ولذلك تتخذ جيوشهم خطة الهجوم فى بلاد الشام . فالحق أمير حلب بصاحب انطاكية هزيمة شديدة . واسرع رومانوس لمحو العار الذى لحق بقواته ، ولكن تهوره هذا كلفه هزيمة اشد من سابقتها بالقرب من مدينة حلب سنة ١٠٣٠ م .

عندما اعتلى رومانوس الثالث العرش كانت خزائن الدولة خاوية نتيجة لسياسة سلفه قسطنطين الثامن . وزادت ما تكلفته حروبه ضد الفاطميين الحالة المالية سوءا . فاستن سياسة الاقتصاد على حساب جميع الهيئات بما فيها الكنيسة . فكان هذا مما اغضب الكنيسة التى كانت فى حاجة الى نوع من الاستقلال المالى تتيح لها القيام بمطالبها واعمالها . يضاف الى هذه المتاعب التى خلفها رومانوس ، كارثة لم يكن له يد فيها .

وهى تفشى المجاعة والأوبئة فى آسيا الصغرى سنة ١٠٣١ . كما حدث زلازل فى القسطنطينية . وقد استنفذت هذه البلايا جميع ما اقتصده الامبراطور فى الفترة القصيرة التى مارس فيها السلطة . ولكن رومانوس كان قصير النظر . وآية ذلك انه انصرف خلال هذه السنوات القليلة يبنى لنفسه ولبينه دون أن يحسب لزوجته زوى أى حساب . فتركها وشأنها ،واختارت هى لنفسها حياة السوء التى كانت غارقة فيها فى حياة أبيها . ويذكر أحد مؤرخى الدولة البيزنطية المعاصرين لها عن اخبارها وفضائحها ما يعتبر نقطة سوداء فى تاريخ الدولة البيزنطية كلها . لقد غاظ زوى أن يهملها زوجها، وهى المرأة الماكرة العنيدة المتقلبة الممتلئة غرورا وحقدا على زوجها . ولم تكن تعوزها الحيلة ، فدبرت مؤامرة للتخلص منه . ووجدت أداتها للانتقام من زوجها فى شاب جميل وسيم الطلعة اسمه ميخائيل البفلاجونى Michael the Paphlagonia وكان فى الثامنة والعشرين من عمره يمت بصلة القربى لأحد كبار البلاط . وفاحت رائحة أخبار الامبراطورية المسنة — اذ كانت قد جاوزت الخمسين — بذلك الشاب الصغير حتى ملأت القسطنطينية كلها . ولم تخف زوى حبها لميخائيل وحقدها على رومانوس ، ولم تخف أيضا ماكانت قد عقدت عليه العزم من التخلص من زوجها ليخلو الجو لها ولعشيقها . وتحقق ماهددت به ، ففى سنة ١٠٣٤ تم قتل رومانوس الثالث خنقا فى حمام القصر الامبراطورى . ولم يعرف الجناة ، وان كانت أصابع الاتهام تشير اليها والى ميخائيل هذا . اذ لم تمض ساعات على مقتل رومانوس حتى تزوجت زوى من ميخائيل ونادت به امبراطورا .

الامبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١)

لم يكن ميخائيل الرابع كما أرادته الامبراطورية زوى اذ انه لم يكد يعتلى العرش حتى أخذ يعمل بكل السبل على ابعاد الشبهة عنه ، وعلى ان يزيل من أذهان الناس علاقته بمقتل رومانوس الثالث . وتمادى فى سياسته بأن عمل على ازالة ماهناك من علاقات بينه وبين زوجته زوى . وحتى يكفر عما

اقترف ، اخذ ينصرف الى أعمال البر والتقوى ، وجلب كثير من الرهبان الى بلاطه وهم الذين نفاهم الاباطرة اللاايقونيين وساموهم العذاب . كما أمر بعمارة الكثير من المؤسسات الدينية ولا سيما الاديرة . واخذ يحكم البلاد بشيء من العدل والشجاعة . واحست زوى انها اساءت الاختيار ، ولكن بعد ان افلت الزمام من يدها . اذ انفصل ميخائيل الرابع عنها علنا ، وأمر بتضييق الخناق عليها ومراقبتها حتى لا تفتك به كما فعلت بزوجها الاول . ولم يكن من المنتظر ان يغضب الشعب على هذه التصرفات لانه كان يعرف الكثير عن مباذلها وفجورها . وقد استعان ميخائيل الرابع باخ له اسمه حنا . وكان هذا الرجل هو الحاكم الفعلى للامبراطورية وكان همه هو اثراء افراد أسرته بينما وجه ميخائيل الرابع همه الى الصرف على الرهبان والاديرة ومقابر القديسين اعتقادا منه ان هذا يكفر عما سلف وسيخفف عنه آلام المرض الذى كان مصابا وهو داء الصراع . ولكن صحة ميخائيل الرابع ازدادت سوءا وكان اخوه حنا يحلم بتأسيس امبراطورية من بيته ، ورأى ان وفاة ميخائيل المبكرة سوف تطيح بأحلامه . فأراد ان ينتهز الفرصة قبل وفاة الامبراطور ، وتمكن من اقناع زوى بأن تتبنى أحد اقارب الامبراطور ، وكان يدعى ميخائيل ايضا ، الذى اكسبته مهنة ابيه لقب بائع الشموع ، فعرف باسم **Michael the Paphlagonin** ولم يعش ميخائيل الرابع بعد ذلك طويلا ، اذ توفى فى ديسمبر سنة ١٠٤١ قبل ان يصل الى سن السادسة والثلاثين .

الامبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢)

واصبحت زوى العجوز مرة ثانية ارملة ، ولكن لم يتحقق ماكان يأمله حنا من مشروع التبنى واقامة ميخائيل الخامس امبراطورا . ذلك ان الامبراطور الجديد لم يكد يذق طعم الحكم حتى انقلب على عمه حنا وعلى الامبراطورة زوى ، فبرهن بذلك على جحوده ونكرانه للجميل . ونفذ ميخائيل الخامس خطته بأن قبض على عمه ورماه فى أحد الأديرة النائية. وبعد أن تخلص منه التفت الى الامبراطورة زوى يريد التخلص منها ، فأمرها بأن تلزم مسكنها فى القصر الامبراطورى ، وعاملها كما لوكانت سجينة . ثم اتهمها بعد ذلك بمحاولة اغتياله بدس السم له ، وبعد محاكمتها وثبوت ارتكابها الجريمة أمر بنفيها سنة ١٠٤٢ ، وارسالها الى احدى الجزائر خارج العاصمة .

وظن ميخائيل الخامس أنه ارتاح من عمه ومن زوى . ولكنه كان مخطئا فى تقديره . اذ مهما قيل فى زوى ومساوئها ، فلم ينس المعاصرون لها أنها كانت سليلة البيت المقدونى الذى أدى بعض اباطرته أمثال نقفور فوكاس وتزمسكيس وبازيل الثانى اجل الخدمات للشعب البيزنطى ، ورفعوا من شأن بيزنطة وهيبتها . أما ميخائيل الخامس فقد كان فى نظر المعاصرين له مجرد مغامر وليس من البيت المقدونى نفسه . وهذا ماحدث بالفعل ، اذ رأى الناس أن موقف ميخائيل الخامس من زوى فيه مساس بمبدأ الوراثة الشرعى الذى تعب المقدونيون فى تأسيسه ، والذى ارتضاه الجميع وساروا عليه منذ أيام بازيل الأول . ففى ١٩ ابريل سنة ١٠٤٢ قامت ثورة فى القسطنطينية تنادى بسقوط ميخائيل وبالافراج عن زوى واعادتها . واندفعت المظاهرات نحو القصر الامبراطورى ، وكانت فرصة أعمل فيها الشعب السلب والنهب والتخريب . ولم ينقذ الموقف سوى عودة الامبراطورة العجوز من المنفى . ولم يكن من السهل اخماد الثورة التى تمادت فى مطالبها. فطلبت عزل ميخائيل الخامس من منصبه . واتجهت الأفكار الى ثيودورا أخت الامبراطورة المنفية ، لاقامتها الى جانب اختها فى المنصب الامبراطورى.

وفعلا اعيدت من الدير لتشـارك اختها فى حكم البلاد وفقا لوصية ابيهمـــا .
بعد ذلك اتجه الثوار الى ميخائيل الخامس يريدون قتله ، فلما علموا بهروبه
من القصر تعقبوه والقوا القبض عليه . وكان من الطبيعى ان تنتقم زوى
واختها ثيودورا منه ، فسملت عيناه ونفى من العاصمـــة . وبذلك انتهـت
هذه الثورة التى لم تدم سوى ايام فى الحادى والعشرين من ابريل مـــــن
نفس العـــام .

زوى وثيودورا وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٥)

هكذا بدا للمرة الثانية حكم الأختين زوى وثيودورا صاحبتى الحق الشرعى فى البلاد . ولكن الوضع كان غريبا ، ورأى المخلصون لحق الوراثة الشرعى بضرورة زواج احداهما ضمانا لاستمرار البيت المقدونى على العرش . وقد رفضت ثيودورا الزواج . ولكن الأخت الكبرى قبلت الزواج للمرة الثالثة ، وكانت اذ ذاك فى الثانية والستين من عمرها . ففى يونيو سنة ١٠٤٢ تزوجت من شخص اسمه قسطنطين مونوماكوس Costantine Monomachus الذى توج امبراطورا غداة الزواج تحت اسم قسطنطين التاسع . وأصبحت الامبراطورية الآن بيد امراتين ورجل ، واستمر هذا الوضع الشاذ حتى سنة ١٠٥٥ .

ولكن الآمال التى عقدت على قسطنطين التاسع تهاوت كلها .كان داعرا سكيرا محبا للترف ومظاهر العظمة والأبهة . وكما ظل الحكم قبل قسطنطين فترة غير قصيرة فى يد النساء ، كذلك بقى الحكم فى ايامه فى يد النساء ايضا . وليس المقصود زوى وثيودورا هذه المرة،وانما نعنى بذلك عشيقات الامبراطور الجديد وصاحباته اللائى اصبح لهن الأمر والنهى فى البلاد . وفى ظل هذه الظروف الغريبة التى عاشتها بيزنطة، يقال ان زوى لم تشأ أن تقسو على زوجها الثالث ، فتركته يفعل ما يحاوله ، وانها سمحت لصديقة قديمة له أن تعيش مع زوجها واختها فى القصر الامبراطورى ، بل وأن تشاركهم فى الحكم أيضا . وبذلك أصبحت مقاليد الأمور فى البلاد فى يد اربعة ، ولا هم لهم سوى جمع الأموال والثروات . وقامت بعض البيوت الاقطاعية فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان تريد انهاء هذا العهد العجيب ، وخلع قسطنطين التاسع ، ولكنها فشلت جميعها .

وفى زحمة هذه الظروف وقع حدث خطير كان له اكبر الأثر فى التاريخ البيزنطى ، وفى تاريخ العلاقات بين العالمين اللاتينى والاغريقى ، وفى تاريخ

المسيحية كلها ، ونعنى بذلك القطيعة الدينية الكبرى سنة ١٠٥٤ بين الكنيستين الشرقية والغربية التى تعتبر وفقا لرواية المؤرخ ستيفن رانسيمان وصمة عار فى جبين المسيحية ، والتى لازالت تعانى من آثارها حتى اليوم . ويرجع السبب فى حدوث هذا الشقاق أن بطريق القسطنطينية وقتذاك وهو ميخائيل كيرولاريوس Michael Carularius كان يسعى الى ان يكون امبراطورا وبطريقا تشبها بباب روما ، وأن يصبح له من المركز والنفوذ مالا يقل عن زميله الغربى فى شىء . واختار كيرولاريوس أواخر أيام قسطنطين التاسع ليقوم بحركته هذه ، فكان هذا مما زاد الطين بلة والأمور تفاقما .

وهكذا نجح كيرولاريوس فى احداث هذا الانقسام الخطير فى تاريخ الكنيسة ، عندما أعلن ان البابوية فى القرن العاشر أصبحت أداة مسخرة فى يد الدولة النورمانية الجديدة تحركها كيفما تشاء ، وأنها تحاول ازالة سيادة بيزنطة عن جنوب ايطاليا لأطماع النورمان فى هذه المنطقة ، وأنه ضمانا لمصلحة بيزنطة ونتيجة لهذه الأسباب يحسن أن تكون كنيستها مستقلة بشئونها . وفى سنة ١٠٥٣ أرسل البطريق كيرولاريوس الى أحد أساقفته خطابا يهاجم فيه البابوية وتقاليدها . قال ان اتباع تقاليد كنيسة روما البابوية فيه كفر ومخالفة للتعاليم المسيحية الأولى . واعتبر هذا بمثابة اعلان الحرب على البابوية . وكان يجلس على الكرسى البابوى فى ذلك الحين البابا ليو التاسع،وهو أحد رجال الاصلاح الذين انجبتهم حركة كلونى الديرية التى كانت تهدف الى اعلاء النفوذ البابوى وتقوية مركز البابوية والكنيسة اللاتينية فى الغرب ليكون لها دور فعال فى توجيه الناس والسيطرة عليهم باسم الدين . ولما كانت مسألة انفصال الكنيسة البيزنطية عن بابوية روما فيها تحد صريح لنظرية عالمية البابوية وسيادتها على باقى الكنائس المسيحية ، تلك النظرية التى نادى بها الكلونيون ، فقد بادر ليو التاسع بارسال خطاب يعلن فيه أحقية سيادة الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقية، واستطاع ليو التاسع ان يقضى على حركة البطريق البيزنطى عندما نجح

فى استمالة الامبراطور البيزنطى الى جانبه فى دعواه . ولكن العمر لم يمتد بليو التاسع فتوفى سنة ١٠٥٤ ، وخلا مركز البابوية لمدة سنة ، فانتهز ميخائيل كيرولاريوس هذه الفرصة السانحة ونجح فى اجتذاب كبار رجال الكنيسة الشرقية ، ولاسيما أنطاكية ، الى جانبه . واضطر الامبراطور الى الخضوع لآرائه ، واعلن رسميا بكنيسة سانت صوفيا بالقسطنطينية أن الكنيسة الشرقية أصبحت مستقلة بشئونها استقلالا تاما عن الكنيسة البابوية .

واذا عدنا الى زوى وثيودورا وقسطنطين التاسع وحبيبته ، نجد انه نقص عددهم واحدا بوفاة الحبيبة الامبراطورية سنة ١٠٤٤ ، بينما انصرفت زوى فى السنين الأخيرة من حياتها الى ناحية غريبة وهى صنع الروائح العطرية بالقصر الى أن توفيت سنة ١٠٥٠ . هذا بينما انقطعت الأخت الثانية ثيودورا للصلاة والعبادة كعادتها بعيدا عن شئون الحكم . وهكذا أصبحت ثيودورا المتنسكة صاحبة الحق فى المنصب الامبراطورى . ولكن قسطنطين التاسع لم يعترف لها بذلك ، وظل يحكم بمفرده فقط واخرج ثيودورا من القصر الامبراطوري . ولكنه لم يلبث أن الم به المرض الذى أودى بحياته فى أوائل سنة ١٠٥٥ . وبذلك صارت الأمور كلها لثيودورا ، وكانت فى ذلك الحين عجوزا فى السبعين من عمرها . وبقدر ما كانت اختها مغرورة كانت هى تقية . وهى وان لم تكن بحال من أفضل حكام بيزنطة ، الا انها أيضا لم تكن أسواهم . وفى خلال السنتين التى تولت فيهما الحكم بمفردها لم تقلق راحتها ثورات داخلية أو حروب خارجية . وقد أكسبتها فضائلها التى كانت تتحلى بها بعض الاحترام من قبل طبقات الشعب .

ولكن كان من الطبيعى أن تثار من جديد مسألة وراثة العرش .ونادى رجال البلاط بوجوب زواج الامبراطورة المسنة ابقاء للعرش فى أبناء البيت المقدونى . ولكنها رفضت هذا الزواج ، وتوفيت فى اغسطس سنة ١٠٥٧ . وبموتها ينتهى البيت المقدونى على هذه الصورة العقيمة . .

ميخائيل السادس ونهاية البيت المقدونى

انتهى البيت المقدونى ، ولكن حزب البلاط ومؤامرات القصر لم تنته، ذلك ان رجال البلاط كانوا قد جعلوا الامبراطورة وهى على فراش الموت على أن توصى بالعرش الى شخص من بيوت البطارقة فى العاصمة البيزنطية اسمه ميخائيل ستراتيوتيكوس Michael Stratoticus .

وكان ميخائيل هذا رجلا مسنا ، وذلك حتى يكون أداة سهلة طيعة لخدمة سياستهم ، وحتى يبعدوا العناصر الاقطاعية عن الحكم . وظن رجال البلاط ان الأمور ستسير وفق هواهم ، فقد كان الامبراطور الجديد ميخائيل السادس مختارا من قبل الامبراطورة تيودورا آخر سلالة البيت المقدونى الذى تمسك الشعب البيزنطى به ، غير انهم اخطأوا التقدير . فان تعلق الناس بالبيت المقدونى زال بزوال هذا البيت . وحاولت البيوت الاقطاعية الكبرى القضاء على حزب البلاط اثناء حكم ميخائيل السادس ، واستطاع أحدهم من بيت كومنين واسمه اسحق كومنين أن يجمع معظم البيوت الاقطاعية حوله وأن يعلن الثورة سنة ١٠٥٧ . وحاول الامبراطور ميخائيل السادس ورجال البلاط اخماد الثورة بمنح الوعود والعهود لرجالها دون جدوى . بل انها امتدت حتى بلغت القسطنطينية نفسها . فانفجرت العاصمة معلنة الثورة ، وانتهى الامر بخلع الامبراطور ميخائيل السادس ودخول اسحق كومنين العاصمة وتتويجه امبراطورا . وهكذا انتهى الاثر الأخير من تاريخ البيت المقدونى ، وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، بتربع اسرة جديدة على عرشها عرفت فى التاريخ باسم أسرة دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٨١) .

ويتحدث شارل ديل عن انهيار البيت المقدونى فيقول :

« انه رغما عن الأخطاء الحقيقة التى عددت الامبراطورية البيزنطية ، فانه كان يكفى — مع كل هذا — لتعزيز هيبة الحكومة وسلطتها ، وجود حكام قادرين يواصلون تقاليد واسس سياسة ماهرة متينة . وشاء سوء الحظ

ان وجدت حكومات من النساء أو من حكام غير اكفاء مهملين ، فكان هـذا نقطة البداية نحو ازمة جديدة .

هذا ، وقد وردت فقرة فى كتاب بينز وموس المعنون « بيزنطة » عن نهاية البيت المقدونى ، جاء فيها : « ويجب سرد نهاية البيت المقدونى باختصار . ذلك أنه ما ان زالت قبضة بازيل الثانى القوية ، حتى عادت الى الظهـور والتسلط كل المؤثرات الجانبية ، والتى كان بازيل قد أخمدها . ولقد عاشت الامبراطورية طوال ثلاثين عاما بعد وفاته (١٠٢٥ — ١٠٥٦) على ولائها واخلاصها للبيت المقدونى ، بينما تنازلت ابنتا قسطنطين الثامن ، وهما زوى وتيودورا العاقرتان عن السلطة كلها الى سلسلة من الحكـام الضعـاف المتوسطى الشأن . واعقب زوال الأسرة المقدونية فترة من الفوضى التى لازمتها البلايا والمحن (١٠٥٧ — ١٠٨١) استمرت حتى مجىء آل كومنين . »

الموضوع الحادى عشر

اسرة دوكـــاس

١٠٥٧ — ١٠٨١

احوال الدولة البيزنطية فى عهد اسرة دوكـــاس

يلاحظ البحث المدقق ان مقاليد الحكم والادارة فى بيزنطة ووظائـــف الدولة ومسئولياتها ، كانت منذ سنة ١٠٢٥ حتى سنة ١٠٥٧ — اى حتـــى نهاية حكم البيت المقدونى — فى يد فئات من المغامرين ومن اصحاب وعشيقات الأباطرة ، مما ادى الى ابعاد البيوت الاقطاعية الكبرى التى كانت لها مصالح فى الدولة وأقاليمها عن مسرح الأحداث . ويلاحظ كذلك أن الظروف ساعدت الى حد بعيد ان تظل الوظيفة الامبراطورية بيد تلك الفئات وابنائها حوالى نصف قرن من الزمان . هذا ، بينما ظلت البيوت الاقطاعية بعيدة . كما انتاب الجيش البيزنطى مظاهر الضعف والانحلال . ذلك ان تلك البيوت هى التى كانت تهيمن فى الماضى على الجيش وتمونه بخيرة ابنائها . اما الآن فلم تعد القسطنطينية تستمد جيوشها من الأقاليم المختلفة كما كان الحال من قبل . وعلى هذا يمكن القول بأن الفترة من سنة ١٠٢٥ الى سنة ١٠٥٧ كانـــت عبارة عن نضال عنيف مستمر بين جماعات المغامرين وبين البيوت الاقطاعية الكبرى صاحبة المصالح فى البلاد . وقدر لهذا الصراع ان يستمر لفتـــرة طويلة عانت منها البلاد الأرين . وساعد على ذلك أن بيزنطة لم تواجههـــا فى تلك الفترة مشاكل خارجية خطيرة تحول دون قيام الصراع الحزبى الداخلى وقد اتاح ذلك للحزب الامبراطورى وهو حزب البلاط ان يواصل مؤامراته ودسائسه لبقاء السلطة فى يده . هذا ، فضلا عن استناد رجال البلاط على الفكرة الخاصة بوجوب المحافظة على الوظيفة الامبراطورية فى سلالة البيت المقدونى تحقيقا لمصالحهم ورغباتهم . غير أنه بموت الامبراطورة تيودورا وانقراض البيت المقدونى ماتت تلك الفكرة نفسها . فصار حزب البـــلاط وجها لوجه امام البيوت الاقطاعية الكبرى . وكان ميخائيـــل الســـادس ستراتيوتيكوس Michael VI, Stratioticus الذى اختارته ثيودورا ليخلفها على العرش زعيما لفريق رجال البلاط . بينما كان اسحق كومنين

Isaac Comenus زعيما للبيوت الاقطاعية وقواد الجيش .
وقد تمكن كومنين من خلع ميخائيل عن العرش بعد مضى عام واحد من توليه الحكم ، وكان وصوله الى العرش سنة ١٠٥٧ دليلا واضحا على أن حزب البلاط قد فقد كل امل فى الاستمرار فى الحكم بعد أن فقد السند الذى كان يرتكز عليه .

الامبراطور اسحق كومنين (١٠٥٧ — ١٠٥٩)

ولعل من اهم الأحداث التى تميز حكم الامبراطور اسحق كومنين (١٠٥٧ — ١٠٥٩) تلك الواقعة الكبرى التى كان لها أثرها فى تاريخ الشرق الأدنى ، ونعنى بها حركة السلاجقة . كما وقعت فى التاريخ الأوروبى حادثة لاتقل اهمية عن ذلك ، وهى حركة تقدم النورمان فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . ولو ان حركة تقدم النورمان هذه تخص تاريخ غرب اوروبا فى العصور الوسطى ، الا انها كانت لها آثارها بالنسبة للدولة البيزنطية . اذ ان تمكينهم لأنفسهم فى صقلية وجنوب ايطاليا جعلهم يحاولون بعد ذلك الاستيلاء على بيزنطة نفسها ، كما سنرى فى حروب روبرت جويسكار وابنه بوهيمند (١٠٨١ — ١٠٨٥) . كذلك ساهموا بنصيب وافر فى الحروب الصليبية تحقيقا لأطماعهم وأغراضهم الشخصية . ويتميز عهد اسحق كومنين بالنسبة للحوادث الخارجية بتحرك المتبربرين على الأقاليم الشمالية لبيزنطة .

تلك هى اهم الأحداث الخارجية فى عهد اسحق كومنين . على أن الأهمية الحقيقة لحكمه تنحصر فى انه هو المؤسس لبيت جديد فى العرش الامبراطورى . وهو ايضا الذى استن قواعد فى السياسة الداخلية فى التاريخ البيزنطى ، تلك السياسة التى سار عليها خلفاؤه من أبناء بيت كومنين . وهى تقوم أساسا على هدم النظام القديم . وخلاصتها أن كومنين كان من العسكريين ، وقد وصل الى العرش بمساعدة رجال الجيش وكافأهم على صنيعهم له . الا انه لم يترك الوظائف الكبرى بيدهم حتى لايصبح تحت

رحمتهم . كذلك افادته الوسائل التى تعلمها فى المعسكرات فى ادارة شئون الحكم . فطبق نظام المعسكرات الذى يمتاز بدقته الفائقة فى الأمور المالية ، فى وقت كانت الدولة فيه فى امس الحاجة الى من يتناول هذه الناحية بالحزم والعزم . وقد ادى ذلك بطبيعة الحال الى اغضاب كثير من الفئات التى صادر الامبراطور أموالها ، وكان معظمها من البيوت الاقطاعية التى ساعدته على الوصول الى العرش . ومن هنا بدا الخلاف بين هذه الفئات وبين الامبراطور .

واخذت تلك العناصر تبحث عن الشخصية القوية التى تستطيع تزعم حركة ضد الامبراطور الذى جاءت به الى العرش . فلم تجد أمامها افضل من شخصية كليولاريوس بطريق القسطنطينية الذى انتهز هذه الظروف المختلفة وتلك التيارات المتعارضة ، كما استغل موقف البابوية فى روما من حزب رجال البلاط فى بيزنطة ، وامر بفصل الكنيسة البيزنطية عن بابوية روما وكنيستها الكاثوليكية . وكان كليولاريوس رجلا صاحب أطماع بعيدة . وقد قام بدور كبير فى الثورة التى ادت الى اقامة اسحق كومنين امبراطورا ، حتى ان الامبراطور كافأه على ذلك بأن تنازل له عن حق تعيين رجال الدين بكنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية . وكان هذا يعنى بعبارة واضحة أن الامبراطور البيزنطى قد بدأ يتخلى عن ركن أساسى من اركان السياسة الامبراطورية البيزنطية منذ أن أسس قسطنطين عاصمته واعترف بالمسيحية كدين رسمى للدولة وبالكنيسة المسيحية والامبراطور باعتباره رأس الكنيسة الاعلى . وتمادى كومنين فى مجازاته للبطريق ، فتنازل له عن كل العقارات والأملاك والهبات الموقوفة على كنيسة أيا صوفيا . وهكذا اصبح كليولاريوس مستقلا فى كل مايتعلق بالشئون الدينية عن الامبراطور . ولكنه لم يقنع بما حصل عليه ، وطالب بالمزيد من الامتيازات ، اذ امتدت أطماعه الى ابعد من ذلك بكثير . فقد كان يطمع فى أن يجمع فى يديه السلطة السياسية الى جانب السلطة الدينية تشبها ببابوات روما . واخذ يتدخل فعلا فى الأمور

السياسية سرا تارة وعلنا تارة أخرى . ولما استشعر اسحق كومنين بتزايد خطر نفوذ البطريق عليه ، استقر عزمه على هدم كليولاريوس بالرغم من تلك المكانة التى كان يتمتع بها فى نفوس الشعب ، وبالرغم من أنه صاحب الفضل فى استقلال كنيسة بيزنطة عن البابوية ، بل وصاحب الفضل الأول فى قيام كومنين نفسه على العرش الامبراطورى .

برغم كل ذلك انتهز الامبراطور فرصة اعتكاف البطريق المقدس سنة ١٠٥٨ ، وطلب منه وهو فى منفاه ان يخضع لمشيئة الامبراطور خضوعا تاما، بالتنازل عن بطرياكيته . ولما رفض كيلولاريوس الانصياع لرغبة كومنين ، اتهمه الامبراطور بأنه ارتكب بعض المعاصى اثناء اسبوع الاعتكاف المقدس تعتبر خروجا على تعاليم الدين . وطلب للمحاكمة ، ولكن وافته منيته قبـــل المحاكمة ، واستراح الامبراطور منه . ولكن لما كانت شخصية كليولاريوس قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالكنيسة البيزنطية وبالدولة البيزنطية نفسها ، اذ جعل لكنيستها كيانا مستقلا عن بابوية روما ، لذا أدرك اسحق كومنين أنه وقع فى مشكلة بوفاة البطريق قبيل محاكمته . ولكى يتقى غضب الشعب واستياء رجال الكنيسة لموقفه ، فقد توجه الى قبر البطريق طالبا المغفرة على ما اقترافه فى حقه من اخطاء .

ومع ذلك ، لم تنته مشاكل كومنين الداخلية بموت البطريق العنيـــد الذى لم يكن فى الواقع سوى مشكلة واحدة من مشاكله العديدة التى أراد معالجتها بشىء من القوة والعنف . اذ اتجهت نواياه الى تغيير النظام القديم كله ، والاسراع فى تنفيذ مشاريعه الجديدة الاصلاحية . وهكذا لم يكد ينتهى من مشكلة كليولاريوس ، حتى وقع فى خطأ آخر . فان تحمسه للاصلاح أدى الى غضب بعض العناصر التى ساعدته للوصول الى العرش .

وفى عام ١٠٥٩ مرض الامبراطور ، وقرر ترك العرش والانـزواء فى حياة ديرية هادئة بعيدة عن مشاكل الحكم . والواقع أن تنازله عن العرش

لم يكن لتسبقته مرضه ، انما بسبب فشله فى تنفيذ مشاريع الاصلاح . ولم يوص بالعرش لأخيه حنا كومنين حتى يجنبه متاعب الحكم واحتمال الفشل والخيبة . وأشار بأن يليه على العرش أحد أصدقائه ، وهو رئيس مجلس السناتو . وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على ان الامبراطور اسحق كومنين قد كره الوظيفة الامبراطورية ومتاعبها . ولم يشأ بان يلقى بأحد من أهله وأقاربه فيها . وجدير بالذكر أن المصادر المعاصرة لم تذكر اكثر من هذا فى تبرير تنازل كومنين عن العرش . ومع ذلك فهناك بعض الاحداث التى تلقى بعض الضوء على سبب التنازل . ذلك ان الامبراطور عمل على سحق السلطات المدنية الممثلة فى بقايا رجال البلاط رغبة منه فى اعادة الاسر الاقطاعية الى شىء من مجدها القديم .فاستغلت هذه السلطات تلك الظروف، واخذت تلعب من وراء الستار ، وتصيد فى الماء العكر ، الى ان استعادت بعض نفوذها بعد تنازل اسحق كومنين عن العرش . وفى هذا دلالة ضمنية على ان بقايا رجال القصر والبلاط هم الذين الجأوا كومنين الى اتخاذ هذه الخطوة مكرها .

ولما كانت هذه السلطات المدنية ترغب فى الانتقام من الأسر الاقطاعية، فقد عملت على اضعاف الجيش بتقليل عدد الجنود وتخفيض المخصصات الحربية دون النظر لمصالح الدولة . وكان لهذه الاجراءات أسوأ العواقب وأوخمها . اذ ظهرت فى تلك الفترة دولة الاتراك السلاجقة منيعة قوية ، واخذت تنمو بسرعة عجيبة . وتمكنت من اجلاء الحاميات البيزنطية من جميع البلاد التى كانت الدولة قد استعادتها اخيرا مثل انطاكية وحلب .

وتفصيل ذلك ان سلطنة السلاجقة اخذت منذ سنة ١٠٦٣ ، وهى سنة اعتلاء السلطان ألب أرسلان ، تغير على الشام وآسيا الصغرى ، واجلت البيزنطيين عن البلاد التى تم لهم فتحها حديثا . وكانت أشد هذه الاحداث وقعا بالنسبة للبيزنطيين هى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١ . وكان

الامبراطور وقتذاك هو رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ — ١٠٧١) . وفى هذه الموقعة الفاصلة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، خسرت بيزنطة جيشها كله ، ولحقت بها شر أنـــواع الهزيمة . بينما تقدمت جيوش السلاجقة الى جوف آسيا الصغرى حتـــى صارت على مقربة من القسطنطينية.وفى سنة ١٠٧٨ استولى السلاجقة على مدينة انطاكية فى عهد ملك شاه ووزيره نظام الملك . وكان سقوط انطاكية ضربة جديدة أصابت بيزنطة فى الصميم ، فهى تعنى أن الطريق أصبح مفتوحا أمام السلاجقة للتوغل فى قلب الامبراطورية وتهديد عاصمتها . وهكذا ظلت دولة السلاجقة شبحا خطيرا يهدد الدولة البيزنطية حتى وفاة ملك شـــاه سنة ١٠٩٣ . ولعل السبب الرئيسى فيما نزل بالبلاد من بلايا هو تلـــك السياسة السيئة التى اتبعها كل من حزب البلاط والأسر الاقطاعية الذين كانوا يسعون وراء مصالحهم دون أى اعتبار لمصالح الدولة .

ويزودنا ستيفن رانسيمان فى كتابه « الحضارة البيزنطية » بصـــورة واضحة عن خطر الأتراك السلاجقة فى أواخر عهد أسرة دوكاس . يقول: ..... وأعاد رومانوس [الرابع ديوجينيس] تنظيم الجيش . ولكنه واجه فى عام ١٠٧١ خطر تدفق السلاجقة فى أرمينية . وتعرضت الامبراطوريـــة [البيزنطية] فى موقعة ملاذكرد لكارثة لم تقم لها من بعدها قائمة ، بسبب جهله بفن الحرب والقتال . وتعتبر سنة ١٠٧١ . وهى السنة التى سقطت فيها مدينة بارى ووقعت معركة ملاذكرد — نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى . وأسر رومانوس الرابع فى المعركة . وما أن وصلت أخبارها الى العاصمة حتى تقلد ميخائيل السابع — وكان قد شب وكبر — مقاليد الحكم ، ولكنـــه أخفق فى محاولته اعادة النظام ، وكبح جماح النبلاء ، وطرد الأتراك . وفى تلك الأثناء اجتاح الأتراك آسيا الصغرى كلها ، وكشفوا عن عزمهم على تثبيت أقدامهم هناك . لقد كانوا شعبا بدائيا لم تصل اليه الحضارة بعد ، فى طبيعته ميل للفتك والتدمير . كما كانوا رعويين ، لم يختصوا بحراثة الأرض

وزرعها . وحيثما حلوا انعدمت الفلاحة والزراعة ، وتهدمت الطـــــرق والقنوات . ونتيجة لتحول آسيا الصغرى السريع الى صحراء قاحلـــة ، أصبح من العسير على الامبراطورية استردادها . هذا ، بينما ادى ضياع هذه المقاطعة الى فقدان الامبراطورية مركزا حربيا ممتازا ، ومخزنا رئيسيا للغلال . وكان لابد من اعادة تنظيم مشكلة الامدادات ، كما بات ضروريـــا الاعتماد أكثر فاكثر على المرتزقة من الاجانب . »

ولم يكن خطر الاتراك السلاجقة الذى هدد دولة الروم الشرقية بشر مستطير هو الخطر الوحيد فى أوائل القرن الحادى عشر . ففى هذه الفترة أيضا برزت قوة جديدة فى الميدان سببت لبيزنطة متاعب كثيرة ، ونعنى بها قوة الدولة النورماندية . فقد استولى النورمان على مدينة بارى **Bari** بجنوب ايطاليا والتابعة لبيزنطة . واخذ زعماؤهم وهم أسرة جويسكارد **Guiscard** يغيرون على اقاليم الدولة البيزنطية فى البلقان ، ويفكرون فى الاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية . وفى الشمال الغربى هبت أجناس اخرى مثل الكرواتيين والبلغار والصرب ، وسعوا الى الاستقلال ، ونجحوا فى ذلك بمساعدة البابوية فى روما ، التى كانت تعتبر بيزنطة منــذ حادثـــة الانفصال الشهيرة سنة ١٠٥٤ خارجة عن رحمتها ، وعملت على مضايقتها. مثال ذلك أن البابا جريجورى السابع انتهز هذه الحركات الانفصالية ، وتدخل فى مسألة الكرواتيين وتوج أول ملوكهم كملك مستقل انتقاما مـــن بيزنطـــة ونكاية فيها . واستغلت هذه الفرصة اقاليم وشعوب أخرى فى البلقان فنادت باستقلالها عن بيزنطة . فنجد مثلا الصربيين سنة ١٠٧١ يزيلون السيادة البيزنطية عن بلادهم ، وبالمثل فعل البلغار والمجريون .

الموضوع الثانى عشر

اسرة كومنين

(١٠٨١ ــ ١١٨٥)

الامبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨)

هذا عن مشاكل الدولة البيزنطية الخارجية ، ولم تكن الحالة الداخلية فيها احسن حالا . فكانت السلطات المدنية ، حسبما اسلفنا ، لاتزال ضد السلطات الحربية الاقطاعية . وبدت الدولة على شفا جرف من الانهيار . وفى زحمة هذه الأحداث اعتلى العرش حفيد لاسحق كومنين استطاع ان ينقذ الموقف ويخرج بالبلاد سالمة مما يتهددها ، ذلك هو الكسيس كومنين ابن حنا كومنين الذى لم يشأ اسحق أن يعينه من بعده سنة ١٠٥٩ . ذلك أن اسرة كومنين لم تنهج نهج عميدها اسحق ، ولم تشاركه رأيه فى النزول عن الوظيفة الامبراطورية تجنبا للمشاكل العديدة التى واجهت الدولة وقتذاك . ونجح الكسيس فى الوصول الى العرش بعد سلسلة من الفتن والاضطرابات والمؤامرات الداخلية . وقد ساعده فى ذلك تلك الخدمات الحربية التى أداها للدولة أثناء مشاكلها وكوارثها الماضية ، فى وقت كانت فيه الخدمات الحربية قليلة . وغير خاف أن الكسيس جاء الى العرش وهو على معرفة تامة بأحوال البلاد الداخلية والخارجية . فسعى جاهدا الى اصلاح ما افسدته الأحداث منذ أخريات أيام الأسرة المقدونية حتى أواسط القرن العاشر . ثم أنه أدخل الكثير من الاصلاحات . فعمل على اصلاح الجهاز الكنسى ورجال الدين ، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية . ومع ذلك لم يكن باستطاعته أن يبدأ سياسة حربية خارجية ناجحة وقتذاك . فان الأحداث الماضية أضعفت كثيرا من قوة الجيش ، وتطلبت مجهودا كبيرا قبل أن يصبح الجيش أداة فعالة صالحة . ولذا وجد الكسيس نفسه مضطرا الى الالتجاء الى فكرة الاستنجاد ببعض الدول ضد النورمان . كما لجأ الى سياسة الفرقة والايقاع بين الدول المجاورة وبعضها البعض . وقد أحرز من وراء ذلك عدة مكاسب سياسية .

النورمان والكسيس كومنين

كانت المشكلة الأولى التى تواجه الكسيس كومنين فى الميدان الخارجى

هى مشكلة النورمان . واخذوا فى ذلك الحين يفكرون جديا فى غزو البلقان وفى سنة ١٠٧١ استولوا على مدينة بارى جنوبى ايطاليا . وكـان الدوق النورماندى روبرت جويسكار يفكر فى غزو القسطنطينية نفسها . ففى عام ١٠٨١ عبر البحر الادرياتى لتنفيذ مشروعه الذى يعتبره بعض المؤرخين من المشروعات التوسعية الاقطاعية . وقد استولى على مدن كورفو ودورازو . ونظر لأنه لم يكن باستطاعة الامبراطور البيزنطى وقتذاك مواجهة النورمان وابعاد خطرهم عن دولته وعاصمته ، اذ لم يكن قد بدأ بعد تنظيم البحريـة والجيش البيزنطى ، ولم يكن تحت امرته فى السنوات الأولى من حكمه قوة كافية يستطيع الاعتماد عليها لمواجهة هذا الخطر . ولهذا لجأ الى سياسة تسليط الأعداء بعضهم على بعض تحقيقا لاغراضه . فأغرى بعض النورمان ممن يقيمون فى القسطنطينية بالذهاب الى أراضى الدولة النورماندية واشاعة الفوضى والاضطراب فيها ، فيجد روبرت جويسكار نفسه مضطرا الى التخلى عن مشروعه فى اراضى بيزنطة ، والالتفات الى ايطاليا . وفى نفس هـذا الوقت ارسل الكسيس الى البابا جريجورى السابع محاولا اجتذابه الـى جانبه ضد النورمان ، ولكنه لم يلق من البابا آذانا صاغية . وقد دفعه فشله فى هذه الناحية الى الاتصال بالامبراطور هنرى الرابع امبراطـور الدولـة الرومانية الغربية المقدسة،والاتفاق معه لمناصرته ضد النورمان.وقد وعده بدفع جزية سنوية كبيرة له.وكان الكسيس يهدف من وراء ذلك اشباع رغبة هنرى الرابع فى تحقيق الأمل الذى اراد جميع الاباطرة الغربيين تحقيقـه ، وهو عالمية الامبراطورية الرومانية ، مما ادى الى قيام النزاع المعروف بين الامبراطورية والبابوية ، والذى كان هنرى هو صاحب الدور الأول فيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان هدف الكسيس الأساسى هو ان يقوم الامبراطور الالمانى بحملة ضد النورمان فى جنوبى ايطاليا ، وبذلك يشغلهم عن مواصلة مشروعهم التوسعى ضد دولته . ولم يكتف الامبراطور البيزنطى بذلك ، بل فاوض البندقية ليستخدم سفنها الحربية ضد النورمان ، وتم عقد

معاهدة بين الطرفين فى هذا الشأن . ولم يترك الكسيس كومنين وسيلة الا واتبعها لاحباط مشاريع النورمان . فلم يتردد فى عقد صلح مع سلطان سلاجقة الروم حتى يأمن جانبهم . وكانت دولة السلاجقة قد اخذت تتحول فى ذلك الحين الى اجزاء اقلبمية ، على كل منها سلطان يتبع السلطان السلجوقى الأعظم ملك شاه فى بغداد . وهكذا بعد أن تم الصلح بين الكسيس وسلاجقة الروم ، خلا له الجو ، وبات باستطاعته أن ينصرف الى اعدائه النورمان لملاقاتهم ودفع خطرهم .

والذى يهمنا أن الحرب بين النورمان والدولة البيزنطية اندلعت سنة ١٠٨١ ، وانقض الأسطول البيزنطى على الأسطول النورمانى ، وانتهى الأمر بهزيمة الجيش البيزنطى بقيادة الامبراطور . وانفتح الطريق امام النورمان ، فتقدموا من دورازو ليتوغلوا فى البلاد الواقعة على الساحل الأدرياتى ، حتى احتلوا معظم البانيا الحالية . ولكن روبرت جويسكار وجد نفسه مضطرا للرجوع الى ايطاليا بسبب ما قام به انصار الكسيس كومنين من فتن واضطرابات فى تلك الجهات . ولكن النورمان واصلوا تقدمهم ، واستطاعوا بقيادة ابنه بوهيمند من الحاق الهزيمة بالبيزنطيين مرة ثانية . واخذوا يتقدمون من الجهات الأدرياتية شرقا حتى بلغوا مدينة لاريسا Larissa وظل الخطر النورمانى ماثلا أمام البيزنطيين والجيوش النورمانية تتقدم فى أملاك الدولة البيزنطية حتى توفى جويسكار سنة ١٠٨٥ . وبوفاة اكبر عدو لبيزنطة وقتذاك زال الخطر النورمانى عن البلاد زوالا مؤقتا ، اذ عاد هذا الخطر بصورة أشد فى شخص بوهيمند عندما اشترك فى الحملة الصليبية الأولى ، واحتك بالبيزنطيين والكسيس كومنين حول مشكلة انطاكية .

على اية حال ، لم تكن مشكلة النورمان هى المشكلة الوحيدة التى واجهت الكسيس ، فقد كانت هناك مشاكل خارجية أخرى تختلف عنها فى أن

هدفها لم يكن الدولة البيزنطية نفسها ، وانما كانت عبارة عن حركـــــات استقلالية محدودة لشعوب واجناس كانت تتبع بيزنطة تبعية غير واضحة مثل الصرب والبلغار . على ان سياسة آل كومنين التى كانت تقوم علـــى تسليط الدول والجيران وتأليب بعضهم على بعض ، وعلى الاستنجاد بالبابوية وببعض دول غربى اوروبا ، مثلما فعلوا عندما استغلوا موقف الامبراطورية الرومانية الغربية من النورمان — كل هذا مكن مؤسس الأسرة الكومنينية من المحافظة على كيان دولته واسرته . ولئن نجحت سياسته هـــذه مـــع النورمان وغيرهم من الأعداء فى القطاع الغربى من بيزنطة ، فقد فشلت فى علاقته بالسلاجقة شرقا .

الكسيس كومنين والسلاجقة

كان نجاح الكسيس كومنين فى معالجة مشاكله الخارجية فى القطـــاع الغربى من امبراطوريته بالطرق السياسية والوسائل الدبلوماسية ، دافعا له على محاولة نفس الطرق والوسائل مع دولة سلاجقة الروم فى آسيـــا الصغرى . ذلك أن دولة السلاجقة ، بالرغم من انها بدت آنذاك دولة قوية متحدة عليها سلطان أعظم هو ملك شاه فى بغداد ، فقد كانت فى حقيقة الأمر منقسمة الى اجزاء او دويلات صغرى على كل منها حاكم من أبناء البيـــت السلجوقى ، وكانوا يعترفون بالتبعية للسلطان الأعظم فى بغداد . وكان الفرع السلجوقى الحاكم فى آسيا الصغرى يعرف بسلاجقة الروم ، واوله حاكم يدعى سليمان قطلمش . ولكن وفاة هذا الملك فى آسيا الصغرى سنة ١٠٨٥ ، كان مدعاة الى انقسام ممتلكات السلاجقة فى تلك الجهـــات الـــى أقسام عديدة بين ابنائه وبعض أمرائه ، كما حدث تماما فى الدولة السلجوقية العظمى فى بغداد .

والمهم ان الكسيس أراد أن يتبع سياسة الايقاع التى اتبعهـــا مـــع النورمان والبلغار وغيرهم ، مع سلاجقة الروم . ولذلك وجد فى تقسيم بلادهم

وتجزئتها بين عدد من الأمراء فرصة للتفرقة بينهم وابعاد خطرهم . وفعلا أخذ يسلط بعضهم على بعض ، ويخالف بعضهم ولكن سياسته هـذه لم تؤت ثمارها المرجوة . فقد كانت الدولة السلجوقية العظمى فى آسيا الصغرى لاتزال فى عنفوان قوتها ، ولم تثمر مجهودات الكسيس الحربية أو الدبلوماسية فى اجلاء السلاجقة عن كثير من البلاد التى اقتطعوها من بيزنطة ، وكان تحت حوزتهم معظم آسيا الصغرى ما عدا السواحل .

وفى سنة ١٠٩٢ توفى السلطان السلجوقى الاعظم ملك شاه فى بغداد، الذى كان رمزاً لقوة هذه الدولة ووحدتها ولو من الناحية النظرية ، وتغير الموقف تماما فى ذلك الحين بسبب سلسلة الحروب الداخلية التى لا نهاية لها بين ملوك السلاجقة وأمرائهم . فكان ايذانا بزوال الخطر السلجوقى عن الدولة البيزنطية . وساعد على ذلك أن جحافل الصليبيين الغربيين كانت فى ذلك الحين تستعد للتوجه من ديارها الى الشرق بقصد الاستيلاء على الاراضى المقدسة . فأصبح السلاجقة وجها لوجه أمام أولئك القادمين من الغرب، مما حال بينهم وبين التوغل فى أراضى الدولة البيزنطية . ويمكن القول دون مغالاة لولا نزول الصليبيين فى الشرق فى ذلك الحين ، لربما واصل الاتراك السلاجقة تقدمهم على حساب بيزنطة، ولربما انتهى الأمر بسقوط القسطنطينية نفسها فى قبضتهم مبكرا فى أخريات القرن الحادى عشر أو أوائل القرن الثانى عشر . ولكن الحرب الصليبية أجلت هذه الحادثة الى أواسط القرن الخامس عشر عندما سقطت عاصمة بيزنطة فى قبضة الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م .

الكسيس كومنين والحملة الصليبية الأولى

وفى الوقت الذى كان فيه الأتراك السلاجقة على وشك التهام الدولة البيزنطية ، قامت الحملة الصليبية الأولى من الغرب الاوروبى متجهة الى الشرق . وكان الرأى السائد قديما أن الحركة الصليبية أتت الى الشرق لنجدة الامبراطور الكسيس كومنين وصد خطر السلاجقة بعد استغاثته

بالبابوية وملوك اوروبا . ولكن هذه الفكرة فى حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والاستقصاء . كما أنها تحتاج الى تعديل حتى تكون منطبقة على الحقيقة والواقع . والأمر الذى لاخلاف فيه أن أباطرة بيزنطة منذ كارثة ملاذكرد سنة ١٠٧١ ، والتى الحق فيها السلاجقة شر أنواع الهزيمة بالبيزنطيين ، قد بعثوا فى طلب النجدة من مختلف الدول الأوروبية . وكان على عرش بيزنطة وقتئذ الامباطور ميخائيل السابع الذى أرسل الى البابا جريجورى السابع يستنجد به ضد التركمان . وقد رأى بابا روما فى تلك الاستغاثة البيزنطية فرصة طيبة استغلها للعمل على ازالة أسباب الانقسام بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة البيزنطية ، وتوحيدها على مذهب روما الكاثوليكى ولذلك أخذ يعمل بجد فى الدعوة بين أهل الغرب بوجوب اغاثة الدولة البيزنطية ، بل امتدت آمال بابا روما الى التفكير فى اعداد حملة كبيرة على الشرق يكون هو على رأسها . وأخذ البابا يدعو ملوك اوروبا وكبار أمرائها لاعداد الجيوش ومساعدة دولة الروم فى الشرق . وكان من الممكن أن تخرج هذه الحملة الى حيز الواقع ، لو كانت الظروف فى اوروبا وقتذاك مهيأة لتحقيقها . فقد كانت مسألة التقليد العلمانى وانصراف البابا والامبراطور الى مصالحهما الشخصية حول المسائل العلمانية ، من أهم العوامل التى صرفت جريجورى السابع عن مشروع نجدة الدولة البيزنطية التى ظلت تعانى من هجمات السلاجقة وتوغلهم فى أراضيها . على أنه كان من حسن حظ بيزنطة أن خطر السلاجقة كان يقل تدريجيا بسبب تجزئة دولتهم الكبرى الى دويلات صغرى ، مما أضعف ضغطها على بيزنطة . كما أن الكسيس استطاع الى حد ما التقليل من خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى بسياسته التى أسلفنا اليها . ويجب ان نعرف جيدا أن الدولة البيزنطية كانت تستنجد بالبابوية واهل الغرب ليس ضد السلاجقة فحسب ، وانما استنجدت بهم ضد النورمان أيضا . وكذلك استغاث الكسيس بالبابا اربان الثانى سنة ١٠٩٠ لمساعدته فى تزويده بجند مرتزقة من ايطاليا ليقاتل بهم بعض العناصر الثائرة المتمردة فى شمال البلقان ، والخطاب الذى يقال ان الكسيس أرسله

الى روبروت ده فلاندرز والى شخصيات أخرى غير البابا . وان مثل هذه الرسائل والاستغاثات ليس فيها أى اشارة صريحة الى حروب صليبية ضد العرب فى الشرق ، ولم يكن هدفها هو دعوة الغرب للحضور والاستيلاء على بيت المقدس . هذا ، ولو أن المدرسة القديمة اعتقدت أن هذه الرسائل هى السبب المباشر الذى أدى الى قيام الحركة الصليبية ، عندما دعا البابا اربان الثانى فى أخريات عام ١٠٩٥ الى حمل الصليب والتوجه لغزو الأراضى المقدسة . وانفتح بخطبة اربان الملتهبة عهد الحروب الصليبية الذى ملأ تاريخ الشرق الأدنى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ويكفى للدلالة على أن استنجاد الكسيس كومنين بالبابوية وأهل الغرب فى ختام القرن الحادى عشر لم يكن بسبب الأتراك السلاجقة ، هو أن الدولة السلجوقية نفسها لم تعد ذات خطر بالنسبة لبيزنطة فى ذلك الحين ، أى بعد وفاة السلطان الأعظم ملك شاه ، وذلك بسبب النزاع والحروب العديدة التى قامت بين مختلف أجزاء هذه الدولة الكبرى . والأمر الذى لاخلاف فيه، والذى يتفق عليه جميع المؤرخين من قدامى ومحدثين ، هو أن البابا اربان الثانى الذى استنجد به الكسيس بسبب مسألة صغيرة وأمر عادى ، قد استغل هذه الظروف أقصى استغلال لتحقيق اتجاهات البابوية وسياستها الخارجية فى هذا المضمار . فدعا مؤتمر كليرمون سنة ١٠٩٥ الى فكرة محاربه العرب والاستيلاء على الأراضى المقدسة .

وقد أثار احتكاك اللاتين الكاثوليك بالبيزنطيين الأرثوذكس فى الحمله الصليبية الأولى العداء القديم الكامن بين الطرفين ، والذى ترجع جذوره الى أوائل القرن الرابع الميلادى عندما أسس الامبراطور قسطنطين الكبير مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة له بدلا من روما التى تركها الأباطرة الرومان بعد ان أصبح الغرب نهبا للفوضى والاضطراب بسبب غزوات البرابرة . وقصارى القول ان الاختلافات العديدة اللغوية والحضارية والمذهبية بين

باللاتين والاغريق كانت قائمة منذ القدم وقد بعثتها من مرقدها وزادت من حدتها الحملة الصليبية الأولى . فكان من الطبيعى أن يسود سوء التفاهم والشك بين الامبراطور الكسيس وزعماء هذه الحملة ، وأن تثور من جديد وبصورة اقوى انواع الشحناء والبغضاء بين الطرفين منذ نزول الجيوش الصليبية النظامية فى القسطنطينية فى خريف سنة ١٠٩٦ .

ومنشأ الخلاف الجديد ان الكسيس كان ينتظر نجدة عادية من اوروبا لسد حاجة طارئة مثلما فعل أسلافه من قبل . ولكن بدلا من تلك النجدة البسيطة ، وفدت على بيزنطة جيوش هائلة جرارة من مختلف بلدان الغرب الأوروبى ، وهدفها الذهاب الى الاراضى المقدسة والاستيلاء عليها وتأسيس دولة صليبية فى هذه المنطقة العربية على حساب أهلها وأصحابها . بينما كان اقصى مايتمناه الكسيس كومنين هو أن يأتى بعض الجند المرتزقة لدفع الأخطار الطارئة التى تعرضت لها الدولة . ولذلك اعتقد فى قرارة نفسه ، كما تذكر ابنته آن فى كتابها « الألكسياد » أن هدف اولئك اللاتين هو خلع أبيها عن العرش والاستيلاء على دولته وعاصمته . واذا أضفنا الى ذلك أن الجيوش الصليبية النظامية اخترقت أراضى الدولة البيزنطية جيشا فى اثر الآخر ، وعاثت فى البلاد فسادا ، وملأت عاصمتها بأعداد زاخرة من أجناس من مختلف المشارب والأغراض ، وعلى رأسهم النورمان أصحاب الأطماع المعروفة فى بيزنطة والعداء القديم لها — لأمكن القول انه لم يكن ينتظر منهم أى خير ، بل كان يشك فى نواياهم . اذ تتفق المصادر اللاتينية والبيزنطية أن هذه الجيوش الصليبية عند اختراقها أراضى بيزنطة من البلقان الى القسطنطينية قد اعملت فيها النهب والسلب ، وأشعلت النيران فى المدن والضواحى التى مرت بها ، وأتت من أعمال العنف ماجعل سكان المدن البيزنطية يشبهونها ببعض العناصر العنيفة التى كانت تغير على البلاد أحيانا وترجع محملة بغنائمها وأسلابها . فكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يتخوف الكسيس والبيزنطيون من اللاتين ، حتى لقد اعتقد بعض المعاصرين

وقتذاك ، وعلى رأسهم الامبراطور نفسه ، أن القصد الأساسى لتلك الجيوش الصليبية هو الاستيلاء على القسطنطينية وهدم الدولة البيزنطية وتأسيس امارة لاتينية بها . وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان فى الحملة الصليبية الرابعة .

لكل هذا يجد الباحث المدقق أن الامبراطور الكسيس لم يشارك تلك الجيوش الصليبية وقادتها مشاركة ايجابية فعالة فى غرضهم الصليبى ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس . بل اقتصر على مساعدتهم فى ان يستعيدوا له البلاد التى سبق أن استولى عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى . هذا عن بيزنطة والكسيس ، أما الصليبيون فلم يشاركوه هم أيضا مشاركة صادقة فى أغراضه التى هدف اليها ، ولم يأبهوا لمطالبه ومصالح دولته . وكان أولها هو أن يقوم قادة هذه الحملة بتأدية يمين الطاعة والولاء للامبراطور الكسيس قبل مغادرتهم القسطنطينية الى آسيا الصغرى ، وان يعملوا جميعا على استرجاع البلاد التى استولى عليها السلاجقة واعادتها الى حظيرة الامبراطورية .

ومع ذلك فهناك من المؤرخين الغربين المحدثين من يلقى اللوم على الامبراطور الكسيس . وعلى رأس هذا الفريق المؤرخ جيبون Gibbon الذى قال ان الامبراطور كان كمن يطلب الغيث فى صحراء قاحلة ، فلما انهمر الغيث وسالت الوديان بغزارة أخذ يتمنى لو ان المطر لم ينهمر البتة . والواقع — كما رأينا — أن هذا التشبيه بعيد عن الصحة والواقع . اذ ان الكسيس لم يطلب من الغرب موافاته بجيوش جرارة للقيام بحملة صليبية جامعة ضد العروبة والاسلام ، وانما طلب نجدات قليلة العدد لحماية دولته من غزوات السلاجقة وصدهم عنها . ولم يفعل أكثر مما فعله أسلافه من قبل عندما استنجد الامبراطور ميخائيل السابع بالبابا جريجورى السابع ضد التركمان . ثم انه كان من حق الامبراطور أن يقف ضد الصليبيين موقف التخوف والحذر ،

نظرا لما أحدثه اولئك القوم ببلاده وبعاصمة ملكه من أعمال العنف والتخريب. على انه رأى آخر الأمر ببعد نظره وسعة حيلته أن يجعل من الصليبيين اللاتين أداة طيعة لتحقيق أغراضه ومآربه فى استرداد أملاكه التى كان قد استولى عليها السلاجقة ، وأن يوافق من ناحية أخرى على ما قد يقومون به هم أنفسهم لتحقيق أغراضهم ومطامعهم الشخصية . وبناء على ذلك طلب الى زعماء الحملة الصليبية الأولى أن يتعهدوا له بتسليم مايفتحونه من البلاد التى كانت تابعة فى الماضى للدولة البيزنطية حتى مدينة انطاكية ، وهى الحد الذى كانت قد وصلت اليه المجهودات الحربية التى قام بها كل من الامبراطورين نقفور فوكاس وحنا تزمسكيس . وطلب اليهم أيضا أن يؤدوا بين يديه يمين الطاعة والولاء ، وهو يمين قريب الشبه باليمين الاقطاعى الذى كان معروفا فى اوروبا وقتذاك بين الملوك والأمراء التابعين لهم . ولم ينس الامبراطور أن يغدق عليهم المنح والعطايا والجواهر والأموال والقطع العديدة من الذهب والفضة بقصد استمالتهم اليه ، وهو يعرف سلفا جشعهم وحبهم الشديد للمال ، فقد وصفتهم ابنته أنا بأنهم قوم جشعون محبون للمال .

وأخيرا تم الاتفاق بين الطرفين فى مايو سنة ١٠٩٧ على أن تقوم بيزنطة بمساعدة الجيوش الصليبية وامدادها بالمؤن والجند ، وتزويدها بنصائحها وتوجيهاتها قبل الزحف عبر آسيا الصغرى ، على أن يقوم زعماء الصليبيين بحلف يمين الاخلاص للامبراطور واعادة البلاد التى يتم فتحها الى حظيرة الدولة . ومما يؤسف له أن نصوص تلك المعاهدة الهامة لم ترد كاملة فى المصادر المعاصرة من لاتينية وبيزنطية . وجل اعتمادنا فيما نعرفه عنها على ما أوردته أنا كومنينا فى كتابها . ولهذا أهميته التى لاتنكر ، اذ كانت معاصرة وشاهدة عيان لأحداث هذه الفترة من الزمان ، مما يضفى على روايتها صفة الوثائق الرسمية ويجعلها مصدر ثقة . وهناك أيضا شذرات مبعثرة فى كتب المؤرخين اللاتين عن تلك المعاهدة أمثال المؤرخ المجهول والبرت دكس وفوشيه دى شارتر . كل هذا يضفى على المعاهدة قيمة كبيرة ، خاصة وأنها

تشرح طبيعة العلاقات بين اللاتين والاغريق أو بين الصليبيين والبيزنطيين من ناحية ، وكذلك موقف الدولة البيزنطية نفسها من فكرة الحروب الصليبية من ناحية أخرى .

على أية حال ، عبرت الجيوش الصليبية النظامية البسفور الى آسيا الصغرى ، وكانت ترافقها فرقة من الجيش البيزنطي تنفيذا للاتفاقية . واستولت على مدينة نيقية عاصمة السلاجقة ، وقامت بتسليمها للامبراطور الكسيس . وكانت كل مدينة تستولى عليها الجيوش الصليبية فى آسيا الصغرى تقوم بردها الى الامبراطور ،ولكنها كلما تقدمت فى أراضى السلاجقة وفى شمال الشام كلما انكشفت اتجاهاتها الحقيقة وأطماعها الشخصية . فلما بلغ الصليبيون مدينة طرسوس واستولوا عليها ، رفضوا تسليمها لمندوب الامبراطور حسب الوعد الذى قطعوه على انفسهم . وبعد ذلك حاصروا مدينة انطاكية . وسرعان ما بدأ الخلاف واضحا بين البيزنطيين والصليبيين، بل وبين الصليبيين أنفسهم . فانسحب الجيش البيزنطى تاركا الجيش الصليبى يعمل بمفرده فى الميدان . ولما وقعت المدينة فى يد بوهيمند رفض أن يسلمها للامبراطور متعللا بأن الكسيس لم يقم من جانبه بالوفاء بوعده بامداد الفرنج بالمؤن والقوات . ومع أن الكسيس أرسل الى الصليبيين بأنه قادم مع فرقة من جيشه الى شمال الشام للانضمام اليهم فى الزحف على بيت المقدس على شرط أن يسلموا اليه مدينة انطاكية التى كانت لها أهمية كبرى بالنسبة لبيزنطة ، فان الصليبيين لم يعيروا طلباته أى اهتمام . وقد تباينت وجهات النظر ، واختلفت آراء المؤرخين ما بين مؤيد لموقف الامبراطور البيزنطى ومعارض له . الا أنه فى فى تلك الأثناء كان قد استتب الامر للصليبيين فى شمال الشام باستيلاء بوهيمند على انطاكية ، وتأسيس امارة لاتينية بها . وفى أعالى الفرات كان بلدوين شقيق جودفرى دوق اللورين السفلى قد استولى على الرها وأسس هناك امارة لاتينية هو الآخر .

وهكذا بدت المنازعات الشخصية واضحة بين زعماء الفرنج ، كل يريد

أن يكون له السبق فى الغزو وتأسيس الامارات . وكان هذا الموقف من جانب اللاتين ، ورفضهم مطالب الكسيس يعتبر نقضا للمعاهدة ونكثـا للعهـد المقطوع . ولم يشذ عن هؤلاء الزعماء الصليبيين جميعا سوى قائد واحـد هو الكونت ريمون دى سان جيل كونت تولوز ومركيز بروفانس . ولم يكن هذا فى الواقع بغير سبب ، فهو لم ينله شىء مما أصاب غيره من القادة ، وعز عليه أن يخرج من الحرب صفر اليدين . ولذلك نراه يدافع عن الامبراطور وحقوقه فى البلاد التى وضع اللاتين أيديهم عليها ، عساه أن يظفر منه بمـا يحقق له بعض أطماعه . وأغرب مثل لذلك موقفه من بوهيمند فيما يتعلق بمشكلة أنطاكية .

وجدير بالذكر أحوال العالم العربى وقت قدوم الحملة الصليبية كانت لاتساعد على الاطلاق على تكوين جبهة عربية متحدة ضد أولئك الدخلاء . فالخلف على أشده بين الفاطميين فى مصر والعباسيين فى بغداد ، والصراع والخلاف بينهما سياسى ومذهبى . هذا ، والسلاجقة يختطفون من أملاك الفاطميين والعباسيين على السواء كل ماتصل أيديهم اليه . وكانت الدولة السلجوقية قد انقسمت هى الأخرى الى دويلات صغرى تنافس كل منهـا الأخرى . كل هذا سهل على الغزاة مهمتم فى بلاد غريبة عنهـم وفى ملـك غير ملكهم . ولو كان قد أتيح للعرب والسلاجقة الاتحاد والتكتل وقتذاك ، لما تمكن الغزاة اطلاقا من احراز أى نصـر .

وقد بلغ العداء بين الفاطميين والعباسيين أن الدولة الفاطمية الشيعية ـ وكانت فى طور الاحتضار وقتذاك ـ رأت فى وصول القوات الصليبية فرصة ذهبية لاستعادة ممتلكاتها الضائعة بالشام ، والتى كان قد استولى عليها السلاجقة ، وأولها بيت المقدس . لذلك فاوضت زعماء الحملة الصليبيـة الأولى على قيام حلف بين الصليبيين والفاطميين ضد السلاجقة ، بحيث يقف الفرنج عند انطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقدس وغيرها من البلاد

الشامية . وكان من الطبيعى أن يوافق اللاتين الغربيين على مثل هذا الحلف . اذ سيضمنون وقوف الفاطميين فى الجنوب على الحياد ، مما يتيح لهم فرصة القضاء على مقاومة السلاجقة فى أعالى الشام ، وحينئذ يتسنى لهم التفرغ لمقاومة الفاطميين . على أى حال ، فقد استولت الجيوش الفاطمية تنفيذا لهذا الحلف على القدس فى اغسطس سنة ١٠٩٨ مستغلة انشغال السلاجقة مع الصليبيين فى الشمال . وكان ذلك بعد سقوط انطاكية بشهر تقريبا . ولم تلبث فكرة الحلف بين الصليبيين والفاطميين ضد الدول الاسلامية السنية فى الشام أن انهارت من أساسها بتقدم الصليبيين جنوبا واستيلائهم على بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٩٩ ، وتأسيس دولة لاتينية هناك . وقد غدت هذه المدينة عاصمة دولة الغزاة بالشام منذ ذلك الحين الى أن استردها السلطان الصالح نجم الدين ايوب من الفرنج سنة ١٢٤٤ .

وكيفما كان الأمر ، فقد تمت هذه الاحداث ولم يستطع الامبراطور الكسيس كومنين الذهاب الى الشام لمحاسبة الصليبيين على نقضهم المعاهدة، أو حتى لتجديد الاتفاق معهم ، أو الانتفاع بما وقع بينهم من خلف ونزاع . وفى ذلك الحين كانت حملة صليبية أخرى قد وصلت من مختلف أرجاء أوروبا سنة ١١٠٠ . وكما فعلت، الحملة الأولى ، كذلك عاشت هذه الحملة فسادا فى أراضى الدولة البيزنطية . لذلك لم يستطع الكسيس مغادرة عاصمته حتى لاتقع لقمة سائغة فى يد هذه القوات الوافدة من الغرب . ولكنه لجأ الى نفس الاسلوب الذى اتبعه مع قواد الحملة الصليبية الأولى . فطالب من كبار رجال الحملة الجديدة أن يؤدوا له يمين التبعية والاخلاص مقابل تزويدهم بالامدادات الحربية . غيرأنه يلاحظ أن قواد تلك الحملة لم يأخذوا بنصيحة الامبراطور البيزنطى فيما يتعلق بالطريق الذى كان يجب عليهم أن يسلكوه. وكان جزاؤهم أن تحطموا تماما على يد السلاجقة الروم . ويرجع سبب ذلك أن الفرنج أخذوا يتشككون فى نوايا الكسيس كومنين واخلاصه للجيوش الصليبية . بل لقد أتهم الكسيس أنه السبب فيما حل بهذه الحملة من الهزائم

والويلات وهى فى طريقها الى الشام . ولكن الحقيقة أن القوى العربيـــة والسلجوقية بدات تفيق من هول الصدمة الأولى التى حلت بها فى أخريات القرن الحادى عشر والسنوات الأولى من القرن الثانى عشر ، وأخـــذت تتحد لمواجهة هذا الخطر الجديد القادم من الغرب . بل كان هذا الخطـــر نفسه دليلا واضحا على تلك الافاقـــة .

والمهم ان الفرنج اتهموا الكسيس والبيزنطيين أنهم السبب فيما نزل بجيوش تلك الحملة الصليبية من هزائم وصعاب فى الطريق . مع أنه لـــو كان الصليبيون قد أخذوا بمشورة الكسيس وتجنبوا الأراضى السلجوقية ، لربما استطاعوا أن يصلوا الى الشام فى أراضى صديقة لهم ، وأن يلحقوا بقواتهم الصليبية الموجودة هناك . وقد شاع فى الغرب ان الامبراطـــــور البيزنطى هو السبب فى تلك الكوارث التى حلت باللاتين . ولاشك أن الدعاية المبالغ فيها قد لعبت دورا واضحا فى اثاره اللاتين الكاثوليك ضد البيزنطيين الأرثوذكس . ولذلك كان من الطبيعى أن ينتهى الخلاف فى وجهات النظـــر بين بيزنطة والجيوش الصليبية الى عداء علنى صريح . وقد اعلن الكسيس عداءه فعلا للصليبيين ، وأرسل جيوشه وأساطيله للاستيلاء على المدن التى وقعت فى قبضتهم ، والتى كان الواجب عليهم اعادتها لبيزنطة حيث انهـــا كانت فعلا تابعة لها من عهد غير بعيد ، واحتراما كذلك لما سبق الاتفـــاق عليه بين الطرفين . وقد استولت الجيوش البيزنطية على أطنة وطرسوس وغيرهما من البلدان التى كانت تدخل ضمن الأقليم الذى كون فيه النورمان امارة لأنفسهم هى امارة انطاكية . لذلك نرى بوهمند النورماندى يسرع الى أوروبا فى طلب النجدة ، والدعوة الى حرب صليبية ، ولكنها ليست ضد العرب هذه المرة ، وانما ضد بيزنطة وامبراطورها الكسيس كومنين . وعاد بوهيمند سنة ١١٠٧ على رأس جيش كبير لمهاجمة الدولـــة البيزنطيـــة فى البلقان . ولذلك نجد حرب سنة ١٠٨١ تعيد نفسها ، ولكن فى ظروف مغايرة .

فقد أصبح البيزنطيون الآن فى وضع يسمح لهم بمواجهة خصومهم . كما كانت خطط النورمان وأغراضهم مكشوفةتماما،ولمتكنتصطبغ بالصبغة الصليبيةحتى تلقى المعونة الأدبية والمادية اللازمة لانجاحها ، كما حدث بالنسبة للحملة الأولى مثلا سنة ١٠٩٦ . ولذلك نجحت بيزنطة فى افساد ماعزم عليه بوهيمند من اثارة الغرب اللاتينى ضد البيزنطيين،ومن الاغارة على بلاد الامبراطورية. ورضى بوهيمند مضطرا أن يصالح الامبراطورية ، وأن يقبل بتبعيته التامة للامبراطور ، وأن يتسلم أنطاكية باعتبارها اقطاعا منه . وقد اعتبرت هـذه المعاهدة الجديدة بين بوهيمند والامبراطور نصرا كبيرا لألكسيس والبيزنطيين، غير أنه كان نصرا زائفا مؤقتا . ذلك أن تبعية النورمان لبيزنطة لم تكن يوما من الأيام فى أنطاكية أو فى غيرها من البلاد التى استولوا عليها تبعية حقيقة، أى تبعية التابع للمتبوع حسب المفهوم الاقطاعى فى المجتمع الوسيط . بل كثيرا ما نقض النورمان عهودهم أو أخلوا بها وأهملوها . وعندما توفـى بوهيمند سنة ١١١١ لم يقبل ابن أخيه تنكريد ، وهو الذى تولى أمر أنطاكية من بعده ، أن ينفذ شروط التبعية لبيزنطة . كذلك حالت الظـروف بـين الكسيس وبين الذهاب بنفسه أو ارسال من ينوب عنه لتأديب أمير انطاكية الجديد . وهكذا ظلت مشكلة أنطاكية هى شغل الكسيس الشاغل هو ومن جاء بعده من بيت كومنين حتى آخر القرن الثانى عشر .

لقد كانت مشكلة انطاكية احدى المشاكل التى شغلت الكسيس فى فترات متقطعة. أما المشكلة التى شغلت باله طويلا وبدون انقطاع والتى صرف فيها معظم سنى حكمه اعتبارا من سنة ١١١٤ فصاعدا ، فكانت من ناحية سلاجقة الروم . وقد سبق أن أشرنا أن الأخطار المحيطة بالسلاجقة من ناحية الصليبيين ومن ناحية الدولة البيزنطية ايضا قد أثارت انتباههم وأدت الى افاقتهم ويقظتهم . وهكذا استنفذت حروب الكسيس فى بلاد سلاجقة الروم معظم ماتبقى من حكمه .

هذا ، ولم يترك الكسيس وسيلة دون أن يستغلها لصالح دولته . فقد ظن أن باستطاعته التدخل فى الصراع القائم بين البابوية والامبراطورية فى الغرب ، عساه يفلح فى استعادة بعض النفوذ البيزنطى القديم فى ايطاليا. وفى سبيل ذلك عرض الكسيس على البابوية أن يعمل على ازالة الخلاف القديم المستحكم بين الكنيستين الشرقية والغربية الذى كان قد انتهى الى انفصال تام بينهما منذ سنة ١٠٥٤ . فعرض على البابوية أن تمد سلطانها العالمى على الكنيسة البيزنطية بشرط أن توافق على أن يكون الكسيس كومنين امبراطورا عالميا على الشرق والغرب ، على غرار ماكان سائدا أيام الامبراطورية الرومانية القديمة ، وعلى الرغم من أن التفكير فى اعادة الامبراطورية الرومانية القديمة ، وفى حل النزاز بين كنيستى روما والقسطنطينية قد فات أوانه ، فقد حاول الكسيس ومن أتى بعده من أباطرة البيت الكومنينى ذلك ، ولكن دون جدوى .

وأخيرا بوفاة الامبراطور الكسيس سنة ١١١٨ ينتهى عهد من العهود الى استرجعت فيها بيزنطة الكثير من هيبتها ومكانتها التى كانت تتمتع بها من قبل . ولاشك أن شخصية الكسيس كان لها الفضل الأكبر فى ذلك . ومع أن الحروب الصليبية قد أعاقت مجهودات امبراطور بيزنطة فى الميادين الأخرى ، وافسدت جانبا من سياسته ، واستنفدت جزءا من نشاط بيزنطة ضد الدولة الصليبية نفسها فى فلسطين ، فقد حال استقرار الغزاة اللاتين فى بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها وغيرها بين الدولة البيزنطية وبين العرب والسلاجقة الذين انصرفوا بكليتهم الى محاربة الصليبيين والعمل على اجلائهم عن بلاد الشام . وعلى ذلك يمكن القول دون مغالاة انه برغم وقوف بيزنطة من الصليبيين ومن الفكرة الصليبية نفسها موقف العداء الواضح منذ البداية ، فان قيام دولة الصليبيين فى فلسطين خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قد أمد بطريق غير مباشر فى عمر الدولة البيزنطية حوالى ثلاثة قرون من الزمان . وجدير بالذكر أننى تناولت العلاقات بين الدولة

البيزنطية وبين كل من أهل الغرب اللاتيني والسلاجقة اثناء الحملة الصليبية الاولى ، وبخاصة في عهد الامبراطور الكسيس الأول كومنين ، في شيء من التفصيل والتحليل في كتابي « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى » .

خلفاء الكسيس كومنين حتى نهاية الأسرة

(١١١٨ — ١١٨٥)

الامبراطور حنا الثاني كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) John II, Calophannes

جلس على الكرسي الامبراطوري منذ وفاة الكسيس كومنين سنة ١١١٨ حتى نهاية أسرته في ١١٨٥ عدد من الأباطرة من ابناء البيت الكومنيني . والواقع أن الكسيس كان قد وضع أساسا طيبا للدولة . وكان اسحق من قبله قد مكن لذلك في الوظيفة الامبراطورية . ولو انه من الانصاف القول بأن الكسيس هو المؤسس الحقيقي لتلك الاسرة ، نظرا للأعمال الضخمة التي قام بها ، والتي انقذت الدولة من الانهيار حتى بدت من جديد قوية شامخة لها هيبتها بين الدول .

لقد جنى حنا الثاني ثمار أعمال أبيه الكسيس . وساعده على تحقيق هذا النجاح الصفات العديدة التي يتمتع بها ، والتي جعلته يقدر أهمية الاستمرار في سياسة سلفه . لقد كان كومنين في الواقع من افضل وأبرز الشخصيات التي تولت المنصب الامبراطوري خلال تاريخ بيزنطة الطويل . اذ امتاز عن جميع اباطرة الدولة الذين جاؤا بعده بطيبته وسمو أخلاقه ، وحسن سجاياه . وقد اعترف بذلك أعداؤه واصدقاؤه على السواء ، حتى أنه كان يعرف بين معاصريه باسم حنا الطيب . وكان فضلا عن ذلك جريئا ذكيا مقداما . وآية ذلك تغلبه على المؤامرات المعتادة حول العرش البيزنطي . اذ كانت أخته المؤرخة المشهورة أنا كومينيا صاحبة كتاب الألكسياد ، تطمع

فى أن تصل هى وزوجها الى العرش . ويرجع طموحها هذا الى ماقبل وفاة أبيهما الكسيس . وظل حنا فى خشية مما قد تبيته له اخته فى سبيل الوصول هى وزوجها الى العرش . وسرعان ماتحققت شكوك أخيها حينما انكشفت له مؤامرة فى السنة الثانية من حكمه (١١١٩) كانت أنا تستهدف من ورائها التخلص من أخيها حنا بقتله ، وهكذا ينفسح لها الطريق لتحقيق أمنيتها هى وزوجها فى المنصب الامبراطورى.ومن سخرية الأقدار ان الذى أنبأ الامبراطور باخبار المؤامرة هو زوج اخته الذى ارادت له انا ان يصل الى الوظيفة الامبراطورية . ولكن حنا لم يشتد فى معاملته للمتآمرين ، بل كان رحوما بهم. اذ اكتفى بالقبض عليهم ومصادرة أملاكهم . ثم عفا عن أخته ورفض أن يدخلها احد الأديرة لتقضى بين جدرانه بقية أيام حياتها ، كالمعتاد فى مثل هذه الأحوال . ولكن الاميرة — بعد أن تحطمت آمالها — انزوت من تلقاء نفسها عن الحياة العامة ، وعكفت على تأليف كتابها المشهور عن حياة أبيها المعروف باسم الألكسياد .

واذا كانت شخصية حنا قد تركت أثرها فى التوفيق الذى صاحبه فى أعماله ، فقد كان بلاطه كذلك عامرا بالنصحاء والمستشارين الذين أخلصوا له كل الاخلاص ، لطيبته وذكائه وحسن معاملته لهم وتوفيقه فى اختيار معاونيه . والواقع أن تلك الفئة أسدت اليه مساعدات جليلة كان لها أثرها فى حل كثير من المشكلات التى اعترضته . وكان معظم هذه المشكلات يتصل بالناحية الحربية . ولهذا السبب اهتم حنا كومنين اهتماما خاصا بالجيش مع العناية باعداده وتدريبه بالسلاح . وأما عن المشاكل الناجمة عن السياسة الخارجية ، فقد كانت امتدادا للمشاكل فى عهد أبيه . وقد سار الامبراطور فى معالجتها على نهج أبيه الكسيس الذى وجه السياسة البيزنطية ، بما عرف عنه من حكمة وبعد نظر ،توجيها صحيحا جنب البلاد الوقوع فى الأزمات. وجدير بالذكر فى هذا المجال أن الأحداث التى مرت بها البلاد فى عهد الكسيس هى التى أملت عليه ذلك التوجيه . فلم يكن مثلا موقف الكسيس من الحرب

الصليبية الأولى ومن قادتها اللاتين من خلق الكسيس اطلاقا . ولكنهـا كانت فى الواقع رد فعل لموقف الصليبيين انفسهم من الدولة البيزنطية وعاهلها , وبالمثل كان موقف الكسيس من سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى نتيجة لتلك اليقظة التى شملت العرب فى آسيا الصغرى وشمال الشام وتتذاك .

وعلى هذا ، كان من الطبيعى أن يسير حنا على نمط سياسة أبيه ، وأن يسلك سبيله فى معالجته لتلك المشاكل . وقد دل حنا ومن جاء بعده من أفراد أسرته على فهمهم الدقيق لمصالح بيزنطة ، وتقديرهم الصائب لظروفها، والتطورات التى طرأت على مسرح الأحداث بسبب الصليبيين وسلاجقة الروم .

كانت مسألة انطاكية — من وجهة النظر البيزنطية — أهم المشاكل التى ترتبت على قيام الحركة الصليبية ، واحتكاك اللاتين بالبيزنطيين . وكان موقف حنا كومنين وبيزنطة صريحا وواضحا فى هذا الصدد . اذ اراد حنا تنفيذ المعاهدة التى سبق أن عقدها الكسيس مع بوهيمند النورماندى سنة ١١٠٨ ، والتى استعاد الامبراطور البيزنطى بمقتضاها مدينة انطاكية الى حظيرة الامبراطورية . ثم اعطاها اقطاعا لبوهيمند على أن يكون تابعـا اقطاعيا له . وعلى هذا كانت سياسة حنا هى استمرار لسياسة سلفه . وأصر مشددا على تنفيذ المعاهدة ، واستمر ١٨ سنة وهو يفاوض خلفـاء بوهيمند للوصول الى نتيجة ترضى عنها الدولة البيزنطية ، والى حل يسليم بدون حرب أو سفك للدماء ، حتى رضخ أمراء انطاكية اللاتين آخر الأمر الى الاعتراف بتلك التبعية فى سنة ١١٣٧ . ويرجع الفضل فى ذلك الـى موقف بيزنطة من الامارات اللاتينية القائمة ، واستمانتها ببعض امـراء الصليبيين لتحقيق أهدافها طبقا لمعاهدة سنة ١١٠٨ .

ولكن حل مشكلة انطاكية تطلب بدوره حلا سريعا لمشكلة أخرى لاتقل عنها أهمية ، ونعنى بها مشكلة سلاجقة الروم . اذ كان يهم بيزنطة أن يكون الطريق بين القسطنطينية وبين انطاكية مفتوحا آمنا . ولكن وجود سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ،وقيامهم للدفاع عن كيان دولتهم ضد خطر الصليبيين،

جعل مشكلة تأمين الطريق بين انطاكية والعاصمة البيزنطية مسألة حيوية بالنسبة لبيزنطة . وكان خطر سلاجقة الروم فى عهد حنا كومنين قد تزايد وبات يهدد الدولة البيزنطية بشر كبير . اذ كان سلطانهم يتقدم فى ذلك الوقت دون توقف فى اراضى الدولة البيزنطية . كذلك كان هناك اخ لهذا السلطان يهدد باستمرار املاك الدولة القريبة من انطاكية نفسها . هذا ، بالاضافة الى وجو دويلات سلجوقية اخرى فى آسيا الصغرى كانت تعمل بفضل حركة الافاقة العربية وقتذاك لتأخذ من املاك البيزنطيين ما يمكن الحصول عليه والفوز به . لهذا كانت تلك المشكلة من اكبر واخطر المشاكل التى واجهته . وقد نجح حنا نجاحا جزئيا فى معالجتها . اذ استطاع تأمين الطريق الى بلاد الشام منذ سنة ١١٣٠ . وساعده على تحقيق ذلك الخلاف الناشب بين الدويلات السلجوقية فى آسيا الصغرى والشام . اذ كانت الدولة السلجوقية الكبرى منذ وفاة عاهلها ملك شاه تعانى من التفكك والانقسام دون أن تجد حاكما قويا مثل ملك شاه يسعى لتحقيق وحدتها الأولى .

ومن الأمور التى شغلت بال الامبراطور حنا أثناء معالجته لمشكلتى انطاكية وسلاجقة الروم ، مسألة الامتيازات التى كان التجار البنادقة يتمتعون بها فى موانئ الدولة البيزنطية . ذلك أن جمهورية البندقية كانت قد اصبحت اذ ذاك أكبر قوة بحرية تجارية فى حوض شرقى البحر المتوسط . وقد وجدت فرصتها الذهبية فى الحروب الصليبية التى ساعدتها على مد نفوذها الى الساحل الشامى أيضا . وهو أمر كانت تطمع فى تحقيقه منذ وقت غير بعيد. وكان الكسيس كومنين نفسه قد منح البنادقة امتيازات تجارية عديدة مقابل ما قام به اسطولهم ضد النورمان ، ومحاولاتهم المتكررة على شواطئ البحر الأدرياتى ، وأطماعهم الواضحة فى الدولة البيزنطية أيام روبرت جويسكار وابنه بوهيمند . وكان أمرا طبيعيا أن تطلب البندقية من الامبراطور حنا تجديد الامتيازات التى كان يتمتع بها البنادقة فى عهد سلفه ، بل وفى منحهم سلطات مستقلة عن الدولة ذاتها فى قلب المدن البيزنطية . ولاشك ان هذا

قد أضر فى كثير من الأحيان بمصالح بيزنطة والتجار البيزنطيين أنفسهم . ولهذا رفض حنا كومنين تجديد تلك الاتفاقية . وشجعه على ذلك أن الدولة النورمانية كانت تمر آنذاك بازمة من أزماتها ، ولهم يكن باستطاعتها القيام بحركة عدائية ضد بيزنطة لتحقيق أطماعها القديمة . ومع ذلك ، لم تسكت البندقية . اذ بادرت بارسال أسطول كبير الى الجزر الواقعة عند مدخل البحر الأدرياتيكى فى سنة ١١٢٢ ، استولى على جزيرة خيوس . كما اغار على عدة جزر أخرى مثل رودس وساموس ولسبوس ، حتى وجد حنا نفســه اخيرا مضطرا الى الدخول فى مفاوضات مع البنادقة وتجديد الاتفاقية القديمة بما تضمنته من امتيازات ، وكان ذلك سنة ١١٢٦ . وهذه الأحداث ان دلت على شىء ، فانما تدل على أن البندقية قد اصبحت قوة تجارية بحرية كبرى، استعان الصليبيون بسفنها فى الاستيلاء على كثير من موانى الساحل الشامى، وفى نقل بضائعهم من الغرب الى بلاد الشام والأراضى المقدسة . كما استعان البنادقة انفسهم باللاتين فى تحقيق أطماعهم التجارية فى حوض الليفانت .

وفضلا عن المشاكل السابقة ، فقد كانت هناك ايضا مشكلة المجــر . ذلك أن المجريين قاموا بدور مماثل لما سبق أن قام به البلغار من محاولات فى اراضى الدولة البيزنطية فى البلقان . واخذ المجريون يتوغلون حتى وصلوا الى مدينة صوفيا سنة ١١٢٨ . ورأى الامبراطور حنا ان الحل الوحيد لذلك هو معاقبة المجريين على جراتهم . فقام بغزو بلادهم حتى بلغت جيوشــه الى الأجزاء الوسطى من الدانوب . وبذلك امتدت السلطة البيزنطية الى حدود لم تكن قد وصلت الى مثلها سوى ما كان ايام الدولة الرومانية الأولى.

وبعد أن انتهت كل مشاكل الامبراطور حنا كومنين هذه النهاية الطيبة، رأى حوالى سنة ١١٣٥ أن يحل مشكلة انطاكية حلا نهائيا حاسما . وأخذ يمهد بمفاوضة بعض الدول التى كان يهمها أمر الدولة النورمانية فى ايطاليا وفى الشام ايضا . وكان على رأس من تعينهم هذه المسألة الامبراطوريــة الرومانية الغربية التى كانت تسعى سعيا حثيثا لتصبح انطاكية كلها جزءا

تابعا لها مثلما كان الحال ايام الامبراطورية القديمة . وكانت هناك أيضا جمهورية بيزا وغيرها من الجمهوريات التجارية الايطالية التى كان بوسعه الاستعانة بها فى سبيل حل مسألة انطاكية .

واذا القينا نظرة فاحصة الى الوسيلة التى لجأ اليها الامبراطور حنا، نجد انها كانت تشبه الى حد بعيد الوسائل التى كان يتبعها عادة آل كومنين فى حل معظم المشاكل التى واجهتهم . وتتلخص فى العمل على الايقاع بين الأصدقاء ، أو تسليط بعض القوى ضد أعداء الدولة كوسيلة لاضعافهم ، وبذلك يتسنى حل المشاكل التى تواجههم فى صالح الدولة البيزنطية . فطلب حنا من لوثر امبراطور الدولة الغربية النجدة ضد روجر الثانى **Roger II** ملك صقلية النورمانى الذى كان يبيت الشر للدولة البيزنطية ، كما فعل روبرت جويسكار وابنه بوهيمند من قبل . وكان جويسكار يريد أن يجعل من مدينة انطاكية وغيرها من الامارات الصليبية اقليما تابعا لملكته الكبرى . وكان فى ذلك خطر واضح على بيزنطة . فان موقف أمراء أنطاكية النورمان كان لايعدو محاولتهم الاستقلال بتلك الامارة عن الدولة البيزنطية ، والاستمرار فى فلك الدول الصليبية . وقد نجح حنا فى اقناع لوثر بغزو جنوبى ايطاليا . كذلك افلح فى هدم التحالف القائم بين الدولة النورمانية وبين جمهورية بيزا . بعد ذلك تقدم حنا كومنين بجيوشه نحو انطاكية وضرب الحصار حولها برا وبحرا فى أواخر عام ١١٣٧ . ولم تكن فى حالة تمكنها من مقاومة الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الحين . وانقاذا للموقف وافق أميرها على الاعتراف من جديد بالمعاهدات القديمة وشروطها التى نصت على الاعتراف بتبعية انطاكية لبيزنطة ، وتعهد الامبراطور البيزنطى مقابل ذلك بمساعدة أنطاكية والامارات الصليبية الأخرى ضد العرب .

وهكذا وضح أن حنا كومنين كان يريد محالفة الصليبيين جميعا وليس امارة انطاكية فحسب ، بعد أن تثبت لأوروبا وللامارات اللاتينية فى الشرق أن بيزنطة لا تريد مساعدتهم كثيرا . ولكن تعهد حنا كان يتضمن شروطا

تدل على أن بيزنطة كانت تسعى لأن تكون أنطاكية اقليما تابعا لها وليس مجرد امارة تابعة . اذ تضمن هذا التعهد من قبل الامبراطور البيزنطي : أنه اذا استولى النورمان على مدن عربية كبرى مثل حلب أو حمص أو حماة ، وتكون صالحة لاقامة امارات جديدة بها ، ففى هذه الحالة تلغى امارة أنطاكيه اللاتينية وتصبح أقليما تابعا للدولة البيزنطية تبعية مباشرة . وحتى يحقق حنا آماله فى اعادة أنطاكية الى حظيرة الامبراطورية ، نجده يبر بوعده . اذ قامت الجيوش البيزنطية بمساعدة الصليبيين ضد العرب . ولكن اللاتين لم يوفقوا فى أعمالهم التوفيق الذى يبرر الغاء امارة انطاكية ، وضمها الى بيزنطة . ومع ذلك ، فقد اعتبر حنا أن الاستيلاء على بعض مدن سوريه يعتبر كافيا لتنفيذ شروط الاتفاقية . ولم يترك وسيلة الا واستغلها للوصول الى غرضه . فلجأ الى مثل مالجأ اليه قبل محاصرة انطاكية ، بأن جدد فى سنة ١١٤٠ الحلف مع امبراطور الدولة الغربية ، وهو وقتذاك كونراد الثالث . وفى سنة ١١٤٢ تقدمت الجيوش البيزنطية نحو أنطاكية . غير أن ان وفاة حنا كومنين سنة ١١٤٣ حال دون تحقيق ما أراد . وترك لابنه مانويل امر علاج هذه المشكلة التى طال الأمد عليها ، دون ايجاد حل حاسم ترتاح له بيزنطة .

الامبراطور مانويل الأول كومنين Manuel I (١١٤٣ — ١١٨٠)

كان حنا قد أوصى بالعرش لأصغر ابنائه ، وهو مانويل كومنين . وجدير بالذكر ان الدولة البيزنطية منذ قدوم افواج الحملة الصليبية الأولى ، ومرورها عبر أراضيها ، قد عرفت الكثير من انظمة الدول فى غربى اوروبا . وسرت فى بيزنطة حركة هدفها تقليد النماذج الاقطاعية الأوروبية . وبلغ من اعجاب الامبراطور مانويل بنماذج الحياة الاقطاعية بوجه عام ، أن استجلب الى بيزنطة مئات من مختلف أجناس الغرب اللاتينى ، من الانجليز والفرنسيين والنورمان والايطاليين ، حيث أسند اليهم الكثير من الوظائف الهامة فى الدولة .

كذلك سمح باقامة فنادق للجاليات التابعة لهذه الدول والجمهوريات البحرية التجارية مثل البندقية وبيزا وجنوه . ولم يكن مانويل يرى أنه قد خلق مشكلة خطيرة كادت ان تكون كارثة على الدولة نفسها . هذه المشكلة هى انه جعل بيزنطة واهلها البيزنطيون يكرهون الغرب واهله من اللاتين ، وذلك على حد تعبير الامبراطورية البيزنطية فى وصف الأجناس والدول القائمة فى الغرب فى العصور الوسطى . ولم تظهر مسألة الكراهية بين اللاتين وبيزنطة بشكل واضح وحاسم الا فى ختام القرن الثانى عشر ، وبعد أن تأصلت لدى الغربيين فكرة خلاصتها أن بيزنطة كانت تفسد على الصليبيين وحملاتهم فى الشرق الكثير من أغراضهم ومجهوداتهم . وهنا يجب الا نغفل أن العلاقة بصفة عامة بين اللاتين والبيزنطيين منذ قيام الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر ، بل وقبل ذلك التاريخ بوقت غير قصير لم تكن بحال ودية او طيبة فقد كانت الخلافات المذهبية والدينية والسياسية والحضارية واللغوية والجنسية والبيئية ، فضلا عن عوامل الحقد والغيرة والكراهية — متوفرة بين الطرفين ، ولم تكن تسمح بايجاد اساس طيب للتفاهم بينهما عندما قامت الحملة الصليبية الأولى . وكلنا يعرف أن العلاقات بين الطرفين لم تكن على ما يرام منذ البداية بسبب هذه الخلافات الجوهرية القائمة بينهما

لقد واجهت الامبراطور مانويل عدة مشاكل لعل من أهمها مسألة انطاكية . وكانت تلك الامارة قد عادت مرة أخرى الى التمرد والعصيان على النفوذ البيزنطى ، على الرغم من المعاهدات القائمة . ولم تنته هذه المشكله الاسنة ١١٤٥ عندما قامت حملة تأديبية بيزنطية قضت على التمرد الأنطاكى، بينما قدم صاحب انطاكية بناء على طلب مانويل يطلب العفو والغفران ، ويؤدى يمين التبعية والولاء للدولة وعاهلها .

أما المشكلة الثانية وكانت تتعلق بسلاجقة الروم الذين كونوا دولة اسلامية كبرى فى آسيا الصغرى عاصمتها قونية . ولكن من حسن حظ بيزنطة انه كانت توجد ايضا دولة اسلامية أخرى هى دولة الدانشمند فى

الشمال الشرقي من شبه الجزيرة . وكان بين هاتين الدولتين الاسلاميتين تنافس وعداء وحروب ، عملت بيزنطة على استغلالها لمصلحتها . واتبعت سياستها المعروفة في تأليب القوى على بعضها تحقيقا لأهدافها . فقامت بتسليط القوتين على بعضهما البعض . وهكذا انشغل سلاجقة الروم عن بيزنطة ، وقل خطرهم فعلا وقتذاك . ولكن مانويل وان كان قد آمن جانب السلاجقة لفترة ما ، فان ذلك لم يدم طويلا . اذ افسد عليه مشاريعه في هذه الناحية وصول الحملة الصليبية الثانية الى القسطنطينية ، تماما مثلما افسدت الحملة الصليبية الأولى الكثير من مشروعات الامبراطور الكسيس كومنين .

لقد علم الامبراطور البيزنطي بأمر هذه الحملة التي قامت من الغرب سنة ١١٤٦ ، بقصد الاستيلاء على الرها التي كان قد استولى عليها عماد الدين زنكي قبل ذلك بعامين . وكان على رأس الحملة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا . فطلب مانويل أن يتقدم له قادة الحملة يمين التبعية والولاء،مثلما فعل قادة الحملة الاولى للامبراطور الكسيس وأيده كونراد في ذلك . ولكن قادة الحملة الثانية لم يأمنوا للدولة البيزنطيه، ولعل الأحداث التي أساءت الى العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين في الحملة الأولى كان لها أثرها في موقف الصليبيين الجدد حيال الامبراطور البيزنطي ومطالبه . وهكذا خالفت الحملة ما اشار به مانويل كومنين من وجوب تقدمها من ناحية مأمونة بعيدة عن قوى السلاجقة حتى لا تتعرض لهجوم هذه القوى التي قد تودى بها قبل أن تصل الأراضي المقدسة . ومهما قيل في الدوافع والأسباب التي جعلت مانويل يقترح على اللاتين طريقا جديدة بحيث لايدخلون العاصمة البيزنطية خشية أن تنقلب الحملة الى محاولات هدفها نهب العاصمة والاستيلاء عليها ، فمما لاشك فيه انه نصحهم بسلوك طريق مأمون . ولكنهم رأوا التقدم نحو عاصمة السلاجقة قونية للقضاء على قوة السلاجقة فيعقر دارهم قبل التقدم ومواصلة الزحف لتحقيق اطماعهم الصليبية في رقعة الشرق العربي . وكما كانت النتيجة عندما خالفت قوات بطرس الناسك في حملة

الأولى تعليمات الكسيس كومنين ، وانتهى الامر بمذبحة نيقية المشهورة — كذلك كانت النتيجة عندما خالفت قوات الحملة الثانية نصائح الامبراطور مانويل . اذ تحطمت الفرقة الالمانية من تلك الحملة الصليبية قبل ان تصل الى مدينة قونية على يد سلاجقة الروم انفسهم . وتراجعت فلولها مدحورة الى مدينة نيقوميديا فى انتظار وصول بقية الحملة .

وبعد أن تجمعت بقية القوات الصليبية تقدمت نحو مدينة أضاليا ، ولاقت فى الطريق الكثير من الصعاب والمخاطر . وكما القى رجال الحملة الأولى اللوم على الكسيس كومنين فيما يتعلق بالصعاب التى لاقوها والهزائم التى حلت بهم ، كذلك وجه رجال الحملة الثانية التهم الى الامبراطور مانويل من أنه سبب تلك الصعوبات . ويعزز هذا أن أوضحناه من وجود خلافات جوهرية بين العنصرين اللاتينى والبيزنطى تجعل التفاهم بينهما يكاد أن مستحيلا . ورأى روجر Roger ملك صقلية أن يستغل تلك الكراهية المتزايدة التى يكنها اللاتين نحو الدولة البيزنطية وعاهلها ، فحاول غزو بلاد الدولة من ناحية الشاطىء الأدرياتكى . فلجأ مانويل من ناحيته الى تجديد التحالف مع الامبراطور الالمانى كونراد الثالث ، مثلما فعل الملك حنا من قبل . اذ كانت هذه هى وسيلة البيت الكومنينى لمواجهة الخطر النورمانى . ولكن الموقف تغير بوفاة كونراد الثالث سنة ١١٥٢ . وخلفه الامبراطور فردريك باربروسا ، وكانت فكرة امتداد الامبراطورية الغربية نحو جنوبى ايطاليا قد اختمرت ووضحت معالمها . ولم ينظر باربروسا بعين الارتياح الى أطماع الامبراطورية الشرقية فى الاستيلاء على البلاد الواقعة جنوبى ايطاليا . ولهذا السبب وقف من الدولة البيزنطية موقفا يخالف موقف التحالف والصداقة والتفاهم بين الدولتين أيام سلفه كونراد الثالث . وكانت النتيجة الطبيعية هى معاداة الامبراطورية البيزنطية لفردريك باربروسا ، وبخاصة فيما يتعلق بنضاله مع البابوية . وكان البابا وقتذاك هو اسكندر الثالث ،

وكان الصراع بين البابوية والامبراطورية قد دخل اذ ذاك فى دورة الثانى . ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى التطور الذى طرا على العلاقات بين الامبراطوريتين البيزنطية والغربية . فقد كان الامبراطور مانويل كومنين يريد احياء فكرة الامبراطورية الواحدة مثلما كان الحال ايام الامبراطورية الرومانية الأولى ، وان يكون هو على راس الامبراطورية الواسعة . وارتكزت سياسته على هذا المحور منذ سنة ١١٥٧ . وقد تأثر موقف الدولة البيزنطية من المشاكل القائمة نتيجة لهذا الموقف الجديد . اذ صالح الامبراطور البيزنطى البابا الرومانى ليضمه الى جانبه ضد الامبراطورية الغربية . كذلك صالح الدولة النورمانية لنفس الغرض . ولكن فكرة مانويل فى احياء الامبراطورية القديمة لم تكن فى الواقع الا حلما من أحلام الماضى البعيد . اذ لم يؤد التراضى بينه وبين البابا الكاثوليكى الى شيء مما كان يأمله . كذلك لم تؤد المساعدات المادية التى قدمها مانويل الى المدن الايطالية فى نضالها ضد الامبراطور الألمانى شيئا . والدليل على ذلك الصلح الذى تم بين البابا اسكندر الثالث والامبراطور فردريك بارباروسا سنة ١١٧٧ الذى عرف بصلح البندقية ، والذى انتهى به ذلك الدور الثانى من أدوار الكفاح بين القوتين الكبيرتين فى الغرب اللاتينى . وكان الامبراطور البيزنطى قد مال فى اثناء هذا الدور من الكفاح ميلا صريحا واضحا الى جانب البابوية والمدن الايطالية انتقاما من الامبراطورية الغربية وأملا فى تحقيق اطماعه البعيدة . ولذلك كان الاتفاق بين عاهلى المسيحية فى الغرب لطمة أصابت آمال بيزنطة فى الصميم .

ومهما قيل حول فكرة احياء الامبراطورية الواحدة من أنها لم تكن توجد الا فى رؤوس قليلة ، وان بيزنطة هى الوريثة الحقيقة والشرعية للدولة الرومانية الأولى ، فيجب أن نذكر أنه لم يفسد خطط ومشاريع مانويل كومنين فى هذه الناحية سوى الدولة النورمانية بصقلية التى لم تكن جادة أو مخلصة فى موقف التحالف والصداقة الذى سعى الامبراطور البيزنطى الى تكوينه

كوسيلة من الوسائل العديدة لتحقيق تلك الفكرة .

يتضح مما تقدم ان الامبراطور مانويل قد نهج نهج جده الكسيس باتباعه الطرق الدبلوماسية لتحقيق مشاريعة ومآربه ، ولا سيما فكرة الامبراطورية الواحدة . والواقع ان هذه الدبلوماسية قد افادته الى حد ما ، اذ ابعدته وابعدت عنه النشاط الحربى من ناحية بعض القوى المجاورة له . اذ استطاع بتهدئه تلك القوى المجاورة ان يوجه جهوده الى مشاكل اخرى ، منها علاقات بيزنطة ببلاد المجر والدول العربية فى آسيا الصغرى . كذلك استطاع مانويل بفضل دبلوماسيته أن يتدخل فى شئون الصليبيين فى بلاد الشام . اذ رحبت مملكة بيت المقدس الصليبية بذلك التدخل . ذلك أن الامارات الصليبية التى تكونت فى الشرق العربى ، وهى مملكة بيت المقدس وامارات طرابلس وانطاكية والرها ، اخذت تهددها حركة اليقظة والافاقة العربية التى شملت المنطقة العربية من النيل جنوبا الى الفرات شمالا . وقد تمخضت هذه الحركة عن ظهور شخصيات اسلامية منها عماد الدين زنكى الذى قضى على امارة الرها عام ١١٤٤ ، وبذلك فقدت المستعمرات الصليبية احدى ركائزها فى الشرق . وكان لهذا الحدث رد فعل قوى فى الغرب الأوروبى . اذ قامت الحملة الصليبية الثانية بقصد استعادة مدينة الرها . ولكنها لم تحقق الغرض الذى قامت من أجله ، بل رجعت من الشرق بخفى حنين . ولهذا كانت الظروف هى التى جعلت بعض القوى الصليبية الدخيلة فى الشرق ترحب بتدخل مانويل كومنين . ومع ذلك ، فقد وجدت بعض القوى الصليبية الأخرى التى كانت تكره بشدة تدخل الدولة البيزنطية فى شئونها للأسباب العامة التى تقدمت الاشارة اليها . فضلا عن أسباب خاصة ، منها وجود شخصية صليبية معروفة هى شخصية أرناط صاحب الكرك **Arnaut de Chatillon** ذلك الفارس الفرنسى الذى أصبح أميرا على انطاكية ، والذى أبدى العداء والكراهية للدولة البيزنطية منذ البداية ، بسبب مالها من أطماع فى أنطاكية وماحولها .

لقد ذكرنا أن بعض الصليبيين رحبوا بالبيزنطيين ، ومن هؤلاء بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اللاتيني الذى كان يعمل للتقارب مع الامبراطور البيزنطي ومصادقته ، ليستعين به ضد البيت الزنكي . وكان عماد الدين زنكي قد توفي في ذلك الحين وخلفه في مملكته الواسعة ابنه نور الدين محمود. وقد رحب مانويل بهذه الصداقة ، وقبل أن يتدخل في شئون اللاتين ، ويعاون دولتهم في الشرق ضد نور الدين كوسيلة لحل مشكلة انطاكية . وزحف مانويل بجيوشه على الشرق حيث نزل في قليقية سنة ١١٥٨ كصديق الدولة الصليبية . وكان اقل مايتوقعه امبراطور بيزنطة مقابل ذلك هو ان يقدم له أرناط وغيره من امراء اللاتين فروض الطاعة والتبعية والولاء وفقا للتعهدات القديمة . وفي سنة ١١٥٩ دخل مانويل مدينة انطاكية ، وحقق اقصى ماكان يأمله حكام بيت المقدس اللاتين ، بل وما كان يطمع فيه أباطرة البيت الكومنيني نفسه . ولكن مانويل لم يقنع بمجرد حل مشكلة انطاكية التي استعصى علاجها على من سبقه ، بل لم يكن ليرى أى مانع من تحقيق أطماعه البعيدة. ذلك أن الدولة البيزنطية لم تتنازل ابدا عن دعواها القديمة . وهي أن آسيا الصغرى كلها وبلاد الأطراف الفراتية وشمالى الشام حتى مدينة انطاكية كانت كلها في يوم ما تابعة لها .

واذن لم يكن مستغربا أن يبادر مانويل بمساعدة أمراء مملكة بيت المقدس اللاتيني ، وان يستعد للاستيلاء على الرها من المسلمين . ومع ذلك يجب أن نفهم أن استعدادت الامبراطور مانويل للاستيلاء على الرها لم تكن سوى تغطية لما كان قد عقد العزم عليه ، وهو تحاشى الدخول في حروب مع نور الدين . والدليل على ذلك أن مانويل فاوض نور الدين فعلا في الصلح في نفس الوقت الذى كانت فيه جيوشه تستعد لتسير تحت قيادته صوب مدينة الرها. وعقد الصلح بين الطرفين ، وتعلل الامبراطور البيزنطي بأنه لن يستطيع التقدم صوب الرها بسبب اخبار وصلت اليه عن مؤامرة كانت تتطلب وجوده بالعاصمة البيزنطية لاخمادها . والحقيقة أنه لم يكن من مصلحة مانويل معاداه

نور الدين . بل كان فى الواقع من مصلحته الابقاء على تلك الدولة العربية قوية لتقف دون محاولات اللاتين وأطماعهم فى دولته ، وحتى لا تجرأ امارة انطاكية — ولها تاريخ معروف مع بيزنطة — هى أو غيرها من الامـــارات الصليبية على مناوأة الدولة البيزنطية . وهنا نرى أنه كان لايزال يتبع طرق السياسة والدبلوماسية لعلاج مشاكله . وجدير بالتنويه فى هذا المجال أن اباطرة بيزنطة — بصفة عامة — كانوا يمتازون بعامل السياسة والدهـــاء والحكمة وبعد النظر ، مما كان له اكبر الأثر فى الابقاء على الدولة البيزنطية عشرة قرون أو يزيد . ونلمس هذا بوضوح فى موقف حكام بيزنطة من الاجناس الجرمانية ومن المسلمين ومن جيرانها العرب سواء أكانوا فاطميين أو عباسيين أو سلاجقة .

واذا عدنا الى الامبراطور مانويل ومملكة اللاتين فى بيت المقدس نجد أن الصلح الذى تم بين مانويل ونور الدين كان على بلدوين الثالث الذى ظل وخليفته أمورى الأول قانعين بتلك الصداقة البيزنطية الجوفاء . والملك أمورى الاول له شهرته فى التاريخ المصرى نظرا للحملات العديدة التى قام بها بقصـــد الاستيلاء على مصر ، وكانت اذ ذاك تحت حكم الفاطميين ، وكانت دولتهم فى أخريات ايامها وفى طور الاحتضار . ونظرا لاخفاق محاولات أمـــورى فى الاستيلاء على الديار المصرية أيام الوزيرين شاور وضرغام ، فقد طلب من الامبراطور البيزنطى مساعدته فى الاستيلاء على البلاد . ذلك أن محاولات أمورى السابقة لغزو مصر لم تفلح ، بل نجح نور الدين فى الاستيلاء عليهـــا وأصبح قائده صلاح الدين الأيوبى هو الوزير الاكبر فى الدولة الفاطمية . وقد تم الاتفاق بين مانويل وأمورى على تجهيز حملة مشتركة هدفها الاستيلاء على مصر من نور الدين . ووصلت الحملة فعلا الى دمياط ، لكنها أمضت وقتا غير قصير فى الطريق من الشام الى دمياط . وترتب على هذا التأخير الطويل نفاذ معظم مؤونتها وهى على حصار دمياط . وهكذا تمكن صلاح الدين مـــن اجلاء الصليبيين عن الشاطىء المصرى بسهولة .

ننتقل بعد ذلك الى العلاقات بين مانويل كومنين وبين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . لقد كان شأن سلاطين ذلك الفرع السلجوقي شأن بقية سلاطين الدولة السلجوقية في الشرقين الادنى والاوسط ، في تفكك مستمر . وكان من الطبيعي أن يستغل مانويل هذه الظروف المواتية بالنسبة له لاعادة ممتلكات الدولة في آسيا الصغرى الى حظيرة الامبراطورية . واتبع الوسائل الدبلوماسية المعتادة التي إشتهر بها البيت الكومنيني في التفريق بين ملوك البيت السلجوقي وامرائهم في قونية وأنقره . ووجد مانويل مقاومة شديدة من احد سلاطين البيت السلجوقي وهو قلج ارسلان الذي كان يجد المعاونة والتعضيد من الامبراطور الالماني فردريك باربروسا . ولم يجد مانويل بدا من اعلان الحرب ضد قلج ارسلان ، حيث اعد جيشا كبيرا من اتباعه ومن حلفائه من الأمراء المسلمين المناهضين للسلطان قلج ارسلان . ولكنه لقى هزيمة شديدة سنة ١١٧٦ في أواسط آسيا الصغرى ، تلك الهزيمة التي شبهها الامبراطور مانويل نفسه بهزيمة ملاذ كرد سنة ١٠٧١ . فكان من اهم نتائجها ضياع هيبة البيت الكومنيني ، بل وضياع أمل الدولة البيزنطية في استرجاع ممتلكاتها في آسيا الصغرى .

ثم أن هذه الهزيمة التي نزلت بالدولة البيزنطية سنة ١١٧٦ على يد القوى السلجوقية التي كان معظمها آخذا في التدهور والانحلال ، تتضح أهميتها في أن قوى عربية جديدة كانت قد أخذت في الظهور في ذلك الوقت لتحل محل القوى السلجوقية المفككة في آسيا الصغرى ، ونعني بذلك ظهور الدولة الأيوبية بمصر والشام ، التي اخذت تتزعم الجبهة العربية في الشرق الأدنى ضد اللاتين الدخلاء . وكذلك ضد العنصر المغولي في الشرق الادنى . والواقع أن هزيمة الجيوش البيزنطية على يد السلاجقة اتاحت الفرصة للدولة الايوبية الناشئة لتعزيز مركزها حتى تستطيع مجابهة كل من البيزنطيين والصليبيين . وانتهز الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا هذه الفرصة فأرسل الى عدوه مانويل يذكره بما حل به وبدولته من الهزائم ، ويسخر منه ومن احلامه القديمة بشأن الامبراطورية الواحدة، قائلا له ان هذه الامبراطورية

قائمة فعلا فى الغرب الأوروبى ، وانما تمارس سيادتها فعلا فى جميع انحاء البلاد الأوروبية .

لقد كانت الهزيمة التى لحقت بالدولة البيزنطية على يد السلاجقة نصرا كبيرا للامبراطورية الغربية ولفردريك نفسه . ولكن بالرغم من كل ما حل بيزنطة من كوارث ، فلم يستلم مانويل ، بل لجا الى الانتقام من الامبراطور فردريك ، وذلك بتشجيع القوى الثائرة ضده فى ايطاليا بامدادها بالمال اللازم . واستمر مانويل على مساعدته للمدن الايطالية والقوى المعادية لفردريك فى الغرب حتى وفاته سنة ١١٨٠ .

الامبراطور الكسيس الثانى كومنين Alexias II
(١١٨٠ — ١١٨٣)

هكذا بدت الدولة البيزنطية بعد وفاة مانويل متعبة منهوكة القوى مثقلة بالأعباء المالية ، وذلك بسبب أطماع مانويل واندفاعه فى المشاكل الخارجية الكثيرة التى لم يوفق فى معظمها . واذ القينا نظرة فاحصة الى مانويل وأطماعه التى حاول تجربة حظه فيها ، وبخاصة تفكيره فى اعادة الامبراطورية الرومانية الموحدة تحت السيادة البيزنطية،نجد أنه قريب الشبه من الامبراطور جستنيان فى أطماعه وتفكيره . وهكذا كانت الدولة بعد وفاة مانويل فى حاجة الى فترة من الراحة والاستقرار تستعيد فيها بعض نشاطها وقوتها . بل فى حاجة أيضا الى امبراطور قوى محنك يستطيع ان يقود الدولة الى بر الأمان بعيدا عن المشاكل الخارجية التى جلب عليها الكثير من الكوارث . ولكن هذا لم يحدث لسوء حظ بيزنطة ، ولسوء حظ البيت الكومنينى نفسه . اذ ترك مانويل ابنا صغيرا عمره ١٢ سنة هو الكسيس الثانى كومنين . ونظرا لصغر سنه فقد أصبحت أمه مارى الأنطاكية وصية عليه فى الفترة من ١١٨٠ الى ١١٨٢ . واصبحت مارى صاحبة النفوذ الفعلى فى البلاد . ومارى هذه هى سليلة البيت الصليبى النورمانى الذى اسس امارة انطاكية بشمال الشام . وقد تزوج بها فى أواخر أيامه حتى لا تكون أنطاكية مصدر متاعب له ولسلالته

فيما بعد . ولكن مارى هذه سرعان ما احالت البلاط البيزنطى بعد وفـاة زوجها الى معارض للازياء والأناقة . وانصرف رجال البـلاط عن شئـون الدولة فى سبيل الحصول على رضاء الامبراطورة الوالدة . وتطور الأمر داخل القصر الامبراطورى الى سلسلة من الغراميات كانت مارى نفسها بطلتها. ولكن لما كانت هذه قد حافظت على العناصر الانطاكية التى حرص زوجهـا مانويل على استخدامها فى الدولة ، وكان معظم هذه العناصر من اللاتين الذين وفدوا من غرب اوروبا ، فقد بدت الامبراطورة الوالدة فى نظر المعاصرين والبيزنطيين بصفة خاصة ، انها امراة اجنبية احاطت نفسها بعناصر مـن جنسها . هذا فضلا عن انها اساءت الى نفسها والى البيت الكومنينى بسبب غرامياتها التى فاحت رائحتها وكتب عنها المؤرخون الشىء الكثير . ويحدث كل هذا فى وقت كانت فيه الدولة فى امس الحاجة الى مايخالف ذلك تمامـا فى الرجال وفى حياة البلاط أو فى شخصية الجالس على العرش .

على اية حال ، كان من الطبيعى فى مثل هذا الجو الفاسد ان تلعـب المؤمرات دورها . وبرز اصحاب الأغراض والاطماع الذين اخذوا يعملون للافادة من هذا الجو المحيط بهم . وفى هذا الظروف السيئة وجد الساخطون والغاضبون والطامعون زعيما فى ابنة للامبراطور مانويل المتـوفى . فالتف حولها كثير من ابناء البيت الكومنينى النين ساءهم سوء تصرف الامبراطورة مارى ، وكثرة استخدام اللاتين الأجانب فى وظائف الدولة . فاشاعـوا أن الامبراطورة الوالدة سوف تتزوج من حبيبها وتعلنه امبراطورا على البلاد، وانها فى سبيل ذلك ستعمل على التخلص من ابنها الامبراطور الصغير الكسيس الثانى . ثم دبروا مؤامرة هدفها اغتيال العشيق . ولكن المؤامرة اكتشفت، وانقلب الحال سنة ١١٨٣ الى حرب مكشوفة بين الامبراطورة واعوانهـا وبين الحزب المناهض لها من جميع الفئات . وفى مثل تلك الظروف لم تكن اى بادرة توحى بأن الشعب سوف يلتف حول الامبراطورة الوالدة باعتبارها وصية على الابن القاصر صاحب الحق الشرعى فى المنصب الامبراطورى. فقد كانت فى نظر البيزنطيين امراة لعوب غريبة عن البيت الكومنينى بانقطاع

صلتها به بعد وفاة زوجها ، وأنها امرأة أجنبية تريد احلال الأجانب فى وظائف الدولة محل البيزنطيين . كل هذا جعل الأمور لا تميل فى صالحها ، مما هيأ الجو لأندرونيق كومنين لاعتلاء العرش الامبراطورى .

الامبراطور اندرونيق الأول كومنين Andronicus I

(١١٨٣ — ١١٨٥)

بينما كانت الفتن الداخلية تعمل عملها فى البلاد ، كان يرقب الأحداث من بعيد اندرونيق كومنين . واندرونيق هذا شخصية عجيبة ، اجتمعت فيه صفات متناقضة تجعله اقرب ما يكون بمانويل كومنين . كان ذكيا متحدثا عالما كمعظم ابناء البيت الكومنينى . يهتم كثيرا بمظهره ويفتخر بغرامياته . وكان قد حاول فى عهد مانويل الوصول الى العرش الامبراطورى . وكان جزاؤه وقتها هو نفيه الى أحد الثغور النائية على البحر الأسود . وأدرك وهو فى منفاه أن الفتن والمؤامرات التى أصبحت البلاد مسرحا لها هى فرصته لتحقيق أمله القديم . فكانت هناك حركة عصيان وتمرد ضد الامبراطورة مارى الأنطاكية والعناصر الاجنبية . وكان طبيعيا أن يتطلع الناقمون على الامبراطورة وحزبها لهذا الرجل الكومنينى الغريب كما لو كان الشخص الوحيد الذى يستطيع انقاذ الدولة من الحالة التى بلغتها ، والوصول بها الى بر الأمان . ولذلك التفوا حوله باعتباره افضل من يستحق المنصب الامبراطورى . وانتهى الأمر فعلا باعتلائه العرش سنة ١١٨٣ . وكان اندرونيق بعيد النظر ، فأعلن نفسه شريكا للامبراطور الصغير الكسيس الثانى ، وذلك بعد ذبح العناصر الأجنبية اللاتينية ، والتخلص من الامبراطورة الوالدة بالقتل .

ولما كان هدف اندرونيق النهائى هو تعزيز مركزه فى الوظيفة الامبراطورية ، فقد قام بالقضاء على جميع العناصر المناوئة له . كذلك قام بسلسلة من الاغتيالات المدبرة التى لم ينج منها أحد من بقايا البيت الكومنينى نفسه . وأخيرا تخلص من الامبراطور الصغير . وقد ظن بعد ذلك كله أن الجو قد

خلا له لتحقيق ماأراده ، ولكن الحوادث خيبت ظنه . ذلك لان الفتن الضاربة أطنابها فى البلاد ، هى التى هيأت الجو لأندرونيق فى الوصول الى العرش. فقد كان اعتلاء أى كومنين العرش أفضل بكثير من استمرار الفتن التى كادت أن تودى بالبلاد مورد التهلكة . ثم أنه كان فى نظر المعاصرين الشخص الذى يمكنه انقاذ بيزنطة من الأجانب المتسلطين على بلاطها . ومع ذلك ، فقد نسى اندرونيق أن الفضل الأول فى وصوله الى العرش — الى جانب ماتقدم — انما يرجع الى البيوت الاقطاعية التى نشأ من بينها البيت الكومنينى نفسه . ولذلك اخطأ التقدير عندما أصدر عددا من القوانين الصارمة بقصد تثبيت نفسه فى المنصب الامبراطورى . اذ وجدت فيها البيوت الاقطاعية وسيلة لاضعافها . وهكذا بدأت تلك البيوت تتحول عنه ، ويظهر بينها شعور بالسخط والتذمر . ولم يسكت اندرونيق أو يحاول تهدئة الساخطين عليه وعلى تصرفاته وقوانينه ، بل قام بسلسلة من الاتهامات والاغتيالات التى كان آخرها حادث القبض على أحد أبناء تلك البيوت الاقطاعية وهو اسحق انجيلوس . وكانت تلك الحادثة التى تدل على قصر النظر كافية لأن تثور العاصمة والأقاليم ضد اندرونيق . وذهب اندرونيق ضحية تلك الثورة التى ذهب معها أيضا البيت الكومنينى كله سنة ١١٨٥ ، واعتلاء أسرة جديدة العرش البيزنطى .

نخلص مما سبق أن السنوات الأخيرة من حكم البيت الكومنينى ، وبخاصة الفترة من ١١٨٠ الى ١١٨٥ ، لقيت فيها الدولة البيزنطية عكس ما كانت تحتاج اليه من شخصيات مخلصة محنكة ، واصلاحات داخلية عديدة ، وسياسة هادئة . ويمكن القول دون مغالاة ان كل ماعاد على الدولة من جراء حوادث تلك الفترة والسياسة الخارجية التى اتبعتها ، وماجرته عليها من مشاكل ، هو ازدياد روح العداء والبغضاء فى اوروبا ضد بيزنطة والبيزنطيين ، وذلك بسبب مذبحة اللاتين الكبرى التى سبقت اعتلاء اندرونيق كومنين العرش الامبراطورى .

الموضوع الثالث عشر

اسرة انجيلوس

١١٨٥ — ١٢٠٤

وسقوط القسطنطينية فى قبضة اللاتين

الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥)

لقد تمخضت ثورة ١١٨٥ عن اعلان اسحق انجيلوس امبراطورا ، وبه يبدأ حكم بيت انجيلوس فى الدولة البيزنطية . وكان عهده الذى امتد من سنة ١١٨٥ الى سنة ١١٩٥ عبارة عن سلسلة متصلة من الكوارث التى حلت بالبلاد ، فلم تترك فترة من الراحة والهدوء تهيىء لها جوا من الاستقرار. من ذلك استقلال أحد أبناء البيت الكومنينى بجزيرة قبرص . وقد استمرت الجزيرة على هذا الحال الى أن جاء ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد احد قادة الحملة الصليبية الثالثة ، فاحتل الجزيرة سنة ١١٩١ . وبذلك انقطعت علاقتها نهائيا بالدولة البيزنطية . ومن هذا التاريخ يتصل تاريخ جزيرة قبرص بالحروب الصليبية . كذلك استطاعت الدول البلقانية التابعة للامبراطورية مثل بلغاريا وصربيا اعلان استقلالها والمحافظة عليه ، فى وقت لم يكن فيه بوسع بيزنطة توجيه حملات تأديبية ضدها ، على عكس الحال فى أيام الأسرة المقدونية مثلا . واذا أضفنا الى ماتقدم الحملة الصليبية الثالثة التى قدمت من اوروبا الى الشرق بقصد الغزو والفتح ، بعد ان وحد صلاح الدين الأيوبى الجبهة العربية فى كتلة واحدة متحدة ضد الصليبيين نجد أنه كان من ضمن قادة تلك الحملة الامبراطور الألمانى فردريك بارباروسا العدو القديم للدولة البيزنطية . وقد أراد هذا الامبراطور أن يخترق الطريق البرى الذى اخترقه فعلا عبر آسيا الصغرى متحديا بذلك الامبراطور البيزنطى ورغما عن ارادته . وأحدثت جيوشه بالمدن الصليبية من الخراب والدمار ما لم يقع بها على يد رجال الحملات الصليبية السابقة . وقد قاوم اسحق انجيلوس قوات فردريك . ولكن ذلك زاد فى العداء التقليدى الكامن فى غرب اوروبا نحو الدولة البيزنطية ، خاصة بعد أن تحالف اسحق مع صلاح الدين . وبلغ العداء ذروته عندما اقترح فردريك بارباروسا تحويل الحملة الصليبية التى قدمت أساسا للاستيلاء على بيت المقدس الى حرب ضد الدولة البيزنطية .

الامبراطور الكسيس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣)

وفى زحمة هذه الأحداث ، استغل اخ للامبراطور اسحق انجيلوس الموقف لصالحه . فقام بخلع اسحق ، وأقام نفسه مكانه سنة ١١٩٥ ، واسمه الكسيس الثالث . ومن ذلك التاريخ حتى نهاية حكم بيت انجيلوس كانت البلاد تعج بالفتن والاضطرابات . واصبح الموقف أسوأ مما كان من قبـــل . ويبدو أن الكسيس الثالث لم يكتف بما حققه ، بل أراد أن يبعد اخاه المخلوع تماما عن العرش ، فسمل عينيه ، ثم القاه فى أحد السجون هو وابنه . ولكن هذا الابن الذى عرف فيما بعد باسم الكسيس الرابع استطاع أن يهرب من السجن الى اوروبا حيث استنجد بملوكها ضد عمه المغتصب . وكانت الحملة الصليبية الثالثة قد عادت من الشرق دون أن تحقق أية نتيجة . واخـــذت اوروبا تستعد للحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، وكان معظم رجالها قد وصلوا الى البندقية للابحار منها الى بلاد الشام . ولكن البندقية وهى المدينة البحرية التجارية المعروفة بأطماعها ، والتى اشتهر أبناؤها بأنهم اولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيون ، ارادت أن تستغل الموقف للانتقام من الدولة البيزنطية لموقفها من رعاياها وتجارتها فى بيزنطة . وتم الاتفاق بين الكسيس الرابع وملوك غرب اوروبا على انقاذ بيزنطة مما حل بها على يد الكسيس الثالث . وهكذا تحولت الحملة الصليبية الرابعة التى كان هدفها الأساسى هو الاستيلاء على مصر ، ثم التوجه شمالا الى الأراضى المقدسة ، تحولت عن غرضها الاصلى واتجهت صوب القسطنطينية ، لتحقيق أطماع قديمة راودت اللاتين منذ قيام الحركة الصيلبية نفسها فى أخريات القرن الحادى عشر ، بل وقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بوقت غير قصير . وانتهى الامر فعلا بالقضاء على الامبراطورية البيزنطية قضاء رسميا حيث صارت بلادها اجزاء فى أيدى أمراء الصليبيين ماعدا أجزاء معينة لجأت اليها الدولة البيزنطية فى المنفى التى كانوا قد أقاموها فى نيقية وطرابيزون وشبه جزيرة المورة . وهكذا

حقق اللاتين أطماعهم البعيد ، حيث أقاموا من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ امارة لاتينية فى بيزنطة ، تضاف الى مستعمراتهم التى كانوا قد اقاموها فى الشرق العربى . وقد ظلوا بها أكثر من نصف قرن ، وبيزنطة تعمل كل مافى وسعها من المنفى لاخراج الصليبيين اللاتين من بلادها .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين جعل سنة ١٢٠٤ التى استولى فيها الصليبيون على القسطنطينية ، نهاية الدولة البيزنطية . وحجتهم فى ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وان كانت قد أعيدت بعد ذلك واستمرت حتى اواسط القرن الخامس عشر ،بسقوطها تحت ضربات الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ — الا أن أحداثا ومؤثرات جديدة من الغرب الأوروبى جدت على العالم البيزنطى، وتركت آثارها الواضحة بحيث لم يعد لعاصمة قسطنطين نفسها من مجدها القديم وعظمتها الغابرة الا شبحا وذكرى . وممن يأخذ بهذا الرأى المؤرخ المعروف نورمان بينز الذى ينهى كتابه عن الامبراطورية البيزنطية عند سنة ١٢٠٤ .

اللاتين فى القسطنطينية

كان حكم أسرة انجيلوس (١١٨٥ — ١٢٠٤) الذى كانت بيزنطة فى ظله مرتعا خصيبا للفوضى والفقر والاضطرابات ، فضلا عن الامتيازات التى منحت للايطاليين ، قصة مثيرة للحزن . اذ ظفرت بلغاريا باستقلالها ، وقامت الثورة فى جزيرة قبرص ، وأخيرا فى عام ١٢٠٣ قامت فى الغرب الأوروبى حملة صليبية جديدة هى المعروفة بالحملة الرابعة فى عداد الحركة الصليبية. وكانت وجهتها مصر والأراضى المقدسة ، ولكن أطماع البنادقة حولتها الى القسطنطينية .

وحتى تكتمل الصورة ، يحسن القاء الضوء على الدور الهام الذى قامت به البندقية فى العصور الوسطى . فتاريخها فى الحقبة الوسيطة من التاريخ هو فى الواقع تاريخ تطور التجارة فى حوض البحر المتوسط . وقد أصبح لها فى هذا البحر مع الزمن شأن عظيم ، حتى غدت الشريك الأوروبى البارز فى نشاط اوروبا التجارى فى العصر الوسيط . وكان الشريك الشرقى وقتها هو دولة المماليك فى مصر والشام ، التى اجتمعت فى أسواقها متاجر الشرق، وأتت مختلف أنواع السلع والبضائع من اوروبا ، ووفد اليها التجار من فرنسيين واسبان وايطاليين ، لا سيما البنادقة الذين كانت لهم امتيازات تجارية عديدة فى موانى مصر والشام أفاض فى الكتابة عنها المؤرخ الفرنسى وليم هايد فى كتابه الكبير عن « تاريخ تجارة حوض الليفانت فى العصور الوسطى » ، وكذلك المؤرخ شارل ديل فى كتابه المعنون « البندقية جمهورية ارستقراطية » .

لقد كان للبندقية تاريخ بحرى مجيد انفردت به عن غيرها من دول الغرب الأوروبى ، ذلك بحكم موقعها الجغرافى الذى يكشف عن عظمتها البحرية والتجارية . فهى تقع على رأس البحر الأدرياتى الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبة ايلين بور، أعظم طريق بحرية لتجارة العصر الوسيط . ثم

هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلا عن كونها احد موانى البحر المتوسط . وقد كسبها كل هذا ميزات حسدتها عليها كثير من بلدان اوروبا . ففيها كان يرسو التجار الوافدون من الثغور المصرية والشامية ، ومن بلاد الشرق الأقصى ومعهم الانسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعطور وغيرها . ومن البندقية كانت هذه البضائع تنقل الى المانيا وفرنسا وانجلترا والأراضى الواطئة وغيرها من بلدان الغرب . وكانت البندقيـــة تجنى من وراء ذلك ارباحا طائلة .

كذلك كان التجار البنادقة يأتون الى أسواق مصر والشام سنويـــا يأخذون منها حاجتهم التى يحملونها معهم على مراكبهم الى الأسواق الاوروبية. والمهم ان عملية الاستيراد والتصدير هذه جعلت من البندقية جزءا هامـــا فى تاريخ دولة المماليك ، كما جعلت من دولة المماليك فى مصر والشام هى الأخرى جزءا هاما فى تاريخ البندقية والتجارة الدولية فى العصور الوسطى .

واذا عدنا قليلا الى الوراء ، نجد ان تاريخ البندقية جمهورية مستقلة بشئونها ، يرجع فى الأصل الى تمركز بعض الجاليات الرومانية منذ القدم ، وهى التى كانت قد لجأت اليها هربا من الجرمان وغزواتهم المدمرة الكاسحة التى احدثت بأوروبا ماأحدثته من فوضى ودمار فى اوائل العصور الوسطى . وظلت تلك الجاليات الرومانية فى تلك الجهات الضحلة النائية ايام غزوات الجرمان الى ان امتدت اليهم سلطة القوط . وكانت النتيجة أن اعترفـــوا بالتبعية لدولة القوط الشرقيين . وفى عهد الامبراطور البيزنطى جستنيان الذى كان يسعى الى اعادة الدولة الرومانية الى ما كانت عليه ايام القياصرة القدماء ، بالقضاء على الدول والممالك الجرمانية التى قامت على انقاضـــ الدولة الرومانية القديمة ، وما تبع ذلك من هدم دولة القوط الشرقيين فى ايطاليا ، والقضاء على مقاومتها ــ انتقلت تبعية البنادقة الى الدولة الرومانية الشرقية اى الدولة البيزنطية . ثم وقعت بعد جستنيان اغارات اللومبارديين فى النصف الثانى من القرن السادس ، والتى ترتب عليها زوال معظم سلطان

ببزنطة على ايطاليا . ولكن البندقية لم يصبها ما أصاب بقية ايطاليا ، وبذلك أصبحت فى مأمن من تيار الفتح اللومباردى . وكان عدد البنادقة فى زيـادة مستمرة فى جهات الأضحال والمستنقعات حتى منتصف القرن السابع ، تلك الجهات التى لم يبسط اللومبارديون سلطانهم عليها ، بل تركوها وشأنها . وقد حمتهم طبيعة بلادهم من الوقوع تحت سيطرة المغامرين من لومبارديين وغيرهم ، وظلوا تابعين تبعية رسمية للدولة البيزنطية .

ومع ذلك فقد أثرت الاغارات اللومباردية على البنادقة وانظمتهم . ذلك ان الاريوسية اللومباردية التى أصبحت المذهب السائد فى ايطاليا بعد أن كون اللومبارديين مملكتهم ، حملت كثيرا من الأساقفة المسيحيين الى البندقية التى أصبحت ملجأ لكثيرين من الكوارث والتقلبات التى حلت بالغرب . وتحت تأثير التنظيم الكنسى الذى عمل الأساقفة اللاجئون على فرضه فى اقليـم البنادقة ، صارت البندقية بحكم وضعها الجغرافى ، وبحكم العناصر التى كونتها ، وفى ظل المؤثرات التى أثرت فيها ، والظروف والتطورات التى مرت بها — وحدة سياسية مخالفة لما نشأ فى باقى أجزاء ايطاليا من الوحدات فى تلك الأزمنة ، وذلك برغم تبعيتها الرسمية لبيزنطة . ومنذ أواخر القـرن السابع ، وعلى وجه التحديد منذ سنة ٩٦٧ م غدت البندقية دوقية مستقلة بشئونها . وأول من شغل تلك الوظيفة فيها نبيل اسمه Paulutis ومن الدلائل على هذا الكيان الجديد للبندقية ، أنها عقدت فى سنة ٧١٦ م معاهدة مع ملك اللومبارديين تحددت بمقتضاها حدود البندقية ، كما منحت تسهيلات خاصة للتجار البنادقة فى بلاد اللومبارديين مقابل جزية يدفعونها .

ثم ظهر بعد ذلك على مسرح السياسة الايطالية عامل جديد لايقـل أثرا عن الحوادث الكبرى السالف الاشارة اليها ، وذلك حينما قرر البابـا الرومانى ستيفن الثانى Stephen II (٧٥٢ م) الاستعانة بشخص بين القصير فى أواسط القرن الثامن ضد خصومه ، مما أدى الى تدخل الفرنجة فى شئون ايطاليا حتى أزالت مملكة اللومبارديين فى أواخر أيام شارلمان (٧٦٨—

٨١٤) .ولقد استفادت البندقية من تلك العلاقة التى نشأت بين البابوية والدولة الفرنجية ، أو بعبارة أكثر وضوحا بين ايطاليا والفرنجية ، لأنها أصبحت حلقة الوصل بين البلدين . اذ فتحت ميدانا واسعا للنشاط التجارى فى بلاد الفرنجة . وأخذت البندقية من ثم تقوم بدور الوسيط فى التجارة بين شرقى اوروبا وغربها . وهذا هو الدور الذى بدات به البندقية عظمتها ، والذى بنت عليه شهرتها فى العصور الوسطى .

ولما كانت سلطة الفرنجة أيام شارلمان قد امتدت الى ايطاليا وغيرهـــا من البلاد ' فقد اعترفت البندقية بنوع من السيادة لامبراطورية شارلمـــان غير ان تلك السيادة لم تدم طويلا ، بل كانت سببا لصراع وحروب طويلة عادت البندقية بعدها لتبعتيها القديمة للدولة البيزنطية ، وهى تبعية قد زال مـــع الزمن معناها ومغزاها . وفى أثناء حروب البنادقة ضد سلطان الدولة الفرنجية كان مركز المقاومة فى جزيرة ريالتو Rialto وهى احدى المدن الجزرية التى تكونت منها جهات البندقية . واثرت تلك الحروب فى مركز هذه المدينة الجزرية حتى أصبحت عاصمة الجزر المكونة لجمهورية البيدقية كلها .واستمرت تبعية البندقية لبيزنطة حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، وكانت تتربع على عرش بيزنطة وقتذاك اسرة من اقوى الاسرات التى حكمت فى التاريـــخ البيزنطى هى الاسرة المقدونية . ومع أن هذه التبعية كانت تبعية اسميـــة ضئيلة ، فانها كانت فى طريقها الى الانكماش والتقلص التدريجى بسبب النمو المطرد للبندقية كقوة بحرية ، حتى أصبحت تعتبر نفسها ندا للدولة البيزنطية. واخذت تطالب بامتيازات لجالياتها التجارية فى القسطنطينية' .

هذا عن طبيعة العلاقات بين البندقية والدولة البيزنطية منذ القـــدم حتى اواخر القرن العاشر . أما من ناحية الامبراطورية الغربية التى تكونت بعد انحلال الدولة الكارولنجية ، فقد دابت البندقية على مواجهتها معتبرة نفسها دولة مستقلة قائمة بذاتها . وعقدت معاهدات تجارية كثيرة . اما من ناحية النمو الداخلى ، فقد استمرت البندقية تنمو كقوة تجارية كبرى . وقد

بدت البندقية دولة ذات مدينة زاهرة منذ اوائل القرن التاسع . فمنذ سنة ٨٢٩م كانت علاقتها بمصر قوية متينة ، حتى انها استطاعت أن تحصل من الوالى على اذن بنقل رفات القديس مرقس من الاسكندرية على مراكب بندقية .

ومن دلائل عظمة البندقية أن اسطولها التجارى كان قد بلغ ستين سفينة ، فضلا عن اعتماد بعض الدول المجاورة لها ، ومن بينها بيزنطة ، على مراكبها فى كثير من ضروراتها الحربية . هذا ولما كان القرن الحادى عشر فى اوروبا مملوءا بحوادث ظهور النورمان ، وتكوين الدولة النورمانية ، لا سيما فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فقد تأثرت البندقية بظهور النورمان الذين أخذوا يتوسعون على حساب جيرانهم من مسيحيين ومسلمين على السواء . وكان هدفهم أن يجعلوا من البحر الادرياتى بحرا لجيوشهم واسطولهم ، ولهم فى جنوبى ايطاليا والبلقان ، مما يتنافى وسياسة البندقية ومصالحها التجارية . واخذ النورمان يمدون سلطانهم نحو الشاطىء الشرقى للبحر الادرياتى تمهيدا للاستيلاء على القسطنطينية . وحاصر روبرت جويسكار النورماندى فى أواخر القرن الحادى عشر مدينة دورازو لتحقيق ذلك المشروع . وكان واضحا انه اذا استولى النورمان على دورازو انفتح الطريق أمامهم الى عاصمة الدولة البيزنطية . وكانت تلك المحاولة النورمانية من بين الاسباب التى جاءت بالكسيس كومنين الى العرش الامبراطورى فى بيزنطة سنة ١٠٨١ م ، لانقاذ الدولة من ذلك الخطر الذى كان يهددها تهديدا مباشرا . ورأى الكسيس الاستنجاد بالامبراطور الألمانى هنرى الرابع ضد النورمان واطماعهم فى بلاده . ولكن حال دون تلبية الاغاثة ذلك الصراع الذى نشب بين هنرى الرابع والبابا الرومانى جريجورى السابع حول المسائل العلمانية . فلم يجد الكسيس أمامه سوى البابوية يستنجد بها .

ومن هنا بدأ التطور فى تاريخ البندقية ، ومن هنا ايضا يظهر اثر النورمان فى القرن الحادى عشر فى تاريخ البندقية وشعبها نتيجة لتضارب المصالح

وتشابكها . وكان طبيعيا فى مثل هذه الظروف أن تسرع البندقية الى مساعدة الكسيس ضد النورمان وأطماعهم . فقد كان يجمع بينهما فى تلك الفترة هدف واحد هو القضاء على عدو مشترك لكليهما ، وان اختلفت الأسباب . فقد كان الكسيس يريد حفظ عاصمته من خطر النورمان ، بينما كان البنادقة يخشون على مصالحهم التجارية التى كان الخطر النورمانى يهددها فى الصميم . وكانت البندقية تعلم جيدا أن اطماع النورمان التى لم تكن تقف عند حد ، وتوسعهم فى البحر ، سوف يضيق الخناق حولها ويجعلها تحت رحمة اسطولهم البحرى . لذلك اسرعت البندقية الى اجلاء النورمان عن ثغر دورازو سنة ١٠٨١ م . ويجب أن نعرف أن هذه المساعدة ليس لها اى قيمة فى تاريخ البندقية . انما القيمة الحقيقة تنحصر فى أن البندقية وافقت على مساعدة الامبراطور البيزنطى بشرط أن يكون للبنادقة حق الاتجار فى المدن البيزنطية ، بما فى ذلك القسطنطينية نفسها ، وأن يتمتع البنادقة دون غيرهم من التجار بحصانة قوية ، بمعنى أن يكون لهم جالية فى أحياء معينة من المدن البيزنطية ، ويكون لهم فيها محاكم خاصة ، وليس لبيزنطة عليهم من سلطان ، تماما مثلما فعلوا عندما ساعدوا الصليبيين الغربيين فى الاستيلاء على المدن والموانى المصرية والشامية اثناء الحركة الصليبية .

وقد دابت البندقية على مساعدة الامبراطورية البيزنطية ضد النورمان تحقيقا لمصالحها الخاصة . والنتيجة انها افادت من وراء ذلك فائدة حربية ومادية . والخلاصة أن البندقية أصبحت فى أواخر القرن الحادى عشر دولة بحرية قوية تهتم بالتجارة وتعمل على أن تكون لمتاجرها اسواق خاصة فى مختلف البلاد شرقى حوض البحر المتوسط المعروف باسم حوض الليفانت.

تلك هى حالة البندقية وما وصلت اليه فى الفترة التى اخذت فيها اوروبا تفكر فى الحروب الصليبية . وتاريخ البندقية فى اثنائها وموقفها منها تاريخ معروف . فقد كانوا يجرون وراء مصالحهم حيثما وجدت . فكانوا يشتركون مع الصليبيين اذا وجدوا فى ذلك مصلحة لهم . ولكنهم سرعان مايتحولون

عنهم ويسارعون الى التفاهم مع المسلمين وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . بمعنى أن الحروب الصليبية كانت مجرد ورقة يلعبون بها . لقد كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى ، ولم يكن يمنيهم الباعث الدينى الا بالقدر الذى يحقق مصالحهم . فقد غلبت الصفة التجارية البحتة على مسلكهم وتصرفاتهم ، ويكفى أن نعرف ان شعارهم الذى عرفوا به وقتذاك هو « لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين » وسليقى هذا الموقف الكثير من الأضواء على طبيعة العلاقات بين البندقية والدولة البيزنطية وقتذاك .

واذا عدنا الى الصراع الدائر بين البندقية والنورمان خلال تلك الفترة من الزمن ، نجد ان تاريخ البندقية وقتذاك عبارة عن شرح لموقفها من القوى النورمانية الصقلية ، الذى أعاد الى الذكرى موضوع الاستيلاء على الشاطىء الأدرياتى . وقد راينا ان موقف البندقية من الحروب الصليبية وحملاتها المتتابعة على مصر والشام . موقفا تطلب من زعمائها كثيرا من الحذر . ذلك أنه اذا مالت البندقية الى الصليبيين من بنى جنسها بحكم أنها دولة مسيحية مثلهم ، كان معنى ذلك انها تفقد تجارتها النامية مع البلاد الاسلامية فى مصر والشرق الأدنى ، كما انها تجلب على نفسها عداوة بيزنطة واباطرتها . ثم أن تكوينها السياسى وقوتها البحرية لم تكن قد بلغت درجة الكمال بعد . اذ كان النورمان من ناحية الشاطىء الأدرياتى ، والمجريون من ناحية دالماشيا والشواطىء البلقانية أصحاب الموانى المتحكمة فى الشاطىء الأدرياتى . وكان لا بد للبندقية أن تصبح صاحبة السيادة فى تلك الثغور لتكون السيطرة على الطريق الذى تتوقف عليه تجارتها . واذا كان على البندقية أن توجه اهتمامها الى النورمان والمجريين قبل ان تفكر فى الصليبيين وغيرهم .

وعملا بتلك السياسة التى كانت تمليها مصالحها الخاصة ، رأت البندقية أن تقف موقف المحايد من الجانبين المسيحى والاسلامى اثناء الصراع الصليبى بأن تتاجر مع كل منهما ، وأن تساعد الصليبيين بمتاجرها بشرط الا يطلب

اليها الدخول فى حرب ضد المسلمين تقضى على امتيازاتها التجارية النامية فى بلادهم . وواضح ان هذه السياسة كانت ذات شقين متناقضين ، ولكنها على أية حال تتفق مع مصالحها الخاصة التى كانت بالنسبه لها فوق أى اعتبار . غير ان الدويلات الأخرى بايطاليا مثل جنوه وبيزا كانت قد شاركت الصليبيين فعلا منذ البداية فى عدائهم نحو المسلمين . فخشيت البندقية ان يؤدى ذلك الى شل الحركة التجارية فى كل تلك البلاد ، وان تحرم البقية مما قد يفتحه الصليبيون من بلاد المسلمين . لذا تركت البندقية سياسة الحياد بعد أن وضح لها ان الفرنج سيفتحون بلادا وأسواقا ، خاصة وأن الحملة الصليبية الأولى قد حققت أغراضها بالاستيلاء على بيت المقدس ، وتكوين الإمارات الصليبية فى الشام . فذهب بعض البنادقة على مراكب بندقية بقصد الاشتراك فى هذه الحروب . وكان هدفهم من وقوفهم بجانب الصليبيين تجاريا بحتا . وقد ابحرت الحملة سنة ١٠٩٦ م ، وانزلت بعض قواتها فى رودس ، وكشفت النقاب عن موقفها بمحاربة جالية الجنوبية هناك . بمعنى أن البندقية دخلت الحروب الصليبية بهدف احتلال المكان التجارى الأول شرقى البحر المتوسط ، والقضاء على ماقد يكون هناك من المنافسات التجارية من جانب الدويلات الايطالية التى كانت اهدافها متشابهة .

على أية حال ، وصلت حملة البندقية الى شواطىء الشام سنة ١١٠٠م، وشاركت فعلا فى حصار حيفا . فلما سقطت هذه المدينة فى أيدى الفرنج فى نفس العام ، وسارع قواد البنادقة بالمطالبة بحى لهم فى حيفا ليكون خاصا بمتاجرهم . وبالفعل اخذت البندقية حيا خاصا بها بالمدينة .

وهكذا بدات الحلقة الأولى من المحطات التجارية التى أسستها البندقية لنفسها فى شواطىء البحر المتوسط . غير ان الدولة البيزنطية لم يكن باستطاعتها ترك لبندقية تكبر وتنمو وتعمل على أساس تلك السياسة التجارية البحتة ، مع الاعتماد على صداقة الصليبيين ومودتهم كلما دعت الظروف الى ذلك . فأخذ الامبراطور حنا كومنين (١١١٨ — ١١٤٣ م)

يضيق على مصالح البنادقة فى القسطنطينية سنة ١١٢٢م ، والغى امتيازاتهم التجارية التى كانوا يتمتعون بها . ومع ان البندقية قد ردت على هذا الموقف بأن اغارت على الجزر البيزنطية الهامة مثل جزيرة رودس ، فان حنا كومنين اضطر الى مصالحة البندقية ليضمن وقوفها الى جانبه ضد النورمان الذين كانوا عدوا مشتركا لكليهما . وهنا أيضا أثرت حركة النورمـــان فى تـــاريخ البندقية تاثيرا عميقا . ذلك أن الحوادث التى جمعت بين البندقية وبيزنطة ضد النورمان ، وجعلت الدولة البيزنطية تعتمد على البندقية فى احتياجاتهـــا العسكرية ، قد ابرزت البندقية كدولة بحرية كبرى فى البحر المتوسط . ولقد انتهى الخطر النورمانى بصفه مؤقته بصلح عقد فى سنة ١١٥٤ م .

غير انه كما جعلت حركات النورمان وسياستهم البندقية وبيزنطة فى جانب واحد يد النورمان واطماعهم ، فان انتهاء الخطر النورمانى جعـــل البندقية تواجه موقف الدولة البيزنطية منها دائما . وكان هذا امرا طبيعيا متوقعا . فمهما كانت الأحوال ، كانت البندقية هى الدولة التجارية الكبرى، وتجارها هم المنافسين الاقوياء لمصالح الدولة البيزنطية وغيرها فى شرقـــى البحر المتوسط . ولكن طرا وقتذاك عنصر جديد وخطير على الموقف حيثما اتضحت أحلام الامبراطور الاول كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠ م) ومطامعـــه فى الامبراطورية الواحدة . وكان ذلك مضادا لمصالح البندقية ، ذلـــك أن الامبراطور البيزنطى كان يريد أن يمتد نفوذه الى ايطاليا فى الشمال والجنوب، كخطوة اساسية للتمهيد لفكرة الامبراطورية الواحدة . ولم تنته الأخطـــار بانتهاء حكم مانويل كومنين ، لأن الامبراطورية الغربية والامبراطور فريدريك بارباروسا كان صاحب السلطة الكبرى فى ايطاليا . ومن المعروف أن الصراع بين الامبراطورية الغربية والبابوية فى روما قد تخلله النضال بين الامبراطورية الغربية والمدن الايطالية ومنها البندقية . ولذلك كان طبيعيا أن تنضم البندقية الى البابوية فى نضالها ضد الامبراطوريـــة ، كما انضمت الـــى العصبـــة اللومباردية سنة ١١٦٧ م .

ثم وقع ما وقع أحداث التى أدت الى مذبحة اللاتين بالقسطنطينية على

يد الامبراطور اندرونيق الأول كومنين (١١٨٣ — ١١٨٥ م) . وتلا ذلك سلسلة مصادرات لأملاك اللاتين الغربيين بالقسطنطينية حتى أن من تبقى منهم استغاثوا بالبندقية والملك وليم الأول ملك صقلية . وقامت البندقية للانتقام ، وكانت حركتها سببا فى انتهاء عهد اندرونيق كومنين وقيام اسحق الثانى ايجيلوس (١١٨٥ — ١١٩٥ م) مؤسس أسرة انجيلوس ، بفضل ماكان عنه من الميل الى البندقية. وقد اعاد اسحق للبنادقة امتيازاتهم بالعاصمة البيزنطية وغيرها من المدن البيزنطية ، كما وعد بتعويض اللاتين جميعا الذين أضيروا تعويضاً ماليا كافيا .

ثم جاءت الحملة الصليبية الثالثة التى قامت بهدف انقاذ كيان الوجود الصليبى المتداعى فى الأراضى المقدسة بعد الضربات القوية المتلاحقة التى وجهها صلاح الدين الأيوبى اليها ، والتى يتوجها انتصاره الساحق فى حطين سنة ١١٨٧ م ، وطردهم من بيت المقدس فى اكتوبر من نفس العام . وقد شاركت البندقية فى تلك الحملة مثلما شاركت فى الحملتين السابقتين طالما فى ذلك مصلحة محققة لها ، وذلك من حيث تأجير مراكبها لنقل الجند الصليبيين الى الشام . وقد حصلت البندقية فى مقابل ما قامت به من مساعدات على امتيازات تجارية فى البلاد الصليبية المتبقية للاتين فى فلسطين ، على حين أن تلك الحملة الصليبية الثالثة لم تؤد الى تحسين مركز اللاتين فى الأراضى المقدسة ، بل على العكس من ذلك فشلت فى تحقيق أهدافها ، وأوضحت أن مصير اللاتين ومقامهم الى زوال . فقد هدم صلاح الدين دولة الصليبيين بعد موقعة حطين واستعادة البيت المقدس حتى لم يبق منها سوى بضعة ثغور ضعيفة متهالكة ، ممتدة على الساحل الشامى . ومع ذلك ، فقد كانت فائدة البندقية من الحروب الصليبية مستمرة ومتزايدة بتزايد الاسواق التى فتحتها، والمكاسب التى حققتها ، والامتيازات التى حصلت عليها بمختلف البلاد الصليبية ، مما لم تصل اليه يد صلاح الدين .

وفى ظل هذه الظروف تولى دوقية البندقية سنة ١١٩٣ الدوق دندولو ،

وكانت اوروبا وقتئذ تستعد لحملة جديدة هى المعروفة بالحملة الصليبيــة الرابعة . وأخذت تتجمع فى البندقية فى انتظار التسهيلات لعبور مناطــق معينة [illegible] كان الكسيس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـــ ١٢٠٣ م) قد خلع اخاه [illegible] كما سجن ابنه الكسيس الرابع . وقد تمكن ذلك الابن من الهرب وطلب المساعدة من [illegible] ضد عمه المغتصب . فاختلطت الحملة الصليبية الرابعة التى كان هدفها الاصلى مصر والأراضى المقدسـة ، كما تشابكت أغراضها بعد الاستجابة لاستغاثة ابن اسحق انجيلوس . يضاف الى ذلك ثراء الدولـــة البيزنطية الذى كان الغرب على علم به ، والذى تحدث عنه احد مؤرخـــى الحملة الصليبية الأولى من اللاتين ، وهو فوشيه دى شارتر . هذا فضلا عن عدائها التقليدى للبندقية .

كل هذه الحوادث والظروف اجتمعت ، وتمخض عن ذلك تحويل فكرة الحملة الصليبية الرابعة التى كان هدفها مصر معقل القوى الاسلامية ومركز امدادها بالمال والرجال والمؤن والسلاح ، الى حملة على الدولة البيزنطية . واذا كان الصدام بين الكسيس كومنين والصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر ، قد كشفت بما لايدع مجالا للشك عن أطماع اللاتين فى بيزنطة ، وحقدهم عليها ، وكراهيتهم لها ، واطماعهم فى نفائسـها وكنوزها ، فقد أكدت الحملة الصليبية الرابعة بعد ذلك التاريخ بحوالى قرن من الزمان تلك الأطماع وذلك الحقد والكراهية . واثبتت ان آنا كومنينا ابنة الكسيس كومنين كانت على حق عندما أكدت فى كتابها « الالكسياد » أن أولئك القوم كانوا يهدفون الى خلع أبيها عن العرش والاستيلاء على القسطنطينية .

الموضوع الرابع عشر

الدولة البيزنطية والحملة الصليبية الرابعة

(١٢٠٤ – ١٢٦١)

لقد وقفت الدولة البيزنطية من الحروب الصليبية موقفا جعلها في نظر دول غرب أوروبا دولة لاتريد للصليبيين الغربيين نصرا أو تحقيقا لأطماعهم. ويتضح هذا الموقف منذ بداية الحركة الصليبية في أخريات القرن الحادى عشر، عندما اصطدم الامبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨ م) بزعماء الحملة الصليبية الأولى الذين مروا بعاصمة دولته، وهم في طريقهم الى الاراضى المقدسة . فقد اثبتت الوقائع والأحداث ان العلاقات بين الطرفين كانت تقوم منذ البداية على الريبة والشك وعدم الثقة وسوء التفاهم . وكانت أوجه الخلاف العديدة بين اللاتين والبيزنطيين في النواحى اللغوية والمذهبية والحضارية والجنسية والبيئية والجغرافية سببا في ازدياد سوء التفاهم، حتى ان كلا منهما كان ينظر الى الآخر باعتباره مهرطقا لانه على غير مذهبه .

وللحملة الصليبية الأولى اهمية خاصة في تاريخ الدولة البيزنطية، لانها أول مرة يتقابل فيها اللاتين الغربيين بالروم الاغريق في كثرة ضافية العدد . وقد استمر بعد ذلك الاتصال والاحتكاك بينهما عبر القرون التالية التى ازدحمت بأوخم العواقب على العلاقات بين مسيحى الشرق والغرب أو بين الارثوذكس والكاثوليك . ولم تكن تلك العلاقات حتى قبل أن تقوم الحروب الصليبية قائمة على الود أو حسن التفاهم . ولهذا كان فريق منهما ينظر الى الآخر على انه عدوه اللدود . فكان اللاتين الغربيون يحقدون على الاغريق المنشقين ، ويشكون فيهم وفى نواياهم ، ويحسدونهم على ثروتهم وحضارتهم ، بينما احتقر الاغريق الهراطقة اللاتين الأفظاظ . ولهذا لم يفهم كلاهما الآخر مهما تاما صحيحا، وكان لهذا أثره الفعال في العلاقات بين الصليبين والدولة البيزنطية ليس اثناء الحملة الصليبية الرابعة فحسب ، بل منذ ان تم الاحتكاك بينهما في أواخر القرن الحادى عشر . وتمدنا الأميرة الاغريقية انا كومنينا ابنة الامبراطور الكسيس كومنين في كتابها « الالكسياد » بمعلومات قيمة في هذا الشأن . كما يزودنا المؤرخين الغربيين المحدثين وهو فرديناند شالندون بمادة طيبة عن طبيعة العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين في كتابه عن عهد الكسيس كومنين .

على اية حال ، اضطر الامبراطور الكسيس عندما تجلت له اطمـــاع الصليبيين فى دولته وعاصمته ، الى اتخاذ كافة السبل والوسائل لوقـــف الصليبيين عند حدهم ، وحفظ القسطنطينية من عبثهم . واتسعت شقة العداء والبغضاء بين الطرفين بعد أن استولى بوهيمند النورماندى ابن عدوه اللدود روبرت جويسكار على مدينة انطاكية اثناء الحملة الصليبية الأولى وتأسيس امارة لاتينية بها ، رافضا اعادتها الى بيزنطة وفقا للاتفاقية التى تم توقيعها بين الكسيس والصليبيين . واستمر الصراع قويا عنيفا بين اللاتين والبيزنطيين فترة غير قصيرة من الزمن فى عهود خلفاء الكسيس كومنين . وقد ترك هذا اسوأ الاثر على العلاقات بين الطرفين التى كان يشوبها منذ البداية الشك والكراهية وعدم الثقة .

واذا نظرنا الى الامور نظرة اعمق من المألوف واكثر دقة وشمولا ، نجد أن هذا الموقف قد املته مصالح الدولة البيزنطية التى هددتها أطماع اللاتين بشر كبير .وكان لهذه المصالح اهميتها وقيمتها. ولذلك ليس هناك مايدعو الى الأخذ برأى بعض المؤرخين الغربيين الذين يتهمون بيزنطة بعدم الاخلاص بسبب موقفها من اللاتين أثناء الحركة الصليبية . لقد كان للصليبيين انفسهم اطماع مادية ليس فى الشرق الأدنى الاسلامى فحسب،وانما فى العالم البيزنطى ايضا . وعلى هذا فان احتكاك البيزنطيين باللاتين ، وتعارض مصالحهـــا جعل الدولة البيزنطية تبدو فى نظر الغربيين وكأنها تقف ضدهم وضد أعمالهم . ولذلك بقى عنصر الكراهية للدولة البيزنطية فى الغرب وايضا بين الصليبيين الذين أسسوا لهم امارات فى الشرق . ومال كثير من ملوك اوروبا واباطرتها الى ضرورة معاقبة الدولة البيزنطية على موقفها هذا . ومع الزمن وتوالى الأحداث اختمرت الفكرة فى اذهان الغربيين الى ان نضجت تماما فى اواخر القرن الثانى عشر ، أى بعد مضى اكثر من قرن على بداية الحركة الصليبية . ففى اواخر سنة ١١٩٩ م كانت حركات فى الغرب تدعو الى حملة صليبيـــة جديدة . وفى تلك السنة عزم جماعة من نبلاء اقليمى شمبانيا وبيكارديا فى

فرنسا على القيام بحملة صليبية الى الشرق ، كانت هدنة بين الصليبيين وبين الملك العادل أخي صلاح الدين الايوبى ، مدينة بيت المقدس نفسها فى يد المسلمين بعد ان استردها صلاح الدين ، بل كانت فلسطين كلها فى أيديهم باستثناء صور وبعض المدن الباقية للافرنج على الساحل الشامى .

اذن ، كانت دولة الصليبيين الفرنج فى الأراضى المقدسة فى طريقها الى الانهيار والزوال ، بعد أن تكتل الشرق الأدنى الاسلامى فى يد صلاح الدين ، وبعد أن أصبحت القاهرة هى معقل القوى الاسلاميه والقلب النابض بالحركة والحياة للعالم الاسلامى . ومنها كانت توجه الضربات القويه المؤثرة الى بقية معاقل اللاتين فى الأراضى المقدسة بهدف طردهم منها . لذا كانت الصيحات المذعورة والدعايات الهستيرية فى اوروبا على اشدها لقيام حمله صليبية جديدة بقصد ارجاع الحالة الى ماكانت عليها قبل جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، وقبل فتوحاته المظفرة . وقامت الدعوة لحملة صليبية سنة ١١٩٩ ، ولقيت ترحيبا من البابا الرومانى انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦م) الذى بادر بارسال الدعاة الى كل مكان فى الغرب لحض الناس على الاشتراك فيها . غير أن الامبراطورية الغربية والدول الأوروبية الاخرى لم تستطع وقتذاك تلبية تلك الدعوة بسبب الظروف التى ألمت بها والتى لم تسمح لها بالمساهمة الفعلية فى حرب خارج اراضيها .

حقيقة انه حدث ان لبى جميع ملوك اوروبا الدعوة لحملة صليبية سابقة ، هى المعروفة بالحملة الثالثة ، بعد فتوح صلاح الدين الكبرى فى حطين والبيت المقدس . واجتمع اولئك الملوك فى الشام سنة ١١٩٢ ، ولكن هذه الحملة فشلت فى تحقيق هدفها الذى قامت من أجله . والمهم هنا انه حدثت فى الفترة ما بين رجوع تلك الحملة الثالثة بغير نتيجة وبين سنة ١١٩٦ م حوادث شتى شغلت اوروبا عن فكرة الحروب الصليبية . فضلا عن أن الروح الصليبية فى الغرب بدأت تفتر وتتقلص بعد ان اتضحت أبعاد الحركة الصليبية

ومراميها ، واخذ الناس ينصرفون عنها وينفضون من حولهـا ، ويتشككون فى جدواها وقيمتها . فاذا نظرنا الى الامبراطورية الغربية مثلا نجد انها كانت فى شغل شاغل عن الفكرة الصليبية بالحرب التى ثارت بين اوتو الرابـع وميليب دوق سوابيا ممثل بيت الهوهنشتاوفن . كما كان فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وقد سبق له الاشتراك فى الحملة الثالثة ، فى نضال مع حنا ملك انجلترا ، الأمر الذى حال بين كل من المانيا وفرنسا وانجلترا وبين المساهمة الفعلية فى حرب صليبية جديدة . ولذلك بقيت زعامة تلك الحملة المزمـع قيامها فى يد البابوية والاقطاعيين من اهل الغرب .

وقد تطلبت الحملة عددا من السفن لنقل الجند والعتاد الى الشـرق كالمعتاد . وليس فى ذكر ذلك اهمية خاصة ، فقد تم استئجار عدد من السفن ودفع الثمن لأصحابها من بنادقة وجنوية وغيرهما . ولكن المهم فى الموضوع أن زعماء تلك الحملة أرسلوا فى فبراير سنة ١٢٠١ م الى البندقية سفارة للمفاوضة فى امر هذه السفن . وكان من ضمنها رجل خلدت الحوادث أخباره، كما سجل هو أحداث هذه الحملة ، ذلك هو فيلهاردوان Villehardouin الذى اشترك فى هذه الحملة وسجل وقائعها فى كتاب لايزال باقيا الى اليوم . وقد قبلت البندقية أن تؤجر السفن ، وأن تقدم المؤنة اللازمة للحملة كالمعتاد مقابل مبلغ معين من المال . وزادت بأن أعلنت عن رغبتها فى أن تشـارك الصليبيين فى تلك الحملة مشاركة فعلية . ولم يكن فى هذا جديد . فقد شارك البنادقة فى حملات صليبية وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم كما اسلفنا .

وكيفما كان الأمر ، فانه يتضح من المفاوضات التى قامت بين رجال الحملة والبندقية مدى اهتمام البندقية بالحروب الصليبية . اذ كان مـن الشروط التى تم الاتفاق عليها أن يكون للبندقية نصف ما ستفتحه تلك الحملة من البلاد الشامية . واتفقت الآراء بين زعماء تلك الحملة أن تكون وجهتها الشواطىء المصرية حيث توجد الدولة الأيوبية القوية ، اعتقادا منهم انه بالقضاء على مصر زعيمة العالم الاسلامى يمكن تحقيق باقى الأطمـاع فى

الاراضى المقدسة . وقد عارضت البندقية فى هذا الاتجاه بسبب مصالحها التجارية الواسعة التى كانت مصر اهم أسواقها . وهو نفس الموقف الذى اتخذته البندقية فى حملة صليبية تالية هى الحملة السابعة على مصر عندما رفضت الاشتراك فيها أو تزويدها بالسفن . وكان للبندقية رأى مسموع بحكم مركزها وباعتبارها صاحبة السفن التى ستعتمد عليها الحملة ، فضلا عن مشاركتها الرسمية فيها . واخذ دوج البندقية فى استغلال ما بدا من عجز الصليبيين عن دفع قيمة التأجير ، بأن يطلب منهم الموافقة على خدمة مصالح البندقية وهم فى طريقهم الى الشرق ، مقابل التنازل عما عليهم من المال . واقترح داندولو أن تستولى الحملة اثناء الطريق على مدينة زارا Zara من المجريين وفعلا قامت الحملة على هذا الاساس ، وتم الاستيلاء على ثغر زارا فى نوفمبر سنة ١٢٠٢ م . غير أن البندقية كانت تريد تحقيق اغراض اخرى لتجعل سيادتها البحرية حقيقة واقعة ليس بجانبها قوة أخرى منافسة . ورأت أنها تستطيع أن تصل الى تلك الدرجة من القوة والسيادة اذا استولت على القسطنطينية ، واذا سوت حسابها نهائيا مع الدولة البيزنطية ، وهى المنافس الأكبر والخطيرة لتجارة البندقية . فبعد أن حولت الحملة الصليبية تحويلا أوليا باستخدامها للاستيلاء على ثغر زارا ، عملت على تحويلها بعد ذلك عن غرضها الرئيسى وعن الشواطىء المصرية الى مشروع هدم الدولة البيزنطية نفسها والاستيلاء على القسطنطينية ، وهو الأمل الذى لاشك قد راود زعماء الحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان . وعلى هذا لانغالى اذا قلنا ان هذا الموقف الذى وقفه زعماء الحملة الرابعة هو تجسيد حى لموقف الصليبيين فى الحملة الأولى من بيزنطة عندما عاثوا فيها فسادا اثناء مرورهم بها وهم فى طريقهم الى الأراضى المقدسة ، الامر الذى ترتب عليه قيام الاحتكاك بين الطرفين . والخلاصة أن هذه الحملة الرابعة تعبر عن ذروة أطماع الصليبيين فى الدولة البيزنطية .

ولم يكن الصليبيون بحاجة الى من يقنعهم بضرورة هذا المشروع الذى تقدمت به البندقية ، فقد كانت بيزنطة فى نظر الاوروبيين ، وفى نظر قادة هذه الحملة عدوا قديما للصليبيين كما اسلفنا . بل ان هناك من كبار أهل

الغرب الاوروبى من دعوا الى وجوب غزو الدولة البيزنطية والقضاء عليها قبل ذلك التاريخ مثل الامبراطور فردريك بارباروسا نفسه . وكانت الفرصة مواتية وسانحة وقتذاك . اذ كان الكسيس ابن الامبراطور السجين المخلوع يطلب النجدة ضد عمه المغتصب للعرش . ويبدو أن فيليب دوق سوابيا قد ارسل الى البندقية والى زعيم الحملة الصليبية المجهزة باسمه مونتفرات يوصيه بتلك الحملة لنجدة ابن الامبراطور المخلوع . وكانت الامبراطورية الألمانية تريد أن تسوى حسابها هى الاخرى مع الدولة البيزنطبة التى وقفت ضد مشاريعها التوسعية فى ايطاليا منذ أيام الامبراطور مانويل كومنين .

والذى يهم هنا أن هذه التيارات كلها جاءت موافقة لأهواء البندقية ورغباتها ، وجعلت كلمتها هى الأولى فى أوساط الصليبيين . فاستغلت كل هذه الظروف لتحقيق أغراضها . وقد توجه ابن الامبراطور المخلوع الى البندقية ، ووعد الصليبيين وعودا كثيرة ، ومنها دفع ما قد يتبقى على الصليبيين للبندقية . كما وعدهم بتزويدهم بما يحتاجون اليه بمجرد نجاحهم فى اقامة ابيه فى الامبراطورية البيزنطية . هذا ، فضلا عن مشاركة الدولة البيزنطية فيما قد يعتزم القيام به من غزو للشواطىء المصرية أو الشواطىء الشاميه . وتم الاتفاق نهائيا ، وظهر الأسطول البندقى وعليه جنود الحملة الصليبيه الرابعة قبالة القسطنطينية فى يونيو من سنة ١٢٠٣ م . غير أن الحملة لم تجد من القسطنطينية ترحيبا ، بل ان أهالى العاصمة البيزنطية اعتبروا الحملة وأساطيلها قوة أجنبية معادية أعادت الى اذهانهم الذكرى الأليمة المتعلقة بأحداث الحملة الصليبية الاولى ، والتى أحدثت جرحا لم يندمل بعد .

هكذا انقلب أهل القسطنطينية ضد الصليبيين . وتطورت الحال بين بيزنطة واللاتين ، وانتهت الحوادث بفرار الامبراطور الكسيس الثالث واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية ، واعادة اسحق انجيلوس واقامته امبراطورا فى اغسطس سنة ١٢٠٣ م . غير أن الاستيلاء على القسطنطينية لم يكن سوى خطوة أولى فى سبيل تحقيق أطماع البندقية التى لم تتخل عنها لحظة

واحدة . وكان الامبراطور الجديد قد وعد زعماء الحملة بعدة وعود . ولقد كان الشروع فى الوفاء بتلك الوعود طريقا ليظهرهم بمظهـــر الخونـــة فى القسطنطينية . ورأى البنادقة الفرصة مواتية للمطالبة بأقصى مايمكن من المطالب والامتيازات . وانفجرت ثورة فى العاصمة البيزنطية فى يناير سنة ١٢٠٤ م ، ذهب أثنائها الامبراطور وقرر الصليبيـــون الاستيـــلاء علـــى القسطنطينية ، وقامت الحرب بين الصليبيين والبيزنطيين ، وهربت بيوت القسطنطينية الكبرى تاركة العاصمة فريسة سهلة للصليبيين . وتم احتلال المدينة عسكريا ، وأبيحت للجند الفرنج ، فأعملوا فيها النهب والسلـــب والتخريب ، ولم تسلم كنيسة ايا صوفيا نفسها من عبثهم .

ولقد تكشف موقف الدول الأوروبية من بيزنطة تماما ، مما احدثه فيها زعماء تلك الحملة الرابعة . فقد قسمت ممتلكات تلك الدولة بين هؤلاء الزعماء فى يناير سنة ١٢٠٤ م ، وأقاموا احد الزعماء امبراطورا فيما بينهم ، وهو بلدوين بطريارك بيت المقدس اللاتينى ، تماما مثلما فعل زعماء الحملة الصليبية الأولى فى فلسطين عندما اسسوا امارات صليبية لهم هناك على كل منهـــا احد اولئك الزعماء ، واقاموا لهم ملكا فى البيت المقدس . هذا ، وقد جعل بلدوين امبراطوريته تشمل المناطق الواقعة على بحر مرمرة والجزر اليونانية . على انه لم يكن صاحب السلطة التامة على كل تلك الجهات ، بل كان له فقط حوالى خمسة اثمان هذه المناطق عندما قسمت تقسيما حسابيا ، وكان الباقى للبنادقة اصحاب المصلحة فى تحريك الحملة صوب القسطنطينية ، على أن يكون الحى الذى فيه كنيسة ايا صوفيا داخلا فى نصيب البنادقة . وهذا يعنى أن أمر الكنيسة البيزنطية كان فى يد البنادقة والواقع أن نصيبهم كان كبيرا فى أهميته ، اذ أخذوا ثلاثة اثمان القسطنطينية ، وكذلك كثيرا من المدن والجزر ذات الأهمية البحرية والتجارية ، وتدخل فيها مدينة ادرنة وجزيرة كريت ، حتى أن نصيب البندقية بموجب ذلك التقسيم كـــان اغنى مـــن نصيـــب الامبراطورية نفسها .

وبموجب هذا التقسيم الذى أحدثه زعماء الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م ، أقيمت مملكة فى مقدونية وتراقية على أن يعترف ملكها بتبعية اقطاعية للامبراطور . وبمقتضى هذا التقسيم ايضا وزع ماتبقى من الامبراطورية توزيعا اقطاعيا على بقية الزعماء ، وذلك وفقا للنظام الاقطاعى الذى كان قد بلغ ذروة نضجه وكماله فى الغرب الأوروبى ، والذى يقوم اساسا على العلاقة بين السيد والمسود التى قوامها الأرض وواجبات التبعية الاقطاعية التى يؤديها التابع لسيده المتبوع .

وهكذا تحولت الدولة البيزنطية الى رقعة من الشطرنج فيها نظام اقطاعى على غرار ما هو معروف فى غرب اوروبا . غير أن امبراطورية لاتينية بهذا التوزيع لم تكن لتستطيع البقاء طويلا لاسباب عديدة متعددة . منها أن حكامها اللاتين الغالبين كانوا أعداء الداء لمن فيها من البيزنطيين المغلوبين وان نسينا فلن ينسى أطماع روبرت جويسكار فى أملاك الدولة البيزنطية فى اخريات القرن الحادى عشر ، وكيف أن الامبراطور الكسيس الأول كومنين استهل حكمه سنة ١٠٨١ م بالصراع ضده الى أن تمكن من ابعاد خطره عن القسطنطينية بعد حروب دامت أكثر من اربع سنوات . ولاننسى أيضا العداء التقليدى الدفين بين البيزنطيين واللاتين اثناء الحرب الصليبية الأولى ، وكانت العلاقات بينهما تقوم على الريبة والشك وانعدام الثقة . وكان لهذا العداء اثاره الوخيمة فى الأحقاب التالية . وقد يلقى هذا بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين كل من اللاتين والبيزنطيين ، وموقف كل منهما حيال الآخر أثناء الحملة الصليبية الرابعة ، بل وقبل قيامها بأكثر من مائة عام . والحقيقة أن هذه الحملة الرابعة كانت انعكاسا طبيعيا لما حدث فى الحملة الأولى .

هذا عن السبب الأول ، أما السبب الثانى فهو أن الكينسة الغربية، وهى الكينسة الرومانية الكاثوليكية وعلى راسها البابوية التى ينتمى اليها اولئك الحكام اللاتين ، كان لايمكن أن تتحد مع الكينسة البيزنطية التى تدين بالمذهب الأرثوذكسى . ويفسر قيام الحملة الصليبية الرابعة ركنا رئيسيا من اركان سياسة البابوية بالنسبة للحركة الصليبية . اذ كانت البابوية

تستهدف الى جانب القضاء على العالم الاسلامى ، تحقيق وحدة الكنيسة المسيحية على مذهب روما الكاثوليكى ، بحيث تكون هناك كنيسة واحدة هى الكينسة الرومانية الكاثوليكية ، ويكون هناك بابا واحد هو بابا روما، ويكون لبابا روما حيث مقر كرسى القديس بطرس المكانة الأولى والكلمة العليا فى العالم المسيحى وتتذاك ارتكازا على نظرية السيادة البطرسية التى نادت بها بابوية روما .

أما السبب الثالث والأخير فهو أن التنظيم الاقطاعى الذى فرضه اللاتين على بيزنطة ،وسرى فى اقسام الامبراطورية المختلفة بعد سنة ١٢٠٤م، كان لا يمكن أن يمتزج بالمدنية البيزنطية . ذلك أن النظام الاجتماعى والاقتصادى فى بيزنطة كان يختلف تماما عما كان سائدا فى الغرب . فبينما كان الغرب فى الاقطاعية والمحلية التى أضعفت من سلطة الحكومة المركزية، كانت الدولة البيزنطية بيروقراطية الصبغة والطابع مركزية الحكم والادارة. وبينما كانت القرية بما فيها ومن عليها هى أساس الحياة فى الغرب ، كانت المدينة هى العمود الفقرى فى بيزنطة . وبينما كان نشاط الغرب نشاطا زراعيا واقتصاده اقتصاداً طبيعيا اقطاعيا ، كان نشاط الشرق تجاريا ويسود فيه الاقتصاد النقدى أو المالى . ومن هنا لم يكن من المتوقع أن تتأصل جذور النظام الاقطاعى فى أرض غير مهياة لتقبله . بل كان لابد أن تلفظه فى أول فرصة مواتية . وهذا ماحدث بالفعل . وتلك هى أهم العوامل والاسباب التى باعدت بين اللاتين الفاتحين وبين البيزنطيين المحكومين فى وقت كانت فيه شقة الخلاف واسعة بينهما ، مما هيأ الجو لطرد اللاتين من بيزنطة .

وعلى اية حال ، فان ماحدث بعد استيلاء اللاتين على بيزنطة لم يكن يعنى أن الدولة البيزنطية وبيوتها الامبراطورية قد اندثرت وزالت ، أو اختفت ، بل الذى حدث هو أنه تكونت فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ١٢٠٦ م امبراطورية بيزنطة فى المنفى على رأسها صهر الامبراطور المخلوع

الكسيس الثالث . وقامت تلك الامبراطورية بحركة قومية تستهدف طـرد الصليبيين من البلاد وارجاع الدولة البيزنطية الى القسطنطينية وممتلكاتها فى البلقان . واسم هذا الامبراطور فى نيقية هو تيودور الأول لاسكاريس (١٢٠٤ — ١٢٢٢ م) . وقد ورد اسمه فى الأصول والمصادر العربية تحت اسم « الاشكرى » . ويلاحظ ان الكتاب والمؤرخين العرب دأبوا فى كتبهم وتاليفهم على تسمية اباطرة الدولة البيزنطية باسم « الأشكرى » حتى انتهاء هذه الدولة على يد الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر . وقد عملت الامبراطورية المشردة على التمكين لنفسها فى آسيا الصغرى ، وعلى تكوين القوة الكافية التى تساعدها على استعادة القسطنطينية من قبضة اللاتين .

كذلك تكونت امبراطورية ثانية فى المنفى فى طرابيزون على البحر الاسود، وعلى راسها سيد من اسرة كومنين . وبقيت هذه الامبراطورية حتى القرن الخامس عشر . هذا ، فضلا عن امارات بيزنطية تكونت بجهات لم تصل اليها أيدى زعماء الحملة الصليبية الرابعة . وتكمن اهمية هذه الدول البيزنطية فى أن النجاح الفجائى السريع الذى احرزه الصليبيون الغربيون لم يكن من المنتظر أن يستمر . بل لم يكن من المنتظر أن تظل الدولة الصليبية على انقاض الامبراطورية البيزنطية القوية .

وكانت هذه الحكومات البيزنطية فى المنفى مصدر متاعب وقلاقل لدولة اللاتين فى القسطنطينية . وكانت هناك مصادر أخرى لمتاعب اللاتين فى بيزنطة ، منها الدولة البلغارية التى كانت قد أخذت تتكون فى بلغاريا فى أواخر القرن الثانى عشر . وكانت تلك الدولة عدوة للامبراطورية البيزنطية التى قضت على استقلال البلغار فى القرون الماضية . وقد رحبت هذه الدولة البلغارية بمقدم الحملة الرابعة والقضاء على عدوتها الدولة البيزنطية . وكان ملك البلغار فى ذلك الوقت يأمل أن يحالف القوى اللاتينية الجديدة ، وأن يسود بينه وبين اللاتين فى بيزنطة حسن الجوار ولكن زعماء الدولة الصليبية كانوا يقفون موقفا صلبا حيال الشعوب البلقانية وشعوب الشرق الادنى . بل

انهم طالبوا المملكة البلغارية باعادة بعض الجهات بحجة أنها كانت من ممتلكات الدولة البيزنطية البائدة . ولذا جعلت امبراطورية اللاتين من البلغار أعداء لها سببوا لها متاعب جمة . وكان هذا أيضا من بين الأسباب التى جعلت امبراطورية اللاتين لاتعمر سوى نصف قرن ، من سنة ١٢٠٤ م الى سنة ١٢٦١ م .

ومع ذلك ، فان هذه المدة التى عاشها دولة اللاتين ليست بالقصيرة ومما ساعد اللاتين على البقاء طوال المدة رغم الصعوبات والمشاكل والأخطار التى واجهتهم ،ماكان بين الامبراطوريتين البيزنطيتن فى المنفى بآسيا الصغرى من منافسة حادة على تزعم الحركة القومية ضد اللاتين الدخلاء. غير ان ذلك التنافس تضاءل مع الزمن . كما أن البلغار حالفوا امبراطور نيقية ضد اللاتين . ويرجع الفضل فى هذا التحالف الى ملك البلغار وقتها واسمه حنا آسين . والنتيجة أن امبراطورية اللاتين صارت محصورة بين امبراطورتين متحالفتين ضدها . وبدت دولة اللاتين على وشك الانهيار بسبب ضغط هاتين الامبراطوريتين عليها . وكان هذا الموقف يهدد مصالح البندقية التجارية التى حققتها الحملة الصليبية الرابعة. ولذا كان يهمها العمل بكل السبل على بقاء تلك الامبراطورية فى القسطنطينية ابقاء على مصالحها وحفاظا عليها . ولقد احست البندقية وغيرها من المدن ذات المصالح التجارية الى مايهدد اللاتين بسبب بقـــاء الدولة البيزنطية فى المنفى فى آسيا الصغرى . فأرسلت جيوشها واساطيلها لحماية القسطنطينية من اى خطر يتهددها . كما توجه امبراطور اللاتين فى القسطنطينية الى غرب اوروبا يستنهض اهل الغرب لاغاثته ضد خطر متوقع لكن الدول الغربية التى بدات تنصرف عن الفكرة الصليبية الى مصالحها الخاصة ومشاكلها الداخلية ، لم تستجب الى تلك الدعوة ، وانصرفت عن امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية . ويكفى أن نعرف انه أثناء اقامة لويس التاسع فى جزيرة قبرص فى أواسط القرن الثالث عشر حيث كان يعد العدة للهجوم على مصر فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، وفدت اليه هناك الامبراطورة مارى زوجة بلوين الثانى امبراطور القسطنطينيـــة اللاتينـــى تطلب العون منه ومن كبار الصليبيين لاقرار مركز زوجها المزعزع . ولكنها

لم تلق الا عطفا ووعوداً خلابة لم تلبث أن ذهبت أدراج الرياح بعد مغادرتها الجزيرة .

وتولى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية بعد تيودور لاسكاريس سنة ١٢٢٢ م الامبراطور دوكاس فاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤ م) . واليه يرجع الفضل الأكبر فى القضاء على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية . فهو الذى حالف البلغار ، وهو الذى اخرج اللاتين من آسيا الصغرى سنة ١٢٤١ م، وهو الذى استمال الامبراطور فريدريك الثانى اليه بزواجه من ابنته سنة ١٢٤٤ ، وكان ذلك الموقف توفيقا حالف الدولة البيزنطية التى كانت تنظر الى الدولة الغربية دائما بنظرة المغتصب للمقام الامبراطور والمنصب وقد رحب فريدريك بالتحالف مع البيزنطيين،ذلك أنه كان يرحب بالاتفاق مع أى قوة تعادى البابوية . وكانت البابوية وقتها فى صراع عنيف ضد الامبراطور فريدريك الثانى على المسائل الدنيوية . فضلا عن أن الامبراطور الألمانى كان كارها لبعض الجمهوريات الايطالية ومنها البندقية ذات المصالح الكبرى .فكانت هذه فرصة مواتية لأن يجد الامبراطور فريدريك الثانى فى الدولة البيزنطية فى نيقية ميدانا لمساعدته فى صراعه ضد خصومه ، وأن تجد الامبراطورية البيزنطية كذلك فى فريدريك مساعداً لها ضد اللاتين . أى أن المصالح المشتركة وحدت بين فريدريك والبيزنطيين فى نيقية الذين كانوا يستعدون لاسترداد ملكهم المغتصب . يضاف الى ذلك أن مجرد فكرة قيام امبراطورية ثالثة كان مسألة تجعل الامبراطور فريدريك يعمل بكل السبل على هدم تلك الامبراطورية .

والفاحص المدقق يرى أن نهاية الامبراطورية اللاتينية بدت وشيكة بعد سنة ١٢٤٤ م ، ولم يؤخر نهايتها سوى ماوقع بين الطامعين فى العرش البيزنطى بعد نهاية حكم فاتاتزيس سنة ١٢٥٤ م . على أن ذلك العامل الذى أبقى على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وجعلها تستطيع مواجهة المشاكل من كل ناحية قد انتهى باعتلاء ميخائيل الثامن باليولوجس عرش نيقية . اذ استطاع أن يعبر البحر الى ضواحى القسطنطينية سنة ١٢٦١م، وأن يمهد للاستيلاء عليها باثارة البنادقة والجنوية على بعضها ، وأن يعلن

تحالفه مع جنوه بعد أن وعدها بجميع الامتيازات التى تتمتع بها البندقية . وكان من الطبيعى أن ترحب جنوه بهذا العرض المغرى . والواقع ان التنافس التجارى بين جنوه والبندقية كان عاملا هاما فى توجيه كثير من حـوادث الشرق الأدنى خلال تلك الفترة من الزمن ، سواء بين الدول المسيحيـة ودولة المماليك فى مصر والشام .

وأخيرا ، هاجمت جيوش ميخائيل مدينة القسطنطينيـة ، وكانـت الامبراطورية اللاتينية المتداعية تتوقع هذا الحادث ولم تقاومه . وهـرب الامبراطور اللاتينى والبطريك وممثلى البندقية سنة ١٢٦١ م . وفى اغسطس من نفس العام دخل ميخائيل العاصمة البيزنطية ، وانتهت قصة امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية ، وعادت الامبراطورية البيزنطية الى عاصمتها .

غير أن ذلك لم يكن يعنى أن القوى اللاتينية قد زالت فجأة من كافـة أقاليم الدولة البيزيطية ، أو انها اقتلعت من جذورها تماما ، أو ان الدولـة البيزنطية قد عادت سيرتها الأولى قبل الحملة الصليبية الرابعة ، بل واقع الأمر ان معظم القوى اللاتينية التى حلت ببلاد الدولة البيزنطية قد ظلـت مصدر متاعب للبيت الباليولوجى ، وسببا رئيسيا لضعف الدولة البيزنطية رغم عودتها الى العاصمة بعد أكثر من نصف قرن فى المنفى . ويكفـى أن مؤرخا معروفا مثل نورمان بينز يرى فى مقدمة كتابه «الامبراطورية البيزنطية» أنه لم يبق للقسطنطينية من عظمتها الغابرة سوى ظلا باهتا وشبحا متهالكا، بعد تلك المؤثرات الجديدة التى تسربت من الغرب البيزنطى » . بل انه يرى أن الدولة البيزنطية بما تمثله من مثل وقيم ومفاهيم العصر الوسيط كانـت قد انتهت بالفعل سنة ١٢٣٤ م بسقوطها فى قبضة اللاتين ، ولذلك فهو لا يعرف بالدولة البيزنطية بعد ذلك التاريخ ، ويتوقف سرده لتاريخ هذه الدولة سنة ١٢٠٤ م .

وواقع الامر أن الدولة البيزنطية لم تفق مما سببته لها الحملة الصليبية

الرابعة من متاعب ومشاكل وصعاب ، كما لم تفق من كارثة تشريدها مــدة نصف قرن تقريبا ، سيما وان الدولة العثمانية كانت تنمو نموا مستمرا فى القرن الرابع عشر . ولم يكن باستطاعة الدولة البيزنطية التى عادت الــى القسطنطينية مقاومة الدولة العثمانية النامية . وتاريخ الدولة البيزنطية من أوائل القرن الرابع عشر حتى سقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م هو تاريخ لدولة تعالج مشكلتين كبيرتين : الأولى مشكلة القوى اللاتينية الباقية فيها ، والثانية مشكلة الدولة العثمانية التى دابت على التوسع على حساب ممتلكات البيزنطيين فى آسيا الصغرى وفى البلقان أيضا .

الموضـــــوع الخـــــامس عشـــــر

الدولة البيزنطيـــة

فى عهد أسرة باليولوجس

(١٢٦١ — ١٤٥٣)

يقول المؤرخ المعروف ستيفن رانسيمان انه كان خلاصا من رحمة الله عيدما شقت قوات ميخائيل باليولوجس فى عام ١٢٦١ طريقهـا الى مدينـة القسطنطينية ، وبذلك اسرع كل من الامبراطور اللاتينى بلدوين والبطريـق الغربى وأهل البندقية الى الميناء وأبحروا غربا . وبدات اسرة جديدة تحكم الدولة البيزنطية هى أسرة باليولوجس نسبة الى مؤسسها .

ولكن الدولة البيزنطية فى عهد هذه الأسرة هى الدولة التى خرجـت ضعيفة مبتورة الى حد ما ، بعد احداث الحملة الصليبية الرابعة ، واقامـة حكومتين بيزنطيتين فى المنفى فى جهتين من آسيا الصغرى حوالى نصف قرن تقريبا . ولقد استمرت بعض القوى البيزنطية التى كانت جزءا من الدولة قبل تلك الحوادث منفصلة عن جسم الامبراطورية ، وهذا مما جعلهاتبدو مبتورة مغايرة للدولة البيزنيطة قبل سنة ١٢٠٤ م . ثم ان حوداث ذلك النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم تنته باقتلاع جذور الامبراطورية اللاتينية تماما . ثم ان تلك الدولة الجديدة وجدت نفسها فىالوا قع فى مسرح جديد . فكانت مملكة الصقليتين قد تكونت وقويت شوكتها،واصبحت ذات وزن فىالتوازن الدولىالقائم فى البحر المتوسط وقتها . ذلك ان شارل كونت انجو اخا الملك الفرنسـى لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠ م) صاحب الحملات الصليبية المعروفة على مصر والشام وتونس ، ظل يعمل على اعادة الامبراطورية اللاتينية الى ابنه باعتباره وريث البيت الحاكم فى القسطنطينية . وكانت مملكة الصقليتين قد استغلت لويس التاسع بتونس وقيام اخيه شارل صاحب انجو ، للقيام بما حاول لويس التاسع تأديته من حملة صليبية . وقد افاد شارل صاحب انجو من تلك الحملة الصليبية الأخيرة التى قام بها لويس التاسع ضد تونس سنة ١٢٧٠ م ، والتى كانت قيادتها بين لويس واخيه شارل . ولكن لويس التاسع توفى فى تونس ، واستغل اخوه مركز قيادة الحملة الصليبية التى آلت اليه، لمعقد مع تونس معاهدة كانت الى حد كبير ركنا من اركان ازدياد النفوذ الصلقى فى بعض اجزاء البحر المتوسط .

ولتوضيح ذلك نقول ان الدولة التى اطلق عليها اسم الامبراطورية البيزنطية فى طرابيزون ، وكان سلطانها ممتدا على الأقاليم الساحلية للبحر الأسود فى آسيا الصغرى ، قد بقيت تحيا حياتها المستقلة وتناهض الدولة البيزنطية العائدة الى القسطنطينية حتى القرن الخامس عشر . ومن الدول المناوئة ايضا دولة ابيروس اليونانية ، وقد شملت البانيا ، ثم دوقية اثينا وهى من بقايا الدولة اللاتينية ، ثم امارة المورة . ثم كان للبندقية نفسها معظم جزر بحر الأرخبيل اليونانى ، وكذلك كان لجمهورية جنوة بعض تلك الجزر ، فضلا عن الثغور فى شواطىء انطاكية والبحر الأسود ، لاسيما ثغر كافا الذى كان اكبر أسواق تجارة الرقيق الأبيض فى العصور الوسطى والمقصود بذلك تجارة المماليك . وكان يأتى الى هذا الثغر مندوبين من قبل سلاطين المماليك بالقاهرة ، لشراء أعداد كبيرة ممن يعرض من ابناء تلك الأقاليم الجنوبية الشرقية من اوروبا لتكون منهم فئات الجيش المملوكى ، وفئات الجوارى فى البيوت السلطانية .

اما عن الامبراطورية البيزنطية التى عادت الى القسطنطينية ، فقد كان لها تلك الجهات التى نشأت فيها امبراطورية نيقية فى آسيا الصغرى مضافا اليها القسطنطينية نفسها وتراقية وجزء من مقدونية وبعض جزر الأرخبيل وبعبارة مبسطة ، كانت الامبراطورية البيزنطية العائدة امبراطورية مختزلة مقصوصة الجناح تحيط بها قوى جديدة وهى : أولا ، تلك الدولة الناشئة فى اوروبا وآسيا وهى الدولة العثمانية . ومع أن الدولة العثمانية كانت فى الواقع تبدو بذرة صغيرة فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولكن مما لاشك فيه أنها فى ضوء حوداث تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت القوة التى اثرت فى المصير النهائى للدولة البيزنطية . اما القوى التى كانت تميل للدولة البيزنطية فكانت تتضمن القوى اللاتينية والدولة البلغارية الناشئة التى أسسها حنا آسن . يضاف الى ذلك دولة الصرب التى أسسها ستيفان روشان فى القرن الرابع عشر .

والخلاصة أن الامبراطورية البيزنطية التى عادت سنـــة ١٢٦١ م ، وعاشت حتى سنة ١٤٥٣ م ، كانت تواجه مشـاكل تكاد تكون كلها جديدة عليها لم تعرفها بيزنطة قبل ١٢٠٤ م . وقد قضى ميخائيل الثامن الذى حكم من سنة ١٢٦١ م الى سنة ١٢٨٢ م ، عهده كله ليعيد للامبراطورية مركزها القديـم ومجدها الغابر . ومع ذلك ، لم يستطع ارجاع عقارب الساعة الى الوراء لسبب بسيط هو أن العوامل التى اجتمعت للامبراطورية أيام أسرة كومنين لم تعد هى نفس العوامل . بل ظهرت عوامل اخرى مغايرة ، وطرأت مؤثرات جديـــدة .

ولم تكن هذه هى كل مشاكل بيزنطة ، فان الباحث المدقق فى تـــاريخ الدولة البيزنطية خلال تلك الحقبة من الزمن يدرك بسهولة ان ميخائيل الثامن دخل امبراطورية مقفرة خربة مهدمة على حد قول المؤرخ ستيفن رانسيمان . لقد كان لعملية الاسترداد ثمنها ، ولو انها كانت تعتبر عملا مشرفـــا أعـــاد لبيزنطة هيبتها وكرامتها التى أهدرتها الحملة الصليبية الرابعة واطماعها . ومع ذلك ، سببت مشاكل أكثر من أن يتحملها الامبراطور ، وكبدت الدولـــة نفقات باهظة . لقد تحالف ميخائيل الثامن مع أهل جنوة ، وكان لابد من الوفاء بوعوده لهم بمنحهم امتيازات تجارية عديدة زعزعت مالية الدولة . يضاف الى ذلك أن العملة الامبراطورية أخذت فى الهبوط والتدهور ، وهى التى كانت قد احتفظت بقيمتها بفضل اقتصاد أباطرة نيقية فى المنفى وحسن تدبيرهم . ولما لم يستطع ميخائيل دفع رواتب الجند المرابطين على حراسة الحدود بمنحهم قطعا من الارض معفاة من الضرائب كهبات ، أقدم على حل هذه القوات فى آسيا الأمر الذى أضعف مركز الدفاع فى الامبراطورية .

كانت كل هذه المشاكل والصعاب بادية للعيان فى عهد أول أباطرة البيت الباليولوجى ، وكان ميخائيل على وعى واحساس بها . ومع ذلك بدا فى سنة ١٢٧٠ كأنما سينجح ميخائيل الثامن فى حلمه الذى كرس جهده من أجل تحقيقه، وهو أن يعيد للامبراطورية هيبتها المهدورة وممتلكاتها الضائعة . غير أن دول

الغرب الأوروبى والبابوية فى روما كانت مصلحتها فى بقاء تلك الدولة البيزنطية الجديدة ضعيفة متهالكة . ولذلك أخذت تعمل على افساد مشروعات ميخائيل الثامـــن .

وكانت أولى القوى التى يهمها أن تظل بيزنطة ضعيفة هى البندقيـــة والبابوية . فكل منهما يريد ارجاع امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وان تعارضت مصالحها ، ولكن الهدف كان واحدا . ثم كان هناك شارل انجـــو الوريث الشرعى للبيت الامبراطورى اللاتينى ، وله حقوق فى احدى الامارات اللاتينية الباقية . ثم انه بحكم الوضع الجغرافى لملكته الشاملة جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا حتى نابولى ، وبحكم انه الوريث الروحى للنورمان فى صقلية، فانه كان يريد أن يعلب دورا مشابها للنورمان حيال الامبراطورية البيزنطية . وهكذا استولى شارل صاحب انجو على جزيرة كورفو وثغر دورازو وعلى شواطىء ابيروس وأضاف الى القابه لقب ملك البانيا .

وهكذا بدا واضحا أن شارل كان يريد أن يلعب دورا محددا هو الحلول محل الدولة البيزنطية فى القسطنطينية . بمعنى انه لم يكن غرضه مجرد ارجاع الامبراطورية اللاتينية لمن لهم فيها حقوق ، بل كان يريد فى الواقع أن يوسع مملكة الصقليتين حتى تصبح شاملة لذلك الجزء من الجنوب الشرقى لأوروبا . ومن أجل ذلك حالف شارل صاحب انجو البلغار والصرب وأمراء الأفـــلاخ اليونانى تمهيدا لمشروعه الضخم . وأمام الأخطار المحدقة ، وجد ميخائيـــل الثامن نفسه مضطرا للجوء الى البندقية لمنع مشروعات شارل التى استهدف منوورائها محالفة بعض القوى الأوروبية . فاستغل الامبراطور البيزنطـــى البابوية أولا ، وكانت سياسة البابوية نحو مملكة الصلقيتين الا تصبح تلك المملكة قوة تهدد النفوذ البابوى . ولجأ ميخائيل الى الوسيلة التقليدية التى كانت بيزنطة تلجأ اليها عند الضرورة ، وهى التفاوض فى مسألـــة اتحـــاد الكينستين اللاتينية الكاثوليكية والبيزنطية الأرثوذكسية ، والاعتراف بالسيادة البابوية المطلقة . وعقد ميخائيل باليولوجس مع البابا الرومانى اتفاقا بهذا

المعنى ، وحصل على تأكيد من البابوية بانها لن تحرك او تشجع فكرة اعادة الامبراطورية اللاتينية الى القسطنطينية ، وان يترك البابا للامبراطور البيزنطى الحرية المطلقة للتصرف ضد الدول اللاتينية واليونانية فى آسيا الصغرى والبلقان .

غير أن مفاوضات اباطرة الدولة البيزنطية مع البابوية بشان هذا الاتحاد الكنسى ، كانت قد أصبحت مسالة طال عليها الزمن ، ولم تحقق اية نتيجة . واقتنع الناس فى بيزنطة بانها وسيلة لاجدوى منها ولاضرورة لها . وكانت النتيجة أن غضب رجال الكنيسة اليونانية لتلك المحاولة ، واعتقد ميخائيل انه يستطيع ان يجعل رجال الكنيسة البيزيطية يقبلون ماقبله ويوافقون على ما وافق عليه . فأثاروا بمعارضتهم بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عداء قديما مزمنا ، ولم تنفع الدبلوماسية التى تعب ميخائيل الثامن من أجلها حتى يفسد مشروعات شارل انجو الطموحة . بل ان شارل نجح فى تكوين حلف كان غرضه الأول هو اعادة امبراطورية اللاتين الى القسطنطينية تحقيقا لأطماعه . ودخلت البابوية والبندقية ودولة الصرب والبلغار والدول اليونانية المنفصلة عن الدولة البيزنطية فى هذا الحلف . ولكن ميخائيل باليولوجس استطاع هدم ذلك الحلف بانتصار حققه الجيش البيزنطى على جيش الحلف سنة ١٢٨١ م . كما لجأ الى الدبلوماسية التى امتاز بها اباطرة بيزنطة ، واعتبرت ركنا أساسيا من أركان سياستهم . اذ نجح فى اثارة مملكة الصقليتين ضد حكم شارل مما أدى الى وقوع ثورة الليالى الصقلية سنة ١٢٨٢ . وقد سميت كذلك لأنها قامت فى ليال معينة فى مدينة صقلية . ومع أن ميخائيل استطاع هدم مشروعات شارل انجو ، فانه اضطر أن يهمل الأخرى التى هددت كيان الدولة فى آسيا الصغرى ، وكان لها مضاعفاتها الخطيرة . اذ ترك الترك يعملون ما يحلو لهم فى أعمال الدولة هناك ، كما ترك العرب ينشئون مملكتهم الجديدة . واذا أضيفت الى ذلك فتنة الكنيسة اليونانية ، فان عهد باليولوجس قد أعقبه ضعف الدولة فى الداخل والخارج . وكان هذا أمرا طبيعيا متوقعا .

واذا كان عهد ميخائيل الثامن باليولوجس عهد حاولت الامبراطورية البيزنطية اثناءه استرداد مكانتها ومركزها والعودة الى سيرتها الأولى ، فان عدم توفيق هذا الامبراطور جعل الدولة تبدو ضعيفة تماما من أواخر سنة ١٢٨٢ م حتى سنة ١٤٥٣ م ، التى انتهت فيها الدولة البيزنطية ، وذلك على الرغم من كل مابذله من جهود يائسة مستميتة . كذلك لم ينفع مجهودات الأباطرة الذين تولوا بعده سنة ١٤٥٣ م ، للنهوض بالدولة لأن عوامل الضعف والانحلال مضافا اليها الصدمة التى لاقتها الدولة البيزنطية على يد الصليبيين ، كانت اكبر من أن يستطيع احد من الأباطرة الذين جاءوا بعد سنة ١٢٨٢ م أن يتغلبوا عليها .

ويمكن تقسيم عوامل الضعف التى ألمت بالدولة البيزنطية والتى أدت الى سقوطها آخر الأمر ، الى عوامل داخلية واخرى خارجية .

اما العوامل الداخلية فتتلخص فيما قام بين سلالة بيت باليولوجس نفسه من منافسات ومؤامرات وثورات أضرت بالبلاد ضررا بالغا . من ذلك عهد اندرونيق الثانى فى نظره . وفى سنة ١٣٤١ م استطاع مغتصب العرش بها حفيده وولى عهده اندرونيق الثالث ، الذى انتهت اليه الامبراطورية فيما بعد . اذ أراد ذلك الأمير الوصول الى الوظيفة الامبراطورية بسرعة ، وطال عهد اندرونيق الثانى فى نظره . وفى سنة ١٣٤١ م استطاع مغتصب العرش واسمه حنا أن يبعد البيت الباليولوجى عن الحكم لمدة ١٥ عاما ، وانقسمت الامبراطورية البيزنطية الى قسمين : حزب الامبراطور حنا السادس المغتصب للعرش ، وكان معظم افراده من البيوت الكبرى الغاضبة على البيت الباليولوجى . والثانى هو حزب الشعب ، وقد اتخذ لنفسه سياسة احترام مبدأ الحق الشرعى ، ووجوب المحافظة على البيت الباليولوجى حتى لاتنقسم الدولة شيعا وتنصرف عن شئون الامبراطورية .

لقد اثرت هذه الثورات على وحدة الامبراطورية وعجلت بنهايتها . فاذا

اضيف هذا الى عوامل الضعف الأخرى ، نجد انه ساد الامبراطورية فى فترة حكم اندرونيق الثانى تيار انهيار بطىء . لقد قضت ثورة « الليالى الصقلية » فى عام ١٢٨٢ م على سلطة شارل صاحب انجو ، وكان من السهل على اندرونيق قطع المفاوضات التى ترمى الى توحيد الكنيستين . ولكن ظهر خطر جديد يهدد أمن الدولة وسلامتها . اذ جرت غزوات المغول فى آسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر فى أذيالها قبائل تركية جديدة . واستقرت احدى هذه القبائل على حدود الامبراطورية ، وانتظمت خلال الحقب الأخيرة من ذلك القرن فى شكل قوة عسكرية قوية بفضل زعيمها المسمى عثمان ، وسميت بالعثمانية نسبة اليه . ولم تكن قوات اندرونيق العسكرية من القوة لمواجهة تلك القبائل ، خاصة بعد أن الغى ميخائيل الكتائب المرابطة على الحدود . وكان على اندرونيق الاعتماد على الجند المرتزقة . وفى لحظة حمق وتهور استأجر جماعة من المخاطرين تعرف بالفرقة الكتلانية الكبرى سنة ١٣٠٢ م ، للدفاع عن الحدود ضد تلك القبائل . ولكن افراد هذه الفرقة سرعان ماقلبوا لسادتهم ظهر المجن ، وحاصروا القسطنطينية مدة عامين (١٣٠٥ — ١٣٠٧ م) ، وسمحوا للاتراك بدخول اوروبا ، وكان ذلك سنة ١٣٠٨ م . ثم قاموا بعد ذلك بأعمال السلب والنهب فى مقدونية . وفى هذه الأثناء كانت امبراطورية آسن فى بلغاريا وامبراطورية اورسن فى الصرب مصدر خطر حقيقى مستمر بالنسبه لبيزنطة . وكان الازدهار الوحيد الذى شاهدته بيزنطة أثناء حكم اندرونيق الثانى الطويل فى الناحية الثقافية .

على أية حال ، كانت الفترة الواقعة فيما بين عامى ١٣٢١ و ١٣٢٨ م مليئة بالحرب التى قامت بين اندرونيق الثانى وبين حفيده ووريثه اندرونيق الثالث . ولم يعد السلام الى بيزنطة الا بعد موت الامبراطور الكهل . ولكنه مع ذلك سلاما مهلهلا غير مستقر .

والحقيقة ان بيزنطة لم تتمتع بفترة من الهدوء والسلام بقية حكم أسرة باليولوجس . فاستمرت نفس الأوضاع السيئة أثناء حكم اندرونيق الثالث

(١٣٢٨ — ١٣٤١ م) . فاستولى العثمانيون على بروسة سنة ١٣٢٦ م ، واخذوا نيقية عام ١٣٢٩ م ونيقوميديا عام ١٣٣٧ م . هذا ، بينما بلغت امبراطورية الصرب تحت حكم ستيفان دوشـــان (١٣٣١ — ١٣٣٥) ذروة قوتها ومجدها ، واخذت تهدد القسطنطينية . وبعد موت اندرونيق الثالث تولى العرش الطفل القاصر يوحنا الخامس ، وقد جر هذا الوضع البلاد الى حروب أهلية من أجل الوصاية على الطفل يوحنا الخامس . وكان هذا الصراع بين الأم اللاتينية الامبراطورة آن من آل سافوى وبين المغتصـــب يوحنـــا السادس كانتاكوزينوس . وفى سنة ١٣٤٧ م انتصر هذا الأخير ، ولكنه سقط عام ١٣٥٥ أمام قوة اندرونيق الرابع ابن يوحنا الخامس . وفى عام ١٣٧٩ م عاد يوحنا الخامس الى الحكم . ثم مالبث أن طرده حفيده يوحنا السابع فى عام ١٢٩٠ م ، ومات فى السنة التالية .

واخذت الأحوال تزداد سوءا واضطرابا ، والامبراطورية تزداد ضعفا وانهيارا . وكان باديا للعيان أن مصدر الخراب والدمار هم الأتراك الذى قدر على القسطنطينية أن يكون سقوطها النهائى والأخير على أيديهم . واخذت المدن البيزنطية تسقط تباعا فى قبضتهم ، حتى لقد اضطر أحد اباطرة البيت الباليولوجى،وهو يوحنا الخامس للتجول فى ايطاليا مستجديا العون والمساعدة ضد الترك ، ولكنه اخفق فى مهمته ، وحجز فى مدينة البندقية كرهينة لسداد الديون التى عليه . وتحت حكم خليفته وابنه الصغير مانويل الثانى ، أدرك اوروبا الخطر المحدق ممثلا فى الأتراك العثمانيين . وكما فعل يوحنا الخامس، كذلك فعل ابنه مانويل الثانى الذى أخذ يهم على وجهه فى الغرب من باريس الى لندن بحثا عن حلفاء جدد ، ولكن دون جدوى . وفى عام ١٤٢٠ م تـــرك الحكم لابنه يوحنا الثامن . وتوفى بعد ذلك بخمس سنوات . واستمر تحرش الترك بالدولة البيزنطية اثناء حكمه ، حتى لقد اضطر حاكم تسالونيكا عام ١٤٢٣ م الى بيع المدينة للبنادقة خوفا من هجوم تركى مرتقب . وقد وقع ذلك الهجوم بالفعل بعد ذلك التاريخ بسبع سنوات حيث نجح فى مهمته . وقـــد

توفى يوحنا الثامن ١٤٤٨ م حيث خلفه أخاه قسطنطين الحادى عشر علـــى عرش الامبراطورية التى كانت تلفظ آخر انفاسها . وقد خبا آخر شعاع فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى مايو ١٤٥٣م . وأصبحت تلك الامبراطورية أثرا من آثار الماضى البعيد لايمكن اعادته الى الوجود .

هذا عرض سريع لعهود الأباطرة البيزنطيين الذين حكموا بعد اندرونيق الثانى وحتى نهاية البيت الباليولوجى ، مع مالمتلأت به من فوضى وحروب ومشاكل ومشاغل مست الدولة مسا عنيفا وحددت مصيرها . وتستحق هذه الأوضاع وقفة قصيرة امامها للتعرف على عوامل انهيار بيزنطة والظروف التى لابست هذا الانهيار .

والمهم فى حوادث تلك المشاحنات والفوضى والحرب التى كانت بيزنطة مسرحا لها ، أنه بعد حكم أندرونيق الثانى أخذ بعض الأشخاص من الطامعين يستعدون جيران الامبراطورية من عثمانيين وصرب وبلغار ضد منافسيهم ، وكافأوهم على مساعداتهم بالأموال والاقاليم . ولو كان الامر قد اقتصر على تلك المنافسات لأبناء البيوت الاقطاعية الكبرى ، لكان من الممكن على أحـــد المتنافسين القضاء على تلك الفتنة والنهوض بالدولة من جديد . غير أن سياسة اجتذاب أعداء الدولة ، ومكافاتهم على خدماتهم بمنحهم اقاليم من جسم الدولة، جعل تلك المنافسات الامبراطورية تضعف الدولة داخليا وخارجيا ، مما ساعد على تقوية أعدائها على حسابها . وهذا هو السبب فى أن ماقام به بعضـــ الأباطرة القادرين الذين تربعوا على عرش بيزنطة بعد ذلك لم تجد ولم ينفع . ومن هؤلاء الاباطرة مانويل الثانى (١٣٩١ — ١٤٢٥ م) ، وحنا الثامـــن (١٤٢٥ — ١٤٤٨ م) ، وقسطنطين الحادى عشر آخر الأباطرة (١٤٤٨ — ١٤٥٣ م).

ولم يكن عامل المنافسة والمشاحنة هو الوحيد الذى أدى الى انهيـــار وسقوط الدولة البيزنطية ، بل كانت هناك عوامل اخرى داخلية منها تلـــك

الثورة الاجتماعية التى انتشرت مبادئها فى أرجاء الدولة ، يضاف الى ذلك قيام حركة شبيهة بتلك الحركات التى قامت فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى .

ففى القرن الرابع عشر سرت فى بيزنطة موجة من السخط على الطبقة الارستقراطية . وقد قامت فى تسالونيكا ثورة تريد أن تجعل فى تلك المدينة حكومة مستقلة . وقد قامت حركات شبيهة بتلك الحركة فى مدن الغرب الاوروبى زمن الصراع بين البابوية والامبراطورية . وكان لتلك المدن وموقعها اثر واضح فى مصير النضال بين القوتين الكبيرتين فى الغرب واما عن الحركة الدينية فمنشأتها محاولة منخائيل الثامن التوفيق بين الكنيستين ، واحتجاج الكنيسة البيزنطية على ذلك ومعارضتها له ، مما ادى الى قيام نزاع جديد . وهناك حركة دينية اخرى مردها تأثر بعض رجال الكنيسة البيزنطية الارثوذكسية بأفكار القديس توما الاكوينى وغيره من كبار المفكرين الذين انجبتهم اوروبا فى اخريات العصر الوسيط . فقد نادى توما الاكوينى بوجوب تحكم العقل فى الأمور الدينية . وناهضت الكنيسة البيزنطية تلك الآراء الوافدة من غرب اوروبا .

وعندما قامت بيزنطة فى القرن الخامس عشر بمحاولة تستهدف توحيد الكنيستين رغبة منها فى الحصول على مساعدات من الغرب لانقاذ الامبراطورية من انهيار محقق والنهوض بها ، كان قد فات الوقت وافلت الزمام . ذلك أن الكنيسة البابوية وعالميتها التى نادت بها ، كانت وقتها ابعد من أن تكون فى قوتها ووحدتها وسطوتها التى تمتعت بها فى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط . وكانت آخر المحاولات فى الشأن هى تلك التى قام بها قسطنطين الحادى عشر سنة ١٤٥٢ م فى نفس الوقت الذى كان فيه الخطر العثمانى يقرع أبواب القسطنطينية .

تلك هى أهم العوامل التى ضغطت بعنف على انفاس الدولة البيزنطية، وجعلت اباطرتها عاجزين عن النهوض بها . يضاف الى ذلك الخلل الذى

اصاب الجهاز المالى ، وتدهور الحالة الاقتصادية والضعف الحربى . ذلك ان أحوال بيزنطة بعد ماصار لكل من البندقية وجنوه من قوة واتساع تجارى قد سلب الدولة كثيرا من مصادر الثروة التى كانت تعتمد عليها فى ادراة دولاب الحكم والعمل على استتباب الأمن والنظام فى البلاد . ذلك أن الضرائب الجمركية التى تملأ خزائن بيزنطة تحولت الى جنوه والبندقية ، كما أن التجارة فى البحر المتوسط قد تحول معظمها الى هاتين الجمهوريتين . وثمة سبب آخر فى قلة موارد الدولة ، هو كثرة الحروب والفتن الداخلية التى قللت من ضرائب الأطيان . فعمدت الدولة الى تزييف نقدها بتخفيض نسبة الذهب والفضة فى العملة لم تصبح خالصة العيار ، بل لم تعد تحتوى على معدن نفيس . كذلك عمد الأباطرة الى سياسة القروض ورهن مجوهرات القصر الامبراطورى،الامر الذى هز الدولة هزا عنيفا من الناحية الاقتصادية .

ويرجع الضعف الحربى الى استخدام الجند المرتزقة من الصرب والبلغار وغيرها من العناصر .وكان لكل تلك الدول اطماع فى الدولة البيزنطية، ولذلك لم تكن خدمتهم للدولة خالصة .

أما العوامل الخارجية فمصدرها البلغار والصرب والأتراك العثمانيون اذ أخذت دولة البلغار اعتبارا من القرن الثانى عشر تضايق الامبراطورية البيزنطية . ومع أنه أصابها الضعف فى القرن الرابع عشر ، الا أنها كانت لاتزال مصدر ازعاج لبيزنطة . وتمكن البلغار من التدخل فى شئون الدولة أيام اسرة باليولوجس . ثم قاموا بغارات متقطعة على جزيرة البلقان مما أضعف الامبراطورية . واذا كان خطرهم قد قل نسبيا فى أواخر عهد الدولة البيزنطية ، فقد كان الصرب خطرا حقيقا واضحا . اذ كانوا فى القرن الرابع عشر ممتدة من الدانوب ونهر الساف شمالا الى مقدونية غربا . وكان ملك عشر ممتدة من الدانوب ونهر الساف شمالا الى مقدونية غربا . وكان ملك الصرب المسمى دوشان قد علم اتباعه بأن يجعلوا الصرب صاحبة السيادة على جميع البلقان ، وأن يكون هو رمز تلك السيادة متربعا على كرسى امبراطورية الصرب فى القسطنطينية نفسها . وقد سبق دوشان الى ذلك

الحلم عديد من الدول والقوى التى ظهرت فى البلقان وجنوب ايطاليا مثـل البلغار والنورمان . ولقد بدا أنه من المستطاع ان تصل الصرب الى تحقيق حلمها . اذ استطاع دوشان أن يمد حدود الدولة الصربية الى شواطـىء البحر الأدرياتيكى بالاستيلاء على فالونا ودورازو . ثم أوصل حدود الصرب الشرقية الى المارتزا ، كما اوصل حدودها الجنوبية الى بحر ايجـه . وفى ١٣٤٦ م توج نفسه ملكا على الصربيين والرومان ، واعلن استقلال كنيسة صربيا عن القسطنطينية . وفى سنة ١٣٥٣ م حاول فتح مدينة القسطنطينية ولكنه مات دون أن يحقق حلمه . ولما كانت الدولة الصربية دولة استطاعت ان تصل الى ماوصلت اليه بفضل شخصيات محدودة ، وخلال فترات قصيرة من الزمن ، فقد كان شأنها شأن اىعمل فجائى معرض للزوال السريع بمثل سرعة نهوضها . ولهذا ضعفت دولة الصرب من بعد دوشان ، ولم تعد تمثل خطرا على بيزنطة .

على ان الدولة البيزنطية لم تستطع انتهاز تلك الفرصة ، وما كـان باستطاعتها الافادة منها . اذ كانت الدولة فى الواقع للأسباب التى اسلفناها عاجزة عن أن تفيد من أى شىء ، أو من اية فرصة مواتية فى القرن الخامس عشـر .

وبينما كانت تلك القوى السلافية تضعف من قوة الدولة البيزنطيـة ، وتستنزف جهودها ، وتقتطع من أطرافها ، وتتدخل فى شئونها الداخلية ، كان الا تراك العثمانيين يكونون لانفسهم دولة قوية فى آسيا الصغرى على حساب الامبراطورية البيزنطية بمجهودات زعمائها ارطغول وعثمان واورخان . وقد استولى العثمانيون على بروسا وجعلوها عاصمة لهم . كما استولوا على نيقية سنة ١٣٢٩ م وعلى نيقوميديا سنة١٣٣٧ م ، واطلوا بجيوشهم علـى البسفور فى السنة التالية . ولم يكن فى هذا جديد ، فقد سبق أن تقدمت جيوش اسلامية أخرى منذ ايام الفتوح الاسلامية الأولى ، وكذلك ايام السلاجقة . غير أنه لم يحدث أن عبرت قوة اسلامية البسفور بناء على طلب بعض المتنافسين

كما حدث عندما طلب الامبراطور الغاصب يوحنا السادس من بعض فئـات العثمانيين مساعدته سنة ١٣٥٣ م . وقد كوفىء السلطان اورخان على تلك المساعدة باعطائه قلعة على الشاطىء الأوروبى . وكان السلطان اورخان قد تزوج بأخت الامبراطور . وفى سنة ١٣٥٤ م ، استقر العثمانيون بجهات جاليبولى ، واحتلوا بعض مناطقهـا .

وخلاصة القول ان البيزنطية فى القرن الرابع عشر كانت ضعيفة بقدر ماكان جيرانها الطامعين فيها اقوياء . غير ان قوة الدولتين البلغارية والصربية كانت عرضا زائلا . اما القوة الناشئة فقد كانت الدولة العثمانية . ولقد استغلت هذه الدولة الجديدةالظروف الموجودة على مسرح الحوادث فى بيزنطة والشرق الادنى والبلقان ، حينما اهتبل مراد الاول فرصة ما بين بيزنطة وبين جيرانها الصرب والبلغار من صراع ، فاستولى على تراقية وعلى أوز سنة ١٣٦٠ م . ووضح تماما اتجاه العثمانيين فى تلك السنة عندما نقلوا عاصمتهم من بروسا الى ادرنة . ثم دار العثمانيون على الصرب والبلغار والحقوا بهم الهزيمة على نهر مارتزا . ووصلت بعض غزواتهم السريعة الى البانيا سنة ١٣٨٦ م . ثم هزموا البلغار فى واقعة قوصرة سنة ١٣٨٩ م ، كما جعلوا من البلقان شعبا خاضعا لهم ومن اراضيهم ملكا لهم .

وبلغ الأمر ان امبراطور الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت رضى أن يجعل نفسه تابعا للسلطان العثمانى ، وان يدفع له جزية سنوية ، وان يعاونه على الاستيلاء على ماتبقى للبيزنطيين فى آسيا الصغرى . واستمر الحال هكذا الى أن ضرب السلطان بايزيد الأول الحصار على مدينة القسطنطينية ، وعاود الكرة حتى سنة ١٣٩٥ ، وكانت أوروبا قد أفاقت الى الخطر العثمانى ، وخافت على البيزنطية بعد زوال البلقان والصرب ، وهالها قيام دولة اسلامية فى الأراضى الاوروبية . وكانت اوروبا وقتها لاتزال تعيش فى جـو الحروب الصليبية المتأخرة . واجتمعت اوروبا كلها فى حملة صليبية عرفت باسم حملة نيكوبوليس الصليبية لاخراج العثمانيين لا من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول الى بيت المقدس فى قلب امبراطورية المماليك ايضا ، تحقيقا للأطماع

الصليبية القديمة . وهكذا تقابل الأوروبيون والعثمانيون عند نيكوبوليس سنة ١٣٩٦ م ، ولكن الحملة الأوروبية الصليبية أخفقت فى صد الاتراك ودفع تقدمهم . وقد تناول تاريخ هذه الحملة ودقائقها وتفاصيلها ونتائجها الدكتور عزيز سوريال عطية فى كتاب يحمل اسم «حملة نيكوبوليس الصليبية» .

على أية حال ، فشلت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها ، ولقيت هزيمة شديدة على أيدى العثمانيين . وكان فشلها بمثابة آخر مسمار دق فى نعش الحركة الصليبية . وهكذا ماتت الفكرة الصليبية ولم تقم لها من بعد ذلك قائمة . أما السلطان بايزيد فقد أعقب ذلك الانتصار بمهاجمة القسطنطينية هجوما عنيفا سنة ١٣٩٧ م . ثم هدأ العثمانيون بعد ذلك فترة من الوقت لما حل بهم بسبب هجوم المغول عليهم ، وهزيمة بايزيد على يد تيمورلنك سنة ١٤٠٢ م . وقد وقع بايزيد نفسه فى أسر المغول ، وظل سنتين فى الأسر . وكان لهذا أثره على الدولة العثمانية التى انصرفت الى شئونها الداخلية مدة عشرين سنة . ولو كان بالدولة البيزنطية رمق من الحياة وقتذاك لاستطاعت أن تغتنم الفرصة وتحقق لنفسها نصرا ، ولكنها كانت فى دور الشيخوخة ، كانت شبحا يحتضر ، ولم تفق بعد من صدمة الدولة العثمانية ، كما لم تحاول استعادة شىء من أملاكها المسلوبة . بل الذى حدث أن الدولة العثمانية استطاعت النهوض من كبوتها بعد ضربة المغول ، وأن يعود اليها نشاطها وكان ذلك فى عهد مراد الثانى . فقد هاجم هذا السلطان العاصمة البيزنطية سنة ١٤٢٢ م . وهو وان كان لم يوفق فى تلك السنة ، الا انه استولى على تسالونيكا سنة ١٤٣٠ م . واستمرت الجيوش العثمانية فى تقدمها حتى انه لم يصبح لبيزنطة سوى القسطنطينية وضواحيها ، وأصبحت القسطنطينية تنتظر مصيرها المحتوم بين وقت وآخر .

ولم يؤخر سقوط عاصمة قسطنطين وقتذاك ، سوى أن العثمانيين لقوا أنواعا من المقاومة فى بعض البلاد التى فتحوها حديثا فى البلقان . وبعد أن قضى الترك على هذه المقاومة أخذوا يواصلون تقدمهم حتى استولوا على دوقية اثينا . ولم يبق فى واقع الأمر سوى القسطنطينية . وكانت نهايتها قد

اقتربت حينما اعتلى محمد الثانى العرش سنة ١٤٥١ م . فقد اعلن ان هدفه الأساسى هو الاستيلاء على القسطنطينية ، واعد الترك ١٦٠ الف مقاتل للاستيلاء عليها . على ان آخر اباطرتها قسطنطين الحادى عشر لم يستطع حشد سوى تسعة آلاف مقاتل . وحتى هؤلاء لم يكونوا راغبين فى القتال نظرا لمعارضتهم له فى فكرة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، تلك الفكرة التى سببت متاعب لا اول لها ولا آخر للدولة البيزنطية ، كما عرفت كثيرا من اباطرتها عن مشاكل الدولة . واتخذ القتال مسرحا له حول القسطنطينية نفسها ، وأمام ابوابها واسوارها . ومات اثناء القتال قسطنطين الحادى عشر آخر اباطرة البيت الباليولوجى وآخر امبراطور يحكم الدولة البيزنطية. وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م دخل السلطان محمد الثانى عاصمة قسطنطين ، وقصد الى كنيسة ايا صوفيا حيث اعلن سلطته ، وكذلك انتهاء الدولة البيزنطية . ويعتبر كتاب جوستاف شلومبرجيه عن حصار الترك للقسطنطينية واستيلائهم عليها من افضل ما كتب فى هذا الموضوع .

على اية حال ، واصل الاتراك بعد ذلك تقدمهم . ففى سنة ١٤٦٠م اكتسحوا البلبيونيز ، وفى سنة ١٤٦١ م قضوا على امبراطورية آل كومنين البيزنطية فى طرابيزون على البحر الأسود .

وهكذا بعد مايزيد عن عشرة قرون من الزمان عاشتها الدولة البيزنطية لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ،تسقط القسطنطينية فى قبضة العثمانيين، وبسقوطها تنهار آخر مؤسسة من مؤسسات العصور الوسطى بمثلها ومفاهيمها وفلسفتها ، ويبدأ عصر جديد فى تاريخ الانسانية باوضاع ومفاهيم جديدة مغايـرة .

قــــائمة

بأسماء الأباطرة البيزنطيين

ابتداء من قسطنطين الأول حتى قسطنطين الحادى عشر

اسرة قسطنطين
(٣٠٥ — ٣٧٨)

قسطنطين الكبير (الأول)	٣٠٥ — ٣٣٧ م
قنسطانتيــوس	٣٣٧ — ٣٦١ م
جوليان المرتـد	٣٦١ — ٣٦٣ م
جوفيـان	٣٦٣ — ٣٦٤ م
فالنس	٣٦٤ — ٣٧٨ م

اسرة ثيودوسيوس
(٣٧٩ — ٤٥٧)

ثيودوسيوس الكبير (الأول)	٣٧٩ — ٣٩٥ م
اركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨ م
ثيودوسيوس الثانى	٣٠٨ — ٤٥٠ م
مارشيـــان	٤٥٠ — ٤٥٧ م

الأسرة الليونيـة
(٤٥٧ — ٥١٨)

ليــو الأول	٤٥٧ — ٤٧٤ م
ليــو الثانى	٤٧٤ م
زينـــــو	٤٧٤ — ٤٩١ م
انبسطاسيوس الأول	٤٩١ — ٥١٨ م

اسرة جستنيـان
(٥١٨ — ٦١٠)

جستين الأول	٥١٨ — ٥٢٧ م
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥ م

جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨ م
تيبريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢ م
موريـــــس	٥٨٢ — ٦٠٢ م
فوكـــــاس	٦٠٢ — ٦١٠ م

اســرة هرقــل

(٦١٠ — ٧١٧)

هرقــل الاول	٦١٠ — ٦٤١ م
قسطنطين الثالث	٦٤١ م
هرقليوناس	٦٤١ م
قنسطانز الثانى	٦٤١ — ٦٦٨ م
قسطنطين الرابع	٦٦٨ — ٦٨٥ م
جستنيان الثانى	٦٨٥ — ٦٩٥ م
ليونتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨ م
تيبريوس الثالث	٦٩٨ — ٧٠٥ م
جستنيان الثالث	٧٠٥ — ٧١١ م
فيليبيكوس باردانيس	٧١١ — ٧١٣ م
انسطاسيوس الثانى	٧١٣ — ٧١٥ م
ثيودوسيوس الثالث	٧١٥ — ٧١٧ م

الأسرة الأيســورية

(٧١٧ — ٨٢٠)

ليو الثالث الأيسورى	٧١٧ — ٧٤٠ م
قسطنطين الخامس	٧٤٠ — ٧٧٥ م
ليو الرابع الخزرى	٧٧٥ — ٧٨٠ م
قسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧ م
ايريــن	٧٩٧ — ٨٠٢ م
نقفــــور الأول	٨٠٢ — ٨١١ م

ستوراكيوس	٨١١ م
ميخائيل الأول	٨١١ — ٨١٣ م
ليو الخامس الأرمينى	٨١٣ — ٨٢٠ م

الأسرة العامورية

(٨٢٠ — ٨٦٧)

ميخائيل الثانى العامورى	٨٢٠ — ٨٢٩ م
ثيوفيلس	٨٢٩ — ٨٤٢ م
ميخائيل الثالث	٨٤٢ — ٨٦٧ م

الأسرة المقدونية

(٨٦٧ — ١٠٥٩)

بازيل الأول المقدونى	٨٦٧ — ٨٨٦ م
ليو السادس (العاقل)	٨٨٦ — ٩١٢ م
الاسكندر	٩١٢ — ٩١٣ م
قسطنطين السابع	٩١٣ — ٩١٩ م
رومانوس الأول ليكابينوس	٩١٩ — ٩٤٤ م
قسطنطين السابع	٩٤٤ — ٩٥٩ م
رومانوس الثانى	٩٥٩ — ٩٦٣ م
بازيل الثانى	٩٦٣ م
نقفور الثانى فوكاس	٩٦٣ — ٩٦٩ م
يوحنا الأول تزمسكيس	٩٦٩ — ٩٧٦ م
بازيل الثانى	٩٧٦ — ١٠٢٥ م
قسطنطين الثامن	١٠٢٥ — ١٠٢٧ م
رومانوس الثالث ارجيروس	١٠٢٨ — ١٠٣٤ م
ميخائيل الرابع البفلاجونى	١٠٣٤ — ١٠٤١ م
ميخائيل الخامس	١٠٤١ — ١٠٤٢ م

زوى وتيودورا ١٠٤٢

قسطنطين التاسع مونوماخوس ١٠٤٢ — ١٠٥٥ م

تيـــودورا ١٠٥٥ — ١٠٥٦ م

ميخائيل الســادس ستراتيوتيكوس ١٠٥٦ — ١٠٥٧ م

اسحق الأول كومنين ١٠٥٧ — ١٠٥٩ م

اسرة دوكـــاس

(١٠٥٩ — ١٠٨١)

قسطنطين العاشر دوكاس ١٠٥٩ — ١٠٦٧ م

ميخائيل السابع ١٠٦٧ — ١٠٦٨ م

رومانوس الرابع ديوجينيس ١٠٦٨ — ١٠٧١ م

ميخائيل السابع ١٠٧١ — ١٠٧٨ م

نقفور الثاث ١٠٧٨ — ١٠٨١ م

اسرة كومنين

(١٠٨١ — ١١٨٥)

الكسيس الأول كومنين ١٠٨١ — ١١١٨ م

يوحنا الثانى ١١١٨ — ١١٤٣ م

مانويل الأول ١١٤٣ — ١١٨٠ م

الكسيس الثانى ١١٨٠ — ١١٨٣ م

اندرونيق الأول ١١٨٣ — ١١٨٥ م

اسرة انجيلـــوس

(١١٨٥ — ١٢٠٤)

اسحق الثانى انجيلوس ١١٨٥ — ١١٩٥ م

الكسيس الثالث ١١٩٥ — ١٢٠٣ م

الكسيس الرابع ١٢٠٣ — ١٢٠٤ م

الكسيس الخامس ١٢٠٤ م

اسرة لاسكاريــد
(اباطرة بيزيطة فى نيقية)
(١٢٠٤ — ١٢٥٨)

تيودور الأول لاسكاريين	١٢٠٤ — ١٢٢٢ م
يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس	١٢٢٢ — ١٢٥٤ م
تيودور الثانى لاسكاريس فاتاتزيس	١٢٥٤ — ١٢٥٨ م
يوحنا الرابع دوكاس فاتاتزيس	١٢٥٨ م

اسرة باليولوجــس
(١٢٥٨ — ١٤٥٣)

ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٨ — ١٢٨٢ م
اندرونيق الثانى	١٢٨٢ — ١٣٢٨ م
اندرونيق الثالث	١٣٢٨ — ١٣٤١ م
يوحنا الخامس	١٣٤١ — ١٣٤٧ م
يوحنا السادس كنتاكوزينوس	١٣٤٧ — ١٣٥٥ م
يوحنا الخامس	١٣٥٥ — ١٣٧٦ م
اندرونيق الرابع	١٣٧٦ — ١٣٧٩ م
يوحنا الخامس	١٣٧٩ — ١٣٩٣ م
يوحنا السابع	١٣٩٠ م
يوحنا الخامس	١٣٩٠ — ١٣٩١ م
مانويل الثانى	١٣٩١ — ١٤٢٥ م
يوحنا الثامن	١٤٢٥ — ١٤٤٨ م
قسطنطين الحادى عشر	١٤٤٨ — ١٤٥٣ م

مراجـــع

فى

تاريخ الدولـــة البيزنطيــة

اولا — مراجع عربيــة

ابراهيم احمد العدوى (دكتور) :

١ — الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية — القاهرة ١٩٥١.

٢ — الأمويون والبيزنطيون — القاهرة ١٩٦٣ .

اسحق عبيد (دكتور) :

١ — روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين (٨٦٩ — ١٢٠٤) — القاهرة ١٩٧٠ .

٢ — الدولة البيزنطية فى عصر باليولونموس (١٢٦١ — ١٢٨٢) — بيروت [بدون تاريخ] .

اسمت غنيم (دكتورة) :

١ — امبراطورية جستنيان — الاسكندرية ١٩٨٢ .

٢ — الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية — الاسكندرية ١٩٨٢ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ — العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبيــة الاولى — ط . رابعة — الاسكندرية ١٩٨٣ .

٢ — دراسات فى تاريخ العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ .

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية : **حسنين محمد ربيع (دكتــور)** — القاهرة ١٩٨٣ .

رافت عبد الحميد (دكتور) .

١ — الدولة والكنيسة — الجزء الاول : قسطنطين — القاهرة ١٩٧٥ .

٢ — الدولة والكنيسة — الجزء الثانى : اثناسيوس — القاهرة ١٩٨٠ .

زبيدة محمد عطا (دكتورة) :

١ — المقاتل البيزنطى — سلسلة دراسات جامعة المنيا — المنيا ١٩٨٢ .

٢ — الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية — القاهرة ١٩٨٢ .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

١ — الدولة البيزنطية — القاهرة ١٩٦٠ .

٢ — مصر البيزنطية — القاهرة ١٩٦١ .

عبد القادر احمد اليوسف (دكتور) : الامبراطورية البيزنطية—بيروت ١٩٦٦ .

عبد الغنى محمود عبد العاطى (دكتور) : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١—١١١٨) القاهرة ١٩٨٣ .

علية عبد السميع الجنزورى (دكتورة) :

١ — الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٧٩ .

٢ — الامبراطور ايرين — القاهرة ١٩٨١ .

٣ — المراة فى الحضارة البيزنطية — القاهرة ١٩٨٢ .

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ — الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة — (٩٦٣ — ٩٦٩) — الاسكندرية ١٩٥٩ .
٢ — مقدمات العدوان الصليبى : الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية — الاسكندرية ١٩٦٦ .
٣ — تاريخ الامبراطورية البيزنطية — الأسكندرية ١٩٦٧ .

محمود سعيد عمران (دكتور) : ادارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس — عرض وتحليل وتعليق د . محمود سعيد عمران — بيروت ١٩٨٠ .

نعيم زكى فهمى (دكتور) : العلاقة بين امارة انطاكية الصليبية والدولة البيزنطية فى عهد الحملة الصليبية الأولى — القاهرة ١٩٦٨ .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :

١ — العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى — الاسكيدرية ١٩٨١ .
٢ — دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية — الجزء الأول : الامبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ — ١٠٢٥م — الاسكندرية ١٩٨٢ .

ثانيا — مراجع معربــة

اومان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية — ترجمـــة د. مصطفى طه بدر — القاهرة ١٩٥٣.

بتلر (الفرد ج.) : فتح العرب لمصر — عربه محمد فريد ابو حديد — القاهرة ١٩٣٣ .

بينز (ن.) الامبراطورية البيزنطية — ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايــد — القاهرة ١٩٥٠ .

تشارلزوورث (م.ب.) : الامبراطورية الرومانية — ترجمة رمزى عبده جرجس — مراجعة د. محمد صقر خفاجة — القاهرة ١٩٦١ .

ديل (ش.) : تيودورا الممثلة المتوجة — ترجمة حبيب جاماتى — القاهـــرة [بدون تاريخ] .

رنسيمان (س.) : الحضارة البيزنطية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويـــد — القاهرة ١٩٦١ .

عزيز سوريال عطية (دكتور) : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينـــا العربية — الجزء الأول — ترجمة وتقديم د . جوزيف نسيم يوسف — الاسكندرية ١٩٧٠ .

كلارى (ر.) فتح القسطنطينية على يد الصليبيين — ترجمة وتقديم د. حســـن حبشى — القاهرة ١٩٦٤ .

هسى (ج.م.) : العالم البيزنطى — ترجمة وتقديم وتعليق د. رافت عبـــد الحميد — القاهرة ١٩٧٧ .

ثالثا : المراجع الاجنبية

Alexander, P.J., The Patriarch of Constantinople, Oxford, 1958.

Ankori, Z., Karaites in Byzantium : The Formative Years, 979-1100, New York, 1959.

Bailly, A., Byzance, Paris, 1939.

Baker, B.G., The Wall of Constantinople, London, 1910.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought of Byzantium, Oxford, 1957.

Barth, H., Constantinople, Paris, 1906.

Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939.

Baynes, N. & Moss, H. (eds.), Byzantium, Oxford, 1953.

Bloy, L., Constantinople., Paris, 1917.

Bury, J.B.,

1. A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (A.D. 802-867), London and New York, 1912.

2. History of the Later Roman Empire from the Death of Theo I to the Fall of Justinian, 2 Vols., London, 1923.

3. History of the Later Roman Empire (395-800), 2 Vols., New York, 1958.

Byzantinae Historiae Scriptores, 47, Vols., Paris, 1645-1711.

Cobham, C.D., Patriarchs of Constantinople, Cambridge, 1911.

Comnena, A., The Alexiad of the Princess Anna Comnena, trans. by E.A.S. Dawes, London, 1928.

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, 50 Vols., Bonn, 1828-1897.

Debidour, A., L'Impératrice Théodora, Paris, 1885.

Diehl, Ch.,

1. L'Afrique Byzantine, Histoire de la Domination Byzantine en Afrique (553-709), Paris, 1896.
2. Justinien et la Civilisation Byzantine au VIe Siècle, Paris, 1901.
3. Théodora : Impératrice de Byzance, Paris, 1904.
4. Etudes Byzantines, Paris, 1905.
5. Dans l'Orient Byzantin, Paris, 1917.
6. Byzance : Grandeur et Décadence, Paris, 1919
7. Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920.
8. Figures Byzantines, 2 Vols., Paris, 1921.
9. L'Europe Orientale de 1081-1453 (T.IX : Moyen Age), Paris, 1945.

Ebersolt, J., Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, Paris. 1919.

Every, G., The Byzantine Patriarchate, 451-1204, London, 1962.

Fedwick, P.J. (ed.), Basil of Caesarea, 2 parts, Toronto, 1981.

Finlay, G., History of the Byzantine Empire, from DCCXVI to MLVII, New York, 1906.

Foord, E.A., The Byzantine Empire : The Rearguard of European Civilization London, 1911.

Gardner, A., The Lascarids of Nicaea, the Story of an Empire in Exile, London, 1912.

Gelzer, H., Byzantinische Kulturgeschichte, Tübingen, 1909.

Gernier, P., L'Empire Byzantin, son Evolution Sociale et Politique, 2 Vols., Paris, 1904.

Grupe, E., Kaiser Justinian, Leipzig, 1923.

Harrison, E., Byzantine History in the Early Middle Ages, London, 1900.

Hertzberg, G.F., Geschichte der Byzantiner und des osmanischen Reiches bis gegen Ende des sechszehnten Jahrhunderts, Berlin, 1883.

Hesseling, D.C., Essai sur la Civilization Byzantine. French Trans. With a Preface by G. Schlumberger, Paris, 1907.

Holmes, W. G., The Age of Justinian and Theodora, 2 Vols., London, 1905-1907.

Hussey, J., The Byzantine World, London, 1957.

Hutton, W. H., Constantinople : The Story of the Old Capital of the Empire, London, 1907.

McCabe, J., The Empresses of Constantinople, London, 1913.

Miler, W., The Latins in the Levant : A History of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908.

Oman, Ch., Story of the Byzantine Empire, New York, 1892.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by Hussey, Oxford, 1956.

Pargoire, J., L'Eglise Byzantine de 527 à 847, Paris, 1905.

Pears, E., The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by the Turks, London and New York, 1903.

Rambaud, A., Etudes sur l'Histoire Byzantine, Paris, 1912.

Alexander,

Rice, D. T., Byzantine Art, London, 1954.

Roth, K., Geschichte des byzantinischen Reiches, Leipzig, 1904.

Runciman, S.,

1. Byzantine Civilisation, London, 1948.
2. The Eastern Schism, Oxford, 1956.

Schlumberger, G.,

1. L'Epopée Byzantine à la fin du dixième siècle, 3 parts, Paris, 1890-1904.
2. Le Siège, la Prise et le Sac de Constantinople par les Turcs, Paris, 1914.

3. Recits de Byzance et des Croisades, Paris, 1917.

4. Un Empereur Byzantin au 10e siècle : Nicéphore Phocas, Paris, 1923.

Stewart, C., Byzantine Legacy, London, 1959.

Ure, P.N., Justinian and his Age, London, 1951.

Van Milligen, A., Byzantine Constantinople : The Walls of the City and Adjoining Historical Sites, London, 1899.

Vasiliev, A.A., Histoire de l'Empire Byzantin, 2 Vols., Paris, 1932.

Wand, T. W.C., The Four Great Heresies, London, 1957.

بسم الله الرحمن الرحيم

كشاف ابجدي عام

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ك)

(ن)

فهرس المحتويات

وتيودورا — سياسته فى الداخل والخارج — مدى نجاحه فى تحقيق سياسته الخارجية أو اخفاقه فيها — الحضارة فى عهده : اهتمامه بفن البناء والتعمير — الأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عهده — القانون والتشريع — نهاية حكم بيت جستنيان : جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) — تيبريوس الثانى (٥٧٨ — ٥٨١) — موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) — فوكاس (٦٠٢ — ٦١٠ ، حالة الدولة البيزنطية عند نهاية بيت جستنيان .

اسرة هرقل

(٦١٠ — ٧١٧)

حالة الدولة البيزنطية قبل اعتلاء هرقل العرش — الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) : المشاكل التى واجهت هرقل خلال حكمه — الحالة عندما تسلم مقاليد الحكم — الكفاح بين هرقل والفرس — سياسة هرقل الدينية — الصراع بين هرقل والعرب — خاتمة حكم هرقل — نهاية بيت هرقل (٦٤١— ٧١٧) ومميزاتها العامة .

الاسرة الأيسورية

(٧١٧ — ٨٢٠)

الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ — ٧٤٠) : اعتلاؤه العرش — حصار العرب للقسطنطينية وفشله — ليو والحملة على الأيقونات ، مع بيان اسبابها ، وتطورها ، ومراحلها ، والنتائج المترتبة عليها — ليو الثالث وقانون الاكلوجا — تطور الحركة اللاايقونية منذ وفاة ليو الثالث حتى نهاية البيت الايسورى : قسطنطين الخامس (٧٤٠ — ٧٧٥) — ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) — قسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٧) — ايرين (٧٩٧ — ٨٠٢) — نقفور الاول (٨٠٢ — ٨١١) — ميخائيل الاول (٨١١ — ٨١٣) — ليو الخامس (٨١٣ — ٨٢٠) .